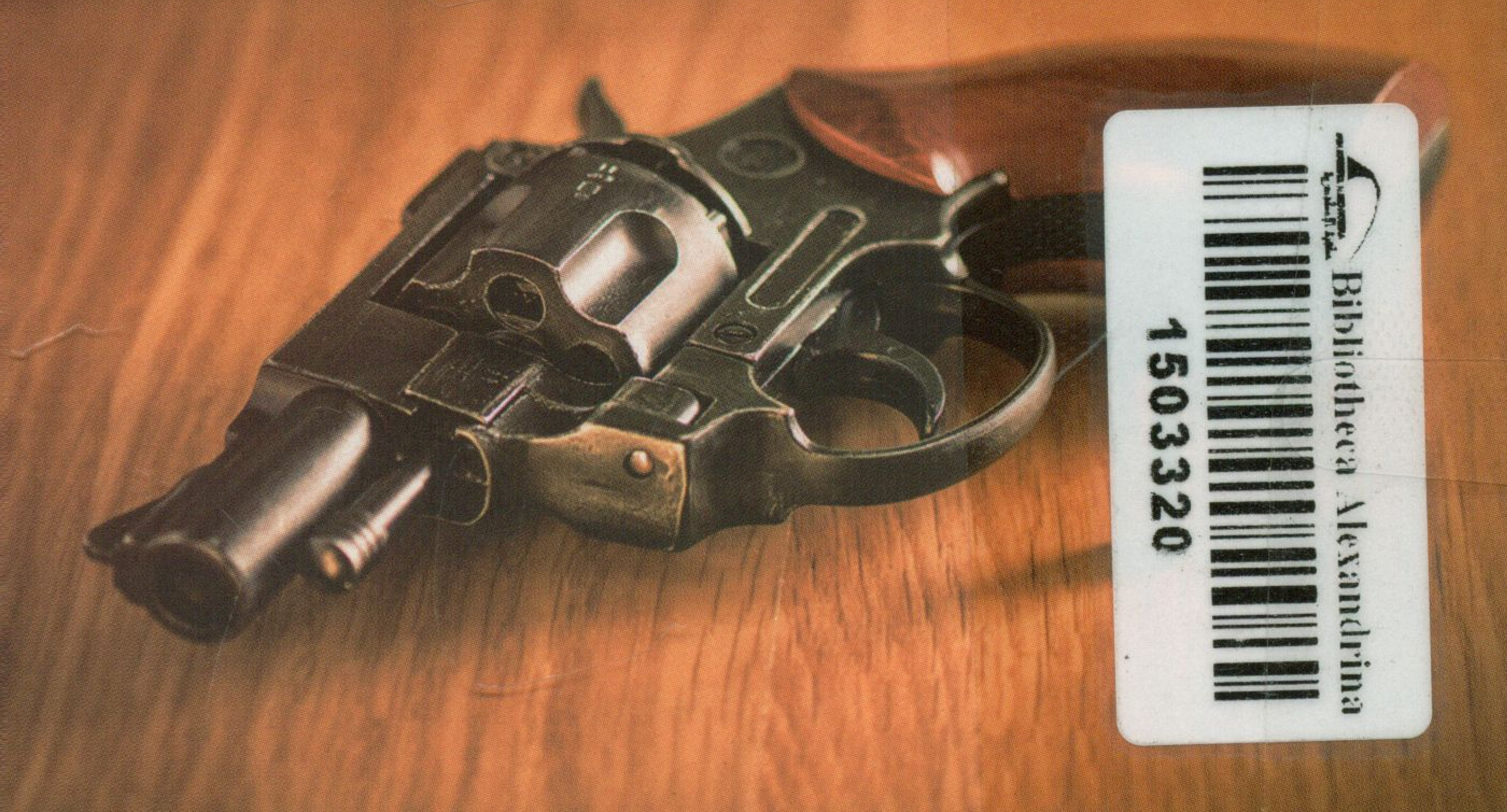
أمير عاطف

رواية

لا شيء مما سبق



دار دوّن

لا شيء مما سبق

الطبعة الأولى : يناير 2016
رقم الإيداع : 23085/ 2015
الترقيم الدولي : 6-85-6426-977-978
تصحيح لغوي : مصطفي السيد سمير
تصميم الغلاف : كريم أدم

تليفون : 01020220053
E_mail: info@dardawen.com
www.dardawen.com

لا شيء مما سبق

رواية

أمير عاطف

دَوِّنْ
للنشر و التوزيع

دار دوّن للنشر والتوزيع

إهداء

إلى أمي.. التي نهلتُ من معينِ حنانها حتى ارتويت، أدعو الله يا أمي أن يسكنك فسيح جناته، وينزل عليكِ شآبيب رحمته.

إلى أبي.. الذي حقن أوردتي بمبادئه التي أحيا بها، وأسير عليها الآن.

إلى زياد.. ولدي.. لعلّي أجعله فخورًا بي دومًا.

أمير

«يولد العقل كصفحةٍ بيضاء، ومن ثم تأتي التجربة لتنقش عليه ما تشاء»

جون ستيوارت ميل، فيلسوف
واقتصادي بريطاني، (١٨٠٦-١٨٧٣)م

(١)

لم يكن «بدر الدين الجمالي» يعلم حينما شرع في بناء باب زويلة، أنه سيكون بعد عدة قرون مكانًا يحتضن واحدة من أكبر عمليات تسليم الهيروين في مصر!

بدا اليوم عاديًا جدًا، كأيّ يوم آخر في شارع الغورية المُكتظّ بالمحلات المُعلَّق على أبوابِها ملابس نسائية وكل ما يلزم المُقْبِلات على الزواج. عربات يدوية عليها صناديق، تروح وتجيء يجُرّها صبية إلى الخارج حيث الشارع الرئيسي والعكس. عربة الفول المُلتفّ حولها أناسٌ يتناولون وجبة الإفطار المؤسِّسة ليومهم؛ طبق فول صغير جدًا وطبق سلطة بستة أرغفة! بجواره بائع مشروبات مُثلَّجة؛ تمر، سوبيا ودوم يلتفّ حوله الصغار والكبار. يمرّ من جانبهم أربعة أشخاص مُتجهين إلى مبنى باب زويلة، دلفوا من الباب الصغير لشراء تذاكر لزيارة الأثر من الرجل القابع بالداخل جالِسًا وبالكاد يُغالِب نومه، وعندما لاحظ هيئتهم هبَّ من مكانه مُرَحِبًا بهم ترحيبًا عظيمًا.

تلك المجموعة ليست إلا نبيل الجَيَّار ورجاله؛ يحمل أحدهم حقيبة على ظهره تحتوي على مائة ألف دولار، واقفين بالأعلى بين المئذنتين

ينتظرون المعلم جبريل وابنه الذي جاء مُنتَطِقًا في وسطه تحت ملابسه حِزامًا يحتوي على نصف كيلو هيروين. كان المبنى خاليًا من الناس باستثناء عامل نظافة انتهى من جمع القمامة وألقاها من أعلى المبنى!

بين نظرات متبادلة يشوبها بعض من الريبة، صافحوا بعضهم البعض قبل أن يبدأ جبريل بالحديث: إشمعنى المكان ده اللى اخترته نتقابل فيه يا جيَّار؟! ماكانش فيه مكان غيره؟

- إنت هنا يا معلم جبريل في آأمن مكان في مصر، استحالة حد يكتشف إن يتم فيه صفقة زي دي.

نظر جبريل وابنه وقد نالتهم الدهشة قائلا وهو يضرب كفًا بكف: إزاي يا عم ده احنا في عِبّ الحكومة كلها!

- ماهو عشان كده باقول لك إن ده آأمن مكان. آخر واحد من الحكومة طلع المبنى ده كان في عهد محمد علي.

قالها الجيَّار بابتسامة تنم عن شعورٍ جارفٍ بالأمان، قبل أن يسمعوا حفيف خطواتٍ حولهم، فخرج من المئذنتين اليمنى واليسرى ثمانية أشخاص بزي عساكر أمن مركزي، كانوا قابعين بانتظارهم منذ ساعة يراقبونهم بالأعلى، حاصروهم بعد أن أحكموا عليهم الفخ، مُشهرين أسلحتهم، فتمكنوا في غضون ثوانٍ من السيطرة عليهم وتقييدهم، وضبط الأحراز التي بحوزتهم، بالتزامن مع خروج المقدم خالد سليمان الكحكي من المئذنة اليمنى. عاقدًا يديه خلف ظهره وراح يتفرس وجوههم قبل أن تنطلق منه ضحكة ساخرة دوت في المكان قائلا لجبريل:

- في الحقيقة يا معلم جبريل كلام نبيل الجيَّار مش دقيق، الظاهر إنه ماذاكرش تاريخ كويس، ع الأقل تاريخي.

ذُهِلَ الجيار حينما رأى المُقدم خالد وظل فاغرًا فاه من هول المفاجأة، غير مُصدق ما تراه عيناه. نفس رد الفعل ارتسم على وجه جبريل فاستطرد خالد ساخرًا:

ـ مالك يا جيَّار؟! مستغرب من إيه؟! (استحال وجهه فجأة إلى العبوس وأردف بصوتٍ عالٍ). إنت فاكر يا روح أمك إن ممكن يكون فيه بيننا اتفاق وصفقة بجد؟! (التفت إلى جبريل موجهًا كلامه له) على فكرة يا معلم، أنا هاقول لك حاجة عشان أخلَّص ذمتي من ربنا، نبيل الجيَّار باعك لنا.

نظر له جبريل مُنصِتًا مُستفهِمًا قاطبًا جبينه، يتطاير الشرر من عينيه، فأردف خالد مُتهكمًا بانتشاء:

ـ أيوه باعك لنا والله، وسَلِّمَك ولا مؤاخذة تسليم أهالي، يغريك تعمل معاه صفقة ويجيبك هنا عشان نقبض عليك مقابلَ مية وخمسين باكو. الله أعلم باللي بينكم، مايهمنيش ومش عاوز أعرف السبب في إنه يبيعك. المهم ابقوا اتحاسبوا مع بعض في سجن وادي النطرون بقى.

قاطعه جبريل في هدوء: الكلام اللى باسمعه ده بجد يا نبيل يا جيَّار؟ آه كلب يابن الخاينة، إزاي تاه عن بالي إنك...

قاطعه الجيار: إوعاك تصدقه يا معلم جبريل. ده عاوز يوقعنا في بعض وحياة رحمة أبو...

قاطعه خالد: وحياة رحمة أبوك لأدخلك السجن ومش هتشوف الأسفلت تاني. رجال الشرطة الشرفا يا نبيل استحالة يحطوا إيديهم في إيدين مهربين وحرامية، ماتصدقش كلام قنوات الدش.

كان ذلك بالتزامن مع دوي سارينات سيارات الشرطة بالأسفل لتكسر هدوء المبنى قبل أن تنزل منها قوة من القسم للاقتحام. لم يستغرق الأمر منهم سوى دقائق تم فيها القبض عليهم جميعًا دون أيّ مقاومة تذكر، بينما نظر إلهيم خالد نظرة تشفٍ واضحة ممزوجة بثقة في النفس.



الخميس ٢٩ سبتمبر ٢٠١١ ـ الساعة ١٠:٤٣ صباحًا.

في قسم الشرطة مُتهتِّك الجدران. ذي الطابقين، الأول لخدمات المواطنين كعمل محاضر تُلقى بعد ذلك في الأدراج بعد دفع ٣ جنيه و٤٥ قرش للمحضر، أو للكشف على صحيفة حالة جنائية «فيش وتشبيه». بينما الطابق الثاني الذي في واجهته مكتب مأمور القسم، وعلى يمينه مكتب «الاستيفاء» المثبت في أرضيته أربعة «جانشات» مُقيَّد في ثلاثة منهم ثلاثة (مُسجَّلي خطر) قد تلقُّوا العديد من الصفعات وبعض اللكمات على وجوههم مصحوبة بسيلٍ من السباب والشتائم كي يعترفوا بتفاصيل واقعة سرقة سيارات، لم يعترفوا حتى الآن لكنهم سيعترفون، آجلاً أم عاجلاً.

في المكتب المقابل المُعَلَّق بجانبه يافطة مطموس بعضها، كانت نحاسية لامعة يومًا ما، مكتوب عليها *«المقدم خالد الكحكي»* الجالس في مكتبه ممسكًا بسماعة هاتفه، وباليد الأخرى خنجرًا يمنيًا.

ـ يا أسطى زينهم إحنا كنا حلوين مع بعض لحد ما ولاد الـ (...) اتملعنوا وطمعوا وكانوا عاوزين يلهفوا فلوس الكارتة لحسابهم، وإنت عارف إن كله إلا إن حد يستهفأني. لا الكلام ده كان إمبارح قبل ما أحذرهم مرة واتنين وتلاتة، فلازم يتربوا عشان يعرفوا إن اللي يفكر يضحك على خالد الكحكي هيزعل ويشيل أوبح، يومين تلاتة وهيطلعوا متربيين بعد ما يرجعوا فلوس الكارتة مضروبة في أربعة، دي فلوس الدولة ما إنت عاااااااارف. آمين، يومين تلاتة. سلام.

دخل عسكري مذلولاً منكسرًا كمراهقة هُتِك عرضها للتوّ، مُمسِكًا بكيس أسمر يحتوي على ثلاثة أرغفة فول، بصلتين كبيرتين وثلاثة قرون فلفل أخضر، وضعها على مكتبه بعد أن ألقى التحية الميري.

ـ الفطار سعاتك يا خالد بيه.

ـ وفين الشاي؟! من إمتى يابني الفطار بيجيلي من غير الشاي؟ سأله وهو يضع سماعة الهاتف.

ـ الشاي جاي ورايا سعاتك.

لم يُكَمِّل جملته حتى دخل عسكري آخر لا يقل انكسارًا عن زميله، مُمسِكًا كوب شاي بيدٍ مرتعشة، ووضعها على مكتبه قبل أن يلقي تحيته هو الآخر، بنبرةٍ أعلى: الشاي يا خالد بيه، آسف ع التأخير سعاتك.

ـ العيال اللي في الاستيفا اعترفت ولا لسه؟ سأله وهو يخرج الساندويتش، فأجابه وما زال رافعًا يده عند حاجبه: خلاص يا باشا واحد منهم اعتـ...

قاطعه بعصبية مصدرًا صوتًا من مؤخرة أنفه، بعد أن قضم قضمة من الساندويتش: مين ابن العـ... اللي واقف تحت على عربية الفول؟ ومين اللي عمل لي السندويتشات دي؟!

ـ سـ.. سعـ.. سعادتك اللي عملها الواد قِدرة.
ـ عَرَّفته إنها ليا؟
ـ آه سعادتك.
طب روح هاتهولي من قفاه هو والكلب اللي معاه.
خرج العسكري بسرعة البرق، فاصطدم كتفه عند الباب بكتف عسكري آخر يدخل، مقيدة يده بيد مُسجَّل خطر:
ـ تمام يا فندم، وليد دبرياش أهو سعادتك.
نهض خالد وبصق القضمة التي قضمها في وجه دبرياش، كان للعسكري الذي يقيده نصيب منها.
ـ إنت فاكر يا روح امك أنا قاعد في مكتبي وماعرفش كام عربية سيرفيس طِلعِت، وعَمَلِت كام دور؟ بتستلطخني يله؟!
رد عليه دبرياش وهو يمسح وجهه بانكسار وتقزز لم يجرؤ على إظهاره:
ـ يا سعات الباشا وحياة أمي هي دي كل الفلوس اللي لميناها، إلهي أتفرم ما خدت ملين في جيبي.
ـ تاااااني بتكدب؟ دخلّوه الإنعاش وخلوه يستناني، أنا هانعش أمك يابن الكدابة.
ـ لا والنبي يا سعادة الباشا، كله إلا الإنعاش، أبوس رجلك يا خالد بيه آخر مرة، وحياة ربونا ما هتتكرر تاني، والنبي يا خالد بيه لتسامحني.
ـ بكرة تجيب الإيراد مضروب في أربعة، وعلى الله تتكرر تاني، المرة دي أنا هاعمل خاطر للأسطى زينهم، وللوسخة أمك اللي متبهدلة طول اليوم قدام نصباية الشاي. إقلع فانلتك دي، أمسح بيها مكتبي

والمكاتب اللي في الدور كلها، والترابزين لحد تحت، وهاستناك بكرة.

ـ أوامرك يا خالد باشا.

بدأ دبرياش في مسح المكتب كخادمة مُتمَرِسة، بينما دخل عسكري ومعه «قِدرة» وصبيّه. فاستقبلهم خالد بوابل من السباب:

ـ الفول ناقص ملح ليه يا روح اللي جابتك، والبصل مش متقطع. هه؟ عملتها قبل كده وكنت عامل زي المرة قدامي عشان أعديهالك، المرة دي مش هاعديهالك.

ـ عليا الحرام من مراتي يا خالد باشا شنتوتشاتك اتبدلت مع شنتوتشات زبون تاني غصبن عني، عليا الحرام من مراتي ما كان...

قاطعه خالد بهدوء.

ـ روح سيأ الحمامات يا روح أمك، والكلب ده يطلع يقف مكانك ع العربية، ويجيب لي سندويتشات تتاكل، وإنت بعد ما تخلص مسح الحمامات هتتحبس ٤٨ ساعة، المرة دي يومين، المرة الجاية هالبِّس أمك جُنحة.

خرج الصبي كعبد أعتق توًا من سوق الرقيق، بينما توسَّل «قِدرة»:

ـ حاضر يا وليد بيه آنا آسف مش هتتكرر تاني، بس وحياة الغاليين عندك بلاش الحمامات.

ـ كلمة تانية وحياة الغاليين عندي هاخليك تلحس الحمامات بلسانك مش تمسحها بس. غور من وشي.

خرج الجميع من غرفة مكتب المقدم خالد، ما عدا العسكري الذي أحضر الشاي ولا يزال رافعًا يده عند حاجبه، نظر له خالد رافعًا حاجبيه فاتحًا كفَّه باندهاش. ما تمشي يابني!!

أرجع بعدها رأسه للوراء، بعد أن أشعل سيجارة وزفر دخانها بقوة، ثم مسك هاتفه المحمول وأجرى مكالمة قائلا:
- إيه يا سِيد أملك. بكرة في نفس المكان قبل الصلاة.



مستشفى قصر العيني.

طُرقة طويلة بها نوافذ مكسورٌ معظم زجاجها، حوائطها مُهترِئة، متآكلة، مطموس طلاؤها منذ زمن. تجلس سيدة نائحة واضعة يديها على رأسها، تهتزّ ذات اليمين وذات الشمال، تُهمهم بكلام ليس مفهومًا وحولها الأقارب يواسونها، أناس آخرون يستندون إلى الجدار جالسين القرفصاء؛ مرضى، بأجسادٍ واهنة لا تخلو من مرض، بصحبة مرضى آخرين لا تخلو أجسادهم أيضًا من مرض. ما بين مرضى السُكَّري، فشل كلوي، قلب. وأمراض أخرى. لا يملكون إلا عشمًا في الانتظار خمس أو ست ساعات فقط. ليأتي طبيب يشخصهم في دقيقتين ويرحلوا بعد أن يكتبوا الدواء اللازم لهم.

بآخر هذه الطرقة يسارًا توجد غرفة تخزين الأدوية المرصوصة داخل دواليب مشاع لأي شخص سواء يعمل بالمستشفى أم لا. بجانب أحد الدواليب سرير تتأوه فوقه ممرضة يعتليها أحد الأطباء الذي أخذ يُقبّلها ويعبث بجسدها في نهمٍ حتى انتهى منها ونهض، نهضت هي الأخرى بعدما عدلت من ملابسها وانحنت لتلتقط البالطو من الأرض لترتديه

مرة أخرى، في الوقت الذي وضع فيه الطبيب ثلاثين جنيهًا في جيبها وخرج فخرجت وراءه مُمسِكة بحقنة أنسولين كانت من المفترض أن تحقن بها أحد المرضى منذ نصف ساعة!

كانت شادية غنيم الممرضة امرأة ثلاثينية العمر، قصيرة الطول، خصيبة القوام. ذات نهدين ناضجين شامخين، شبعا من نظرات المرضى وبعض الأطباء، مؤخرة مُمتلِئة رجراجة، كانت السبب في حصولها على جواب تثبيت بعد شهرٍ واحدٍ فقط من عملها هناك. داخل رأسها جوار المُخيخ يرقد جزء صغير جدًا بحجم حبة الأرز يضيء تلقائيًا حينما ترى رجلا وسيمًا أو مربوعًا ذا بنية قوية، تشعر بالإعجاب به والرغبة في التهامه، بغض النظر عن عمره أو حالته المادية أو حتى الطبقة التي ينتمي إليها.

بصرف النظر عن ستمائة جنيه تتقاضاهم من العمل مع طبيبة نساء وتوليد تزاول المهنة دون رخصة، تتقاضى أيضًا من المستشفى أربعمائة جنيه شهريًا، بالإضافة لنحو خمسمائة جنيه رسوم المرور على جسدها من حين لآخر، وخمسمائة جنيه بقشيشًا من أهالى المرضى، فتستطيع الحصول على أي شيء ترغب فيه. كـ «تابلت» اشترته منذ أسبوعين رغم أنها ليست بحاجة إليه! ولكن فقط لتكيد به ممرضة أخرى.

تنتهي اليوم من نوبتها في تمام الساعة الواحدة، تلتقي بعدها الأسطى حنفي الميكانيكي الذي سيأخذها بسيارة أحد زبائنه للسينما، ثم يوصلها إلى عيادة طبيبة النساء التي تعمل معها من ثلاث إلى خمس ساعات يوميًا قبل أن تستقل «توك توك» إلى بيتها الكائن في منطقة «رملة بولاق» بإحدى البيوت القديمة التي اغتصبها الزمن.

تقطن شقتها بمفردها بعد أن سُجِنَ والدها الذي قتل والدتها وعَمَّها حينما عاد ذات مرة مبكرًا عن ميعاده فوجدهما سويا على فراشه فالتقط سكينًا وذبحهما.



الجُمعة ٣٠ سبتمبر ـ الساعة ١١:١٧ صباحًا.

بأحد مقاهي شارع المُعِز لدين الله الفاطميّ، المرصوفة طُرقاته بأحجارٍ شبه مُنتظمة، تنتشر رائحة البخور الهندي مختلطة برائحة العِطارة، فيَختلِطان برائحة المِسكْ، ليختلطوا جميعًا برائحةِ معسِّل تفاح تفوح من «شيشة» نُحاسيّة يمسك بليَّها المقدم خالد، مُرتديًا ملابس «كاجوال» ونظارة «راي بان» سوداء، وجواره كوب شاي مُستقِر على منضدة ساندًا مرفقه عليها، وحقيبة جوار قدميه التي يهزها بانتظام مُنتظرًا فاروق أبو جريشة.

وُلِدَ المقدم خالد الكحكي وفي فمه أكثر من مجرد ملعقة من ذهب، بل سبائك من ذهب. عائلته مُتَنَفِّذة ثرية؛ والده سليمان الكحكي، سفير سابق لمصر في عدة دول إفريقية كالكاميرون وجنوب أفريقيا والسودان. ثاني أو ثالث أغنى شخص في عائلة الكحكي قديمة المنشأ، عريقة المنبت، الممتدّة جذورها في عدة محافظات كجذور شجرة سدر في غابة استوائية. والدته الدكتورة عليّة بدر، رئيسة قسم التاريخ بجامعة حلوان، هي أيضًا سليلة عائلة من أكبر عائلات الزمالك.

له أخ يدعى محمود، يصغره بثلاثة أعوام، طبيب نفسي مُتمرِّس،

سافرَ خارج البلاد بعدما تزوج من فتاة فاتنة الجمال، أحبها حينما رآها في أحد الإعلانات.

طويلُ النِّجاد، قويُ البنية، عريض الكتفين ومُنتفِخ الصدر. صلب، لا أباليًا، رغم أنه تخطى عتبة الأربعين منذ عامين، لكن هيئته المهيبة تنم عن شابٍ ثلاثينيّ، يتردد دومًا على مراكز كمال أجسام. ذو شعرٍ أسودَ كثيفٍ، لا يتخلَّله سوى بضع شعيرات بيضاء، شاربٌ كث يقف عليه أربعة طيور جارحة. شامة ثقيلة عند طرف حاجبه الأيسر. عينان بُنِيّتان حادتان، قويّتا النظر، تتألقان بذكاءٍ نادرٍ ماكرٍ، يزداد تألقهما حينما يحقق مع أحد مُسجّلي الخطر ويستجوبه، قاسي النظرات، يكفيه النظر بثباتٍ إلى أيّ شخص من ثلاث إلى خمس ثوان أثناء تحدثه ليكوِّن تقريرًا في ذاكرته عن نواياه، أو عمَّا يجوس في مخيلته.

دخل كلية الشرطة عن طريق الواسطة بالإضافة لرشوة عشرين ألف جنيه، كان قبل ذلك مثل الفتاة الخجولة، لكنه بعد وقتٍ ليس بكثير بدأ يكتسب ثقته في نفسه، ويعي قيمة زيٍّ ضابط شرطة يرتديه ويسير به في الشارع وسط العامة فيرهبونه ويبجلونه. ويعامله بعضهم معاملة خاصة بإذلالٍ ومهانة.

بعد التخرج أصبح تدريجيًا فظّ القلب، سليط اللسان، إثر تعامله مع المجرمين والسوابق. يتحدث معهم بلغتهم وكأنه واحد منهم، أنفه لا تخطئ رائحة الكذب، تستشعره عن بُعد أميال. ذكاؤه أعلى من معدّلاته الطبيعية. كان الأذكى بين كل أفراد دفعته، الأمر الذي جعل اسمه يتردد كثيرًا بين قادة الكلية فيشيدون ببراعته ودهائه.

بجانبه الأيمن جرح قطعي بطول تسعة سنتيمترات عمره ثمانية

أعوام؛ كان واقفًا بسيارته أمام أحد المحلات مُنتظِرًا زوجته وأولاده قبل أن تمرّ من أمامه سيدة مُنتقبة تحمل طفلاً رضيعًا سقط منها فجأة، فلطمت على وجهها ثم انحنت لتلتقطه مرة أخرى واستقلت تاكسي ورحلت. لفت انتباهه أن الطفل لم يبكِ حين سقط ولم يصدر منه ولو صرخة! طارد التاكسي حتى لحق به في إشارة مرور، فانتبهت له السيدة التي نزلت بالطفل وركضت مُسرعة، نزل من سيارته تاركًا إياها عند الإشارة، أطلق ساقه للريح واندفع وراءها راكِضًا حتى لحق بها وأحكم قبضتيه عليها فسقط النقاب واكتشف أنه رجل استلّ من جيبه مطواة قرن غزال غرزها في جنبه، فتجمّع الناس وهو لا يزال - رغم جرحه الغائر - مُمسِكًا به وبالطفل؛ الذي كان عبارة عن جثةٍ لطفلٍ ميت مُسبقًا وتم تفريغه من أجهزته واضعين بدلا منها ٤ كيلو هيروين ثم أعادوا خياطته مرة أخرى.

ثمة آثار جرحٍ آخر عمره خمسة أعوام في فخذه الأيمن، نتيجة لواقعة حدثت له آنذاكٍ بينه وبين أحد البلطجية الذي صادف وجوده في ميدان العتبة يتابع إزالة الباعة الجائلين، فهجم عليه وأصابه في فخذه بآلة حادة، انتقامًا لصفع والده وبعثرة كرامته يومًا أمام كل بائعي السوق. تعافى خالد من هذه الإصابة بعد أسبوعين لا يفكر خلالهما سوى فيما سيفعله بهذا الشقيّ، ليضبطه في منطقته ويلقنه درسًا دسِمًا بَتَرَ فيه إبهامه وكسر صفَّ أسنانه السفليّ بلكمتين، قبل أن يزج به في السجن بتهمة لم يفعلها. ومنذ ذلك الوقت وهو يقضي مدة عقوبة داخل جدران السجن، يفكر كيف سينتقم من خالد.

بعدما فُتِحَت السجون أثناء ثورة ٢٥ يناير، وهرب آلاف المساجين منها، استطاع أن يُعيد ثلاثة وثمانين سجينًا مرة أخرى، وأكثر من مائتي

وخمسين قطعة سلاح قد تم سرقتها من القسم وقت الانفلات الأمني.

له عدة علاقات نسائية، تعرف زوجته بعضا من هذه العلاقات، وفكرت أكثر من مرة أن تطلب منه الطلاق أو أن تخلعه، لكنها تأبى ذلك خوفًا على مستقبل أولادها، بالإضافة إلى الخوف من عودتها إلى بيت أهلها متوسطي الحال وترك أمواله للعاهرات، التي من بينهن إحدى صديقاتها في النادي، والتي تزوجها عُرفيًا لمدة أسبوع سافر خلاله شرم الشيخ.

بينما يستبدل عامل المقهى الفحم، نظر خالد ـ واضعًا قدمًا على الأخرى ـ إلى ساعته ثم أمسك هاتفه بانفعال قائلا:

ـ إيه يا روح أمك هو أنا هاستناك كتير؟؟ طب اخلص!



في نفس التوقيت.

على الرغم من سطوع الشمس في الخارج، لكن إغلاق النافذة وانسدال الستارة غامقة اللون عليها، جعلا الغرفة مُظلِمة تمامًا إلا من ضوءٍ منبعثٍ من شاشة «لاب توب» موضوع على ساقين متألقتين، متأنقتين، عاجيتين، ممددتين على سريرٍ مملوء بدباديب وقلوب حمراء إسفنجية كافية لافتتاح متجر هدايا.

بدا دخان السيجارة جليًا في الضوء المنبعث من الشاشة إلى وجه داليا خالد، التي تسحب أنفاسًا تعقبها أنفاسٌ تنفثها بعصبية، فتتصاعد أعمدة الدخان بانسيابية وببطء إلى السقف.

داليا، ذات السبعة عشر عامًا، فتاة جامعية مُتحررة، تدرس في السنة الثانية بكلية العلوم جامعة عين شمس، ذات شعر كستنائيّ اللون، وعينين فستقيتين. مُرتدية «بادي أزرق بحمّالات» يتدلى تحته تفاحتان يانعتان متحررتان من حمالة صدر، و«شورتا» قصيرا للغاية. تحرص على أن يكون وزنها دائمًا خمسين كيلو، لا يزيدون جرامًا ولا ينقصون!

بجوارها مطفأة سجائر شهدت محق ثلاث عشرة سيجارة انتظارًا للرابعة عشر التي في يديها، تنفث أنفاسها المُضطربة كدواخلها؛ بسبب أحمد الذي دخل حياتها منذ شهرين، تعرَّفت عليه بإحدى المظاهرات بميدان التحرير. غَيَّر حياتها وغَيَّرها، حثّها على تغطية شعرها والانتظام في الصلاة، أخبرها أنه يغار عليها ويخشى أن يتحرش بها أي شاب في مظاهرة أو خارج مظاهرة، فرحت جدًا لذلك، وبدأت تدريجيًا بفعل بعض هذه الأشياء.

ظلَت تنتظره بينما تتصفح الـ «فيس بوك»، حاولت الاتصال به كثيرًا لكن هاتفه مغلق، قلقت بشأنه وكاد القلق يعتصرها لأن اليوم فيه عدة مسيرات من بينهم مسيرة يقودها، وتخشى عليه من وجود مُندسِّين. ظلَّت هكذا إلى أن اتصل بها أخيرًا، وأخبرها أنه بخير لكنه يشعر أن ساقه كُسرت أثناء هروبه من قوات الأمن، لكنه بخير على أية حال. لم تقتنع، وأخبرته أنها ستحاول أن تذهب إليه في ميدان التحرير، أنهت المكالمة قبل أن تسمع صوت أقدام والدتها غادة جوهر التي حاولت فتح باب غرفتها فوجدته مُغلقًا من الداخل.

ـ داليا.. داليا.

لم تلق ردًا فأمسكت هاتفها لتتصل بها وتوقظها، لكن حال دون

ذلك مكالمة وردتها فأجابت:

ـ آلو.

ـ وحشتيني جدًا يا غادة. فماقدرتش ماتصلش بيكي.

ـ وبعدين بقى؟! أنا مش قلت لك مليون مرة يا أمجد ماتتصلش بيا فجأة كده من غير ما أكون عارفة قبلها؟ افرض دلوقت خالد جنبي؟! وخصوصًا إن النهارده الجمعة!

ـ عادي يعني.. كنتي هتعملي زي المرة اللي فاتت وتقولي الرقم غلط وخلاص!

الكابتن أمجد الذي يدير أحد أكبر مراكز الساونا والجيمانيزيوم بالمهندسين، ومُدَرِّب كمال أجسام. زير نساء ولا مشكلة لديه في أن يكون لديه أربع أو خمس علاقات في آنٍ واحد. من بين هؤلاء النساء كانت غادة.

منذ أن رآها وهو يحاول مرات ومرات أن يقيم علاقة معها فيصطدم إلحاحه بامتناعِها الممزوج بغنجٍ يتيح له الإلحاح مرتين أخريين وستوافق، ظل يطاردها إلى أن جلست معه ذات مرة في مطعم بالمهندسين عبَّر فيها بعيونٍ جائعة ولسانٍ معسول عن إعجابه بها ورغبته القوية في قضاء ليلة معها، فوافقت أخيرًا وذهبت معه إلى شقته، شربا وتسامرا ورقصا سويًا على أنغام موسيقى هادئة، قبَّلها خلالها عدة مرات، وما إن انتهت المقطوعة حتى وجدت نفسها مُستلقية على ظهرها بسريره في غرفة نومه، وقبل أن يشرع في نزع ملابسها، استفاقت مما حولها ونهضت فجأة عازمة على الرحيل، جذبها إليه بعنفٍ فاهتاجت وصرخت مُنفعِلة في وجهه وعَنَّفَتْه مُهَدِّدة إياه بإنهاء علاقتهما إذا استخدم العنف معها مرةً أخرى.

ـ يعني إنتي تجيلي البيت وأظبَّط الجوّ ده كله وفي الآخر تعملي كده يا غادة؟ إنتي عارفة كويس جدًا إني مستنني اللحظة دي بفارغ الصبر!

ـ مزاجي فجأة قَلَب يا أمجد، وآخر مرة تشدّني بالطريقة الهمجية دي تاني! ممكن توعى بقى عشان أمشي؟!

ـ خلاص خلاص ماتزعليش. بس اوعديني تتكرر تاني.

ـ مش متأكدة من الموضوع ده. سيبها بظروفها، ممكن يلا بقى عشان ماتأخرش عن مصطفى ابني. زمانه خلص التمرين.

تزوّجت خالد بعد قصة حب تقليدية، كانت قاصِرة الطَّرف في أول عامين من زواجهما، حييّة، خجولة، لا تمدّ عينيها لغيره. غير أنه بدأ يعاملها معاملة فظّة كأحد المسجونين الذين يقبض عليهم. اكتشفت بعد ذلك خيانته لها عدة مرات. فقررت الانتقام لنفسها بأن تخونه هي الأخرى، ولكن بطريقتها.

برغم أن ضميرها يوخزها في اللحظة الأخيرة لينذرها بتخطّي حدود وضعتها لنفسها، لكنها قبل تخطّي هذه الحدود تجد السلام النفسيّ فيما تفعل، فإرضاء لضميرها لم تسمِها خيانة، بل محاولة لممارسة حق من حقوقها التي سُلِبَتْ منها، ولأنها بحاجة إلى أن تُقنِع نفسها من حينٍ لآخر أنها مرغوبة. تستمتع بالعيون الجائعة المتجولة على مفاتن جسدها المثير. رغم بعض الترهلات بفخذيها وأردافها، والتي لا تلتفت لها حينما تنظر في المرآة. ذلك الجسد الذي ألهب غرائز أمجد التي اعتملت بداخله منذ أن رآها وهي تأخذ حمّاما بعد التمرين، عبر المرآة العاكسة المُطلة في الجانب الآخر حيث مكتبه. ليس جسدها فقط، أشعل شبقه أيضًا ذلك الشعر الأسود الفاحم الطويل، المُنسدل بجموح على كتفيها

وظهرها. وتلك العيون رماديّة اللون الأخَّاذة التي تشع إغراءً. وشفتاها المُكتنزتان الآسرتان، التي كان على استعداد لدفع كل ما يملك مقابل رشفة هنيئة منها.



بينما سحب آخر رشفة من كوب الشاي تبعها نفس عميق من «الشيشة» الخاشعة أمامه، سمع خالد صوت دراجة نارية أشبه بصوت طلمبة مياه، وقفت أمام المقهى لينزل منها فاروق أبو جريشة، سحب كرسيًا على مقربة من خالد الذي هتف.

ـ إيه يا روح أمك مش إحنا ميعادنا ١١ وربع؟ جايلي ونص ليه؟

أجابه فاروق وسيجارته في جانب فمه، واضعًا الكرسي بين فخذيه ليجلس عليه: سامحني يا خالد باشا (سحب النفس الأخير من سيجارته وقذفها بعيدًا بإبهامه وسبابته.) على بال ما قمت اتشتفت ولبست ودوّرت الماكنة بالعافية. محتاجة بطارية باين.

ـ قول لي، فيه حد شافكوا وإنتوا بتتبخروا في لحظة الاقتحام؟ سأله بحذر وترقب فأجابه أبو جريشة مُستنكِرًا:

ـ عيب يا خالد بيه أنا رجالتي مش تلامذة، ومش أول مرة نشتغل مع بعض، الشنطة اللي فيها الأمانة سعادتك هتلاقيها جوا الزير اللي في الصندوق الإزاز اللي على السلم، سعادتك لسه مارحتش تجيبها؟ نصيبة سودا لو كل ده ماتكونش جبتها!

سأله بهدوء: والفلوس؟

- الفلوس معايا أهي يا باشا، في الحفظ والصون.

أخذ منه كيسًا أسود وضعه داخل حقيبته قبل أن ينهض ويدسّ يده في جيبه ليخرج عشرين جنيهًا ويعطيها لصبيّ المقهى، رمق ساعته في عجالة وهو يخبره أن الوقت قد حان للذهاب إلى باب زويلة، فأومأ أبو جريشة رأسه طالبًا منه أن يحصي نقوده أولا، فنظر له خالد مبتسمًا ابتسامة واثقة قائلاً له: أنا لو مش مآمنك من الأول على الفلوس ماكنتش خليتك تقوم بالمهمة دي، بص يا فاروق، إنت فيك كل العِبَر الوسخة، بس أمين، عشان كده إنت لو طلبت عينيا مش هاقول لك لأ، وبعدين هي دي أول مرة نشتغل مع بعض؟ يلا مفيش وقت، إنت طبعًا عارف هتعمل إيه؟

- ربنا يديم المعروف بيننا يا باشا. أيوه يا كبير عارف. ماتقلقش.



في نفس الوقت.. موقف عبد المنعم رياض

وقف «ميني باص» رقم ٣٦ لأكثر من نصف ساعة، بداخله ركاب سائمون مُتأفّفون مُنتظرين السائق الذي احتسى كوبي شاي وثلاث سجائر وظل يثرثر مع زملائه غير مكترث بالركاب. إلى أن منَّ عليهم بكرمِه أخيرًا وصعد الميني باص استعدادًا للرحيل.

كان فارِغًا إلا من ثمانية ركاب مُتناثرين بغير انتظام بداخله، على ثالث مقعد يسارًا يجلس «هيثم ديكابريو» معلقا عينيه بالفتاة التي أمامه، وشعرها المتهدّل بانسيابية فوق كتفيها، وعلى الجزء المكشوف من ظهرها

الأبيض. إلى أن دسَّت يدها في حقيبتها وأخرجت رواية «الحرافيش» الشيء الذي جعل هيثم فاغرًا فاه لا يدري ماذا يفعل حيالها كي يجد طريقًا يسلكه لها، وبابًا يطرقه فيدخل لها منه في النهاية. لم تكد تمر لحظات حتى اهتدى لفكرة أضاءت تلقائيًا في عقله، دخل على الإنترنت من هاتفه بسرعة البرق باحثًا عن معلوماتٍ تتعلق بالرواية التي تقرؤها، وعن مؤلفها الذي لم يعرف عنه شيئًا سوى اسمه فقط!

دقائق وتحصَّل على معلومات لا بأس بها قبل أن ينتقل ويجلس بجوارها مقتحمًا هدوءها، تطلَّع إلى وجهها المشرق الذي يعكس حماسها ونشاطها وتحفزها المُتَّقِد داخل صدرها كما بدا له. صاح مُبديًا إعجابه بقراءتها رواية في المواصلات، وأن هذا شيء نادر في أيامنا تلك. نظرت له مندهشة من جرأته على فتح حديث معها واقتحامها بهذه الطريقة، غير أنها شعرت ببعض الارتياح من نظرته البريئة، ابتسامته الصافية وحديثه العفوي ـ أو هكذا خُيِّل إليها ـ فبادلته الحديث:

ـ هاقول لك حكمة أنا مؤمنة بيها. لو لقيت نفسك عاوز تعمل حاجة. اعملها ومايهمكش الناس الجهلة.

ـ بالظبط، عندك حق، أنا على فكرة قريت الرواية دي، وقريت كل أعمال آآآآ.. (خطف نظرة للرواية). نجيب محفوظ.

ـ كل أعماله؟؟! أنا للأسف قريت دي والثلاثية بس لحد دلوقت؟؟!

ـ لا بصراحة جاااااااامد جدًا. قالها وعيناه مُعلَّقتان على صدرها النَّاهد الناهض. فردت عليه بحُسن نيّة:

ـ عندك حق فعلاً. وده شيء طبيعي لأديب حصل على نوبل.

ـ نوبل؟! ما علينا. عمومًا أنا مش باقرا قصص عربي كتير، أنا باقرا

أكتر في الأدب اليوناني والإنجليزي، عشان كده تلاقيني مش حافظ أسماء مؤلفين عرب كتير.

ـ بجد؟! طب رشح لي رواية في الأدب اليوناني لإني مقصرة في حقه جدًا.

ـ مقصرة في حق مين؟! آآآه حاضر، بس كده؟! أنا ممكن كمان أهدي لِك أكتر رواية بحبها.

نظرت له مبتسمة بامتنان وهي ترمق شعره الأصفر الناعم الذي يزيحه من أمام عينيه الزرقاوين، اللتين ترمقان في نفس اللحظة زقبتها، مُتخيِّلا أنه يعتليها ويلتهمها. إلى أن حدَّقت بعينٍ نصف مُغمِضة. فأدرك ما ترمي إليه قائلا بثقة وهو يهزّ رأسه: أيوه شفتيني قبل كده.

ذُهِلَتْ من حديثه الواثِق وسألته مُندهِشة:

ـ عرفت منين إني باحاول أفتكر؟ أنا فعلا شفتك بس مش فاكرة فين!

ـ عارفة إعلان فيروز؟

ـ ..؟؟

ـ إعلان فيروز. اللي كان على الشط وبنات بترقص وشباب قاعدين ع البار. كان فيه واحد ماسك صينية وبيحط الإزازة ع الترابيزة.

ـ آها عارفة الإعلان ده.

ـ أهو اللي ماسك الصينية ده بقى.... مش أنا.

انطلقت منها ضحكة عفويّة رقيقة قبل أن تضع الرواية في حقيبتها وتنظر إليه مرة أخرى، فبادلها نظرة إعجاب وهو يرمق بخبث الشامة التي على رقبتها، سألته مستفسرة: لا بجد فعلا أنا شفتك قبل كده في تليفزيون.

ـ أيوه أيوه بجد، أنا باعمل إعلانات وساعات باطلع في أدوار صغيرة في مسلسلات، عملت إعلان جيل «ستريت هير» وإعلان بوكسرات قطونيل «رحرحة صوح» وعملت أدوار في مسلسلين في رمضان اللي فات؟

ـ هو ده صح. أنا مبسوطة قوي إني شفتك النهارده، ومبسوطة أكتر إنك مثقف بتقرا زيي، ومبسوطة أكتر وأكتر إنك هتهديني رواية في الأدب اليوناني.

ـ رواية إيه؟!

ـ إيه ده إنت لحقت تنسى؟!

ـ آآآآآه معلش الرواية اليوناني. أصل الزهايمر مبهدلني اعذريني.

تبادلا الضحك، وتطرق كل منهما إلى موضوعات كثيرة تحدثا فيها، إلى أن أوشكت على النزول عند ميدان الجامع بمصر الجديدة حيث تقطن، أخبرته أن اسمها سارة فقال لها أن اسمه هيثم وطلب منها رقم هاتفها والمواعيد التي يستطيع أن يهاتفها فيها، فأعطته الرقم وأخبرته أنه يستطيع الاتصال في أي وقت حتى الساعة الحادية عشرة مساء. نحى قدميه لتمرّ جواره فوقعت عيناه على مؤخرتها المصبوبة، والتي تحملها ساقان مرسومتان. ظل مُعلّقًا نظره عليها إلى أن نزلت. بالتزامن مع انطلاق آذان الظهر، وخروج المصلين إلى المساجد.



«اللهم بيِّض وجهي يوم تسود الوجوه. اللهم أعطني كتابي بيميني. ولا تعطني كتابي بشمالي. اللهم حرم شعري وبشري على النار. اللهم ثبت قدمي على الصراط.»

بعدما انتهى حارس مبنى باب زويلة من دعاء الوضوء، أغلق باب المبنى الأثري بقفلٍ كبير وراح قاصدًا المسجد المجاور، خرج خالد من إحدى المآذن بعدما رنَّ على هاتفه أبو جريشة الواقف بالخارج، إشارة منه أن الحارس غادر المبنى. ولا أحد غيره.

قبل ربع ساعة دخل فاروق وتحدث إلى الحارس ليلهيه عن خالد الذي دخل بسرعة وخفة مختبئًا بالأعلى.

ذهب خالد إلى الزير الذي أخبره أبو جريشة أن الأمانة بداخله، أخرجها ووضعها داخل الحقيبة مع الكيس الذي أخذه منه في القهوة، وهبط بسرعة إلى الدور الأرضيّ. جوار السلم تقبع فاترينة عرض تحتوي على شقافات فخار لأوانٍ وبقايا أكواب رائعة وفناجين بورسلين غاية في الجمال، بالإضافة إلى بضع شقفات ملقاة على الأرض بلا مراقب!

أمام الفاترينة على الأرض يوجد غطاء خشبي ثقيل، رفعه بقوته ونزل بالأسفل ليجد دهليزا سار بداخله قليلا، فتح الحقيبة ليقلب ما بداخلها في دقيقتين كافيتين ليتأكد أنها كاملة لم ينقص منها شيء ليتأكد ثقته في أبو جريشة، خبأ الحقيبة في مكان يصعُب وصول الذباب الأزرق إليه. ووضع حجرًا أمامه ليطمئن أكثر قبل أن يصعد في هدوء ليعيد الغطاء مكانه مرة أخرى.



أسوان ـ إدفو، كنيسة مار جرجس

بعد الانتهاء من صلاة الجمعة، تجمهر عدد من المتعصبين دينيا، بعد أن تم شحنهم بنجاح من بعض الشيوخ الذين تناولوا في خطبة الجمعة موضوع تحويل مبنى تابع لكنيسة مار جرجس «مضيفة» إلى مكان للصلاة، وأن الأقباط بنوا عدة قِباب بدون تصريح، الأمر الذي جعل المتعصبين يستشيطون غضبًا، منتظرين إقامة الصلاة والانتهاء منها سريعًا كي ينتقموا.

ما إن انتهوا من الصلاة وسلَّموا، حتى خرجوا بالمئات من المساجد متجمهرين أمام الكنيسة لهدمِها، تطوّر الأمر سريعًا إلى حرق منازل الأقباط وسلب أموالهم وسرقة محلاتهم في مشهد لا يمت بصِلة إلا للعصر الحجري. مما أدى إلى فزع الأقباط وهروب بعضهم.



باب زويلة ـ شارع المعز لدين الله الفاطمي. في نفس التوقيت.

فُتِحَ المبنى مرة أخرى بعد انتهاء صلاة الجمعة، مع إقبال الزوّار وازديادهم بالعشرات، خرج خالد ملقيًا التحية على الحارس الذي بادله التحية بلا أي مشكلة! عاد مرة أخرى إلى المقهى الذي كان فيه حيث يجلس فاروق أبو جريشة القرفصاء بجوار دراجته البخارية، يعبث بالموتور والبطارية، يلعنها ويلعن آباء وأجداد الذين صنعوها! صاح به خالد.

ـ بطَّل سب دين شوية عشان الفقر مايمسكناش يابن الكلب.

نهض أبو جريشة بتأفف وهو يمسح عرق جبينه بمرفقه.

- الماكنة لسه جايبها من قيمة سبحتاشر يوم وفيها نفس المشكلة بتاعت الماكنة القديمة، محرفش إيه النحس ده؟! ده ولا كإن فلوسها حرام! ولا أمي داعية عليا.

- ههههه. آه صحيح بمناسبة أمك. أنا وصّيت عليها تتنقل للعنبر اللي كانت عاوزاه، اتنقلت إمبارح، عرَّفها في الزيارة الجاية ماتعملش أي مشاكل تاني. عشان ربنا يسهل وأحاول أخرجها كمان كام شهر. قبل مدتها القانونية بخمس شهور.

- ربنا يخليك يا خالد بيه، يرزقك ما يذلك، يطعمك ما يحرمك. قالها وهو ممسكًا بيده محاولاً تقبيلها لكنه سحبها بسرعة واضعًا إياها على كتفه قائلا بصوتٍ خافت:

- أنا ماعملتش حاجة يا فاروق، إنت واد جدع وتستاهل أكتر من كده، وأنا باحبك يعلم الله، خد دول. عرقك في عملية باب زويلة.

أخذ فاروق المبلغ وعدّه قبل أن ينظر إلى لا شيء بعينٍ نصف مغمضة متأملاً.

- ألف.. ألف وخمسمية دولار. ألفين وخمسمية دولار في كام بالمصري. يعني أربحتاشر ألف زائد أربحتاشر وخمسومية.

صمت كثيرا يجمع حسبته المعقدة بالنسبة إلى عقله ثم نظر لخالد متسائلاً: إيه ده يا باشا؟ عليا الحرام ما ينفع؟! إزاااااي بس؟ أقسيم بالله حرام. أنا مش وِحِش معاك، وانت عارف أني استاهل أكتر من كده. الرجالة اللي معايا لوحدهم عايزين ستّلاف جنيه!

أجابه بنبرةٍ رخيمة لا تخلو من صوتٍ صدر من مؤخرة أنفه:

ـ ليه يا روح اللي جابتك؟ ده الموضوع كله ماخدش عشر دقايق. ثم أنا كمان مش وِحِش معاك، أملك طول فترة سجنها وهي بتتعامل كإنها في شرم الشيخ، مفخدة مابتمدش إيديها في شغل. سجاير وأكل وفلوس بيدخلوها من غير تفتيش، وانت عارف إنها من غيرى كانت هيطلع ميتين أبوها.

سكت أبو جريشة لهنيهة، ثم أردف بلسانِ المسكنة:

ـ طب ما تكملهم عشرين ألف ربنا يسترها عليك.

ـ هاعوضهالك العملية الجاية، يلا أسيبك بقى عشان ورايا مشاوير كتيرة.

تركه واستقل سيارته قاصدًا إحدى كافيهات المهندسين والتي يلتقي فيها دومًا المقدم مؤمن حربي صديقه المُقرَّب. والذي لم يعد كذلك في الآونة الأخيرة نتيجة لبعض الخلافات بينهما، على الرغم من أن هذه خلافات متوارية خلف ستار صداقتهم، لكنها سرعان ما تظهر أحيانًا حينما تنمو بداخل صدر مؤمن شجرة الشك والريبة تجاه خالد.

ـ ماعلش يا سيادة المقدم اتأخرت عليك خمس دقايق. قالها وهو يصافحه ويحتضنه، رد عليه مؤمن:

ـ لا يا حبيبي إنت كده متأخر ربع ساعة، فين الانضباط بتاع زمان، ولا الظاهر إن حاجات كتير من بتاعة زمان اتغيرت.

ـ غصب عني والله يا مؤمن مش كل حاجة تعمل منها مشكلة. المهم قول لي إنت أخبارك إيه؟ وإيه اللي كنت عاوز تتكلم معايا فيه؟!

ـ أنا الحمد لله يا سيدي، وكنت عاوز أتكلم معاك عن تصرفاتك في الفترة الأخيرة، وبالذات بعد الثورة.

نظر إليه متسائلا وقد انقدح من عينيه انفعال صامت، استطرد مؤمن:

ـ سبقت قوة القسم على باب زويلة ليه وقلت لهم يقتحموا بعد وصولك بعشر دقايق؟ واتكلبشوا إزاي قبل الاقتحام؟!

انسال الصمت بينهما لثوانٍ فكر فيها خالد بماذا يجيب:

ـ سبقت القوة عشان أتأكد إن الأحراز معاهم، نبيل الجيَّار ذكي ابن حرام، كان ممكن يكون عامل لي فخ، أو بيختبر ثقتي فيه، أروح بالقوة مالاقيش معاه حاجة وتطلع القضية فشنك؟؟! وبالنسبة لموضوع اتكلبشوا إزاي بقى. إنت بتستجوبني؟ ولا بتسألني كصديق وأخ؟!

قرب مؤمن وجهه منه قائلًا في هدوء: كصديق وأخ.

ابتعد خالد بظهره عنه وأجابه مبتسمًا ابتسامة ساخرة بنفس النبرة: طالما بتراقبني وبتنخرب ورايا تبقى لا أخويا ولا صديقي يا مؤمن يا حربي.

ابتعد مؤمن هو الآخر وضرب المنضدة بكفه وقال له منفعلا: طب يبقى باستجوبك يا خالد يا كحكي.

نهض خالد وضرب المنضدة بقبضته: مالكش إنك تستجوبني، أنا مش باتدخل في شغلك فماتتدخلش في شغلي. وآخر مرة تتكلم معايا باللهجة دي! فاهم؟!

أطرق مؤمن رأسه لثوانٍ وهو يقول له: يا خالد. يا خالد إنت عارف إنت بالنسبة لي إيه. أنا خايف عليك، وآديك شايف الناس دلوقت بتبص للداخلية إزاي. مش أنا اللي بانخرب وراك، من ساعة آخر موضوع وإنت تحت الميكروسكوب، عشان كده قلت أنبهك. (رفع رأسه ناظرًا إليه في أسى) سلام يا خالد أنا هامشي.

- اتفضل يا حبيبي مع السلامة. كده أقعد أنا بقى. رحل مؤمن بعدما هز رأسه متأسيًا في الوقت الذي رنَّ فيه هاتف خالد، فأجاب:

- أيوه يا مصطفى. خلصت تمرينك خلاص؟ طب أنا برّا في الكافيه والعربية راكنة قدامه. ماشي اخلص وأول ما توصل عند العربية كلمني هاخرج لك. لا مش هينفع تدخل تقعد معايا. قلت لأ يعني لأ مش باكرر كلامي أنا، ولو قهوتي خلصت قبل ما تيجي هامشى وأسيبك تروح تغسل لوحدك. سلام.

أغلق مصطفى المكالمة مع والده، وسند على الحائط رافعًا رأسه لأعلى وبالكاد استطاع منع دموعه من السقوط بسبب معاملة والده الحادة غير المبررة، ليست معه فقط، أيضًا مع أخته داليا ووالدته غادة.

لم يتذكر يومًا جلس معه أو احتضنه، أو تحدَّث معه بلين ورفق أب، بل قلما شعر معه بالأبوة. لم ينس يومًا حبسه فيه مع أخته في غرفة واحدة لمدة ٣٠ ساعة بدون طعام أو شراب بسبب رؤيتهما في ميدان التحرير وقت اندلاع الثورة، لم ينس يوم نزع فيه كل ملابسه لكسر كبريائه أمام أخته، وظل يضربه ثم تركه هكذا وهدده إن ارتدى ملابسه فسوف يطرده خارج المنزل عاريًا.

لم ينس يومًا ضرب فيه والدتهم ضربًا مُبرحًا إلى أن غابت عن الوعي ولم يتصل بطبيب إلا بعد ساعة. رغم أعوامه الخمسة عشر لكن قلبه امتلأ كراهية له. وتتنامى هذه الكراهية كلما يتحدث أمامهم عن الثورة. تنامت أكثر حينما علم بمرضه بالفشل الكلوي وكان ممتعضًا بسبب زياراته ثلاث مرات في الأسبوع لغسيل الكلى. في المرات القليلة الذي يأخذه فيها إلى هناك مثل اليوم، يتركه عند باب المستشفى ويرحل،

ويرسل أحد العساكر ليُعيده إلى المنزل، أو تتولى والدته هذه المهمة.

يجلس ممددًا بجوار جهاز غسيل الكلى، مُوصّلاً به عن طريق خراطيم يُضخ فيها دمه ضخًا شديدًا قبل أن يُمرَّر على أنبوب الغسيل ليعود إلى جسده من جديد، ينظر متأسيًا إلى هذا الدم، مُتسائلا: هل هذا الدم فعلا مشترك بينه وبين والده؟! يهزّ رأسه بشدة رافضًا ذلك رفضًا قاطعًا؛ لأن الأبوَّة ليست مجرد كلمة أو دم مشترك. تنتابه رعشة فيرتج جسده ويرشح جبينه عرقًا، ويشعر بالحزنِ لكونه ابنًا لأبٍ كخالد. قَتَلَ بداخله كل الأشياء المفرحة المبهجة، السارة.



ـ سارة. أخبارك إيه؟

ـ تمام الحمد لله، إنت هيثم، مش كده؟

ـ آه، ماقدرتش ماتصلش بيكي في نفس اليوم، حاسس إنك وحشتيني قوي، وصوتك وحشني، كلامك، شعرك، عنيكي.

سرحت سارة في كلامه الذي دخل قلبها ليدق بداخل صدرها مُعلِنًا شغفًا غير متوقع.

«هيثم ديكابريو». ٢٥ عامًا، شاب يحمل في شخصه كل معاني الفشل، ترك أهله منذ سنة بعد شجارٍ دائم بسبب رسوبه المستمر في الدراسة، بعدها اكتشفوا أنه يخبئ تحت سريره فتاة أدخلها المنزل خلسة، فقام والده بتقييده وضربه ضربًا مُبرحًا، إلى أن فكَّ قيده قبل أن يبصق في وجه أبيه ويهجّ خارج المنزل تاركًا إياه، أخذ بعدها شقة عبارة عن

.غرفة وصالة بمدينة الشيخ زايد، يقضي معظم يومه مُتسكّعًا بين أماكن تصوير الإعلانات، فيشترك في بعضها، لم تدر هذه الإعلانات عليه بدخلٍ يجعله ينفق على نفسه، غير أن لديه مصدرًا آخر للدخل.

ما إن يرى فتاة ماسحًا بعينيه مفاتن جسدها فيعجب بها ويقبل عليها ناصبًا شباكه حولها معتمدًا على شعره الأصفر الناعم وعينيه الزرقاوين، وهيئته اليافعة الشامخة. واهمًا إياها أنه يحبها بل يعشقها. فيطلب منها بإلحاح أن ترسل له صورة لها بملابس المنزل، ما إن ترسلها على مضض حتى يلح عليها مُجدّدًا أن ترسل له صورة أخرى بملابسها الداخلية واعدًا إياها أن يحذفها بعدما يراها، وإن رفضت في البداية يلح عليها أكثر أو يهددها بإنهاء علاقته معها لأنها لا تثق به. منهن من يقررن إنهاء علاقتهن معه على الفور، ومنهن من ترسل خوفًا من فقدها له. ليصل الأمر تدريجيًا إلى إرسال صورة لها بدون ملابس. فتنتهي المرحلة الأولى بنجاح. مرحلة الاطمئنان ووقوع الضحية في الفخ. فيبدأ في دخول المرحلة التالية وهي أن يطلب منها الذهاب لمنزله، بعضهن توافق اعتمادًا على ثقتها فيه، والبعض الآخر تتردد لكنها توافق في النهاية بعدما يُلَمِح لها بابتسامة ماكرة أنه الطرف الأقوى لأنه يملك صورًا لها وهي عارية.

بالرغم من اختلاف استجابة كل فتاة وطريقته معهن، وتفاوت سرعة استجابة كل منهن، لكن عند هيثم، معظم الطرق في النهاية ـ حتمًا ـ ستؤدي إلى ذهاب الفتاة لمنزله ولو بعد حين، لتدخل مرحلة تصويرها فيديو عن طريق كاميرا مثبتة بحرفية عالية خلف الستارة، وكاميرا أخرى بين ثنايا النجفة. وبعد أن ينتهي من قضاء يومًا معها على فراشه، وتذهب إلى منزلها بسلام. يبدأ في إظهار الوجه الآخر له،

يبتزها بمحادثاتها المُسجَّلة، صورها وفيديوهاتها، طالبًا منها مبلغا ماليا، أو أي شيء آخر يتراءى له، يظل هكذا إلى أن يحدث الله بعد ذلك أمرًا. بعد أن تعيش الفتاة أيامًا سوداء لا تنام فيها ولا تأكل.



بعدما انتهى مصطفى من جلسة غسيل الكلى، خرج من الغرفة متوقعًا ألا يجد والده، وبالفعل وجد عسكريا ينتظره. في الوقت الذي كانت أخته تجلس داخل إحدى الخيام المنصوبة بميدان التحرير، تُمرِّض أحمد، المُمَدِّد ساقه اليمنى، لفَّت عليها رباطا طبيا بعد أن اطمأنت بالفعل إلى عدم وجود كسر أو مضاعفات.

بالرغم من ذلك وبَّخها على لبسها الضيق وعدم ارتداء حجاب، فاعتذرت له لكنه انفعل عليها أكثر وأخبرها أن الفتاة يجب أن تصون نفسها لأنها كقطعة الحلوى، إذا كشفت جسدها فسوف يتكالب عليها الذباب، أما إذا سترت نفسها فلن تقترب منها أي ذبابة، اعتذرت له بإلحاح، وأخبرته أنها ستفعل كل ما يريده. مسحت عرقه المقطر على جبينه وهي تسأله بأسى:

ـ سمعت عن اللي حصل النهارده في إدفو بأسوان؟

ـ طراطيش كلام. إيه اللي حصل؟

ـ مسلمين متعصبين متشددين حرقوا كنيسة ماريناب.

ـ ماشي يعني. فين المشكلة؟!

ـ هو إيه يا أحمد اللي فين المشكلة؟ أمال إحنا عملنا الثورة دي ليه؟

ـ لا إله إلا الله يا داليا! هما ماوراهمش غير بنا كنايس ولا إيه؟

-طب ما إحنا بنبني جوامع!! وبعدين هما بنوها على أرض تابعة للكنيسة، يعني بيبنوا على ملكهم. إيه اللي مضايق الناس دي بقى؟ وبعدين لهجتك مش عاجباني يا أحمد. كلامك كله مش عاجبني. المفروض إن من ضمن أهداف الثورة هي المواطنة وإننا كلنا مصريين بنتعايش تحت وطن واحد مفيش فرق.

ـ إنتي عبيطة ماتعرفيش حاجة. النصارى عاوزين يخدوا البلد ليهم ويركبوا ع الثورة. دول أوسخ من الداخلية وظباطها. بس إحنا وإخواننا مش هنديهم فرصة. وعارفين إمتى هنقول لأ.

ـ إنتوا مين؟! وإخوانكم مين؟! (أطرقت رأسها بصمت لهنيهة قبل أن تردف) الظاهر إن اختياري كان غلط، والظاهر إن الحقيقة بتظهر قدامي واحدة واحدة مع كل تصرف منك، بس دلوقت اتأكدت وعرفت حقيقتك المزيفة كويس جدًا. (نهضت واقفة وتحدثت بصوتٍ عالٍ) إنت مايهمكش البلد.

ـ لا إحنا يهمنا البلد، ويهمنا ماتكونش في إيد النصارى المسهتنين اللي عاملين نفسهم غلابة، ولا رجالة الحزب الوطني اللي ناهبين حقوقنا، ولا الباشاوات اللي زي أبوكي اللي بيحموا الاتنين، وبدال ما يقبضوا عليهم بيقبضوا علينا إحنا ويعتقلونا ويموتونا في الشوارع برصاصهم الحي، كام واحد من أول الثورة مات من غير اسم أو هوية؟! لو خلصنا من الاتنين دول البلد هتنضف. أنا لو كان الأمر بإيدي كنت قتلت كل ظابط أو نصراني أو حزب وطني قابلني في الشارع عشان أخلص البلد منهم.

اكتظ وجهها بتعبيرات التقزز والاشمئزاز فصاحت به:

ـ أنا متفقة معاك في حاجات معينة، تسعين في المية من بتوع الحزب الوطني والداخلية فاسدين، بس إحنا عملنا ثورة عشان نحاكمهم وناخد حقنا منهم بالقانون، بالعدل، مش نقتلهم ونصفيهم جسديًا وتبقى غابة. (نهضت ملتقطة حقيبة يدها) أنا اتخدعت فيك للأسف. يا ريتني كنت سمعت كلام بابا اللي حذرني منك ومن أمثالك اللي...

قاطعها مُمسِكًا برسغها وجذبها نحوه: اقعدي بس ووطي صوتك، إحنا بنتناقش وبنتكلم...

سحبت يدها من يده بقوة وانفعال مستطردة:

ـ إنت مايهمكش البلد، لا إنت ولا «إخوانك». وبالنسبة لموضوع الحجاب بالعند فيك بقى مش هاتحجب، أنا سواء متعرية أو «متسترة» زي ما إنت قلت، قطعة حلوى. لكن إنت واللي زيك، في الحالتين، حشرات.

انحنت لتلتقط حقيبة يدها ورحلت بعد أن ألقت عليه نظرة احتقار، سرعان ما عادت إليه مرة أخرى قائلة:

ـ فيه آية ما معناها بتقول ولتجدن أقربهم مودة من المؤمنين هما النصارى اللى منهم رهبان مش مستكبرين ولو سمعوا...

قاطعها: قصدك سورة المائدة «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين.»

ـ أيوه بالظبط. وده كلام ربنا مش جايباه من بيتنا. يا ريتك تعمل باللي

إنت حافظه ده! لكن للأسف، التعصب والغِلّ عموا قلبك وعقلك.

نظرت إليه نظرة أخرى أكثر احتقارًا ثم خرجت من الميدان مُنهارة من البكاء تتخبط في كتف كل من تعبر بجانبه، إلى أن جلست على رصيف المتحف المصري واضعة رأسها بين ركبتيها لدقيقتين قبل أن ترحل إلى البيت لتصل في نفس الوقت الذي وصل فيه العسكري مع أخيها. صعدا سويًا وطرقا الباب ففتحت لهم غادة المارّة بالصدفه وفي يدها ماكينة إزالة الشعر. رمقت داليا بنظرة لا مبالاة فبادلتها نفس النظرة قبل أن تدخل مع أخيها فتفاجآ بخالد مُمَدّدًا جسده على الأريكة، موجهًا «الريموت» نحو التلفاز يقلب قنواته في ملل. شعرا بغصّة في معدتهما وتوجها إلى غرفتهما ليتحاشا التحدث معه.

ـ استنوا هنا إنتوا رايحين فين؟ سألهم خالد دون أن ينظر لهم، فتجمّدا وأحسّا بمرارةٍ في الحلق. سأل داليا: كنتي فين لغاية دلوقت؟

لم تجبه، اكتفت بالنظر إليه مُرتعِدة وهي تزمّ شفتيها. ألقى «الريموت» على المنضدة وخطا نحوها ببطء. وقف أمامها مليًا وأخذ يتفرّس وجهها قبل أن يرفع يده ليضعها على كتفها، فارتجفت واضعة كفيها عند وجهها اتقاء لصفعة مُفاجئة. ظل مُعلقًا نظره علي ملامح وجهها سائلاً في هدوء:

ـ كام مرة أقول لك ماتروحيش ميدان التحرير؟

ـ ماهو يا بابا.

قاطعها بنفس النبرة الهادئة: كام مرة أقول لك ماتكلميش الواد ده؟ حذرتك من أمه كام مرة؟ قالها وهو يشد شعرها بقوة حتى صرخت بملء فيها، همَّ مصطفى بالتوجه إلى غرفته هروبًا منه، فالتقطه خالد باليد الأخرى قابضًا على ذراعه.

ـ وإنت يا بيه. أنا عارف إنك مابقتش تروح الميدان. بس برضو لشِبه مصاحب العيال اللي شفتك معاهم في شارع محمد محمود من شهرين. قلت لك كام مرة ماتتصاحبش على العيال دي تاني؟

بكى مصطفى متألمًا ولم ينبس بكلمة. بينما داليا لا تزال تصرخ من شدة جذبه لشعرها الذي كاد يقتلعه من جذوره. استدار بهم ودفعهم بقوة ليسقطا على الأريكة، وجه كلامه لداليا بعد أن بصق على وجهها:

ـ أنا كلامي مابيتسمعش. عظيم. من هنا ورايح مفيش خروج من الباب ده حتى للكلية، والواد اللي كنتي معاه ده هاعتقل أمه ومش هيشوف الشمس تاني. امشي غوري روحي لأوضتك.

نهضت مرتجفة، مرّت بجانبه فركلها في مؤخرتها فصرخت بحرقة واضعة يديها على وجهها. التفت إلى مصطفى الذي كان يجزّ على أسنانه كاتمًا بكاءه، جلس بجانبه واضعًا يده على رأسه فأشاح ابنه رأسه في خوف، قال له بصوتٍ رخيم:

ـ إنت كنت ممكن تروح فيها يوم محمد محمود، اللي بيموت هناك مالوش دِيّة. فاهمني يا حبيبي؟

لم يتفوه بكلمة وظل بالكاد كاتمًا كلامًا كثيرًا يريد أن يطلقه من فمه. فاستطرد خالد:

ـ آخر مرة أشوفك مع العيال دي. هاعرف. هاعرف. هاعرف وإنت عارف هاعرف إزاي. العيال دي مش هتنفعك لو جرالك حاجة في مظاهرة، دي عيال صيع ولاد قحبة مالهمش أهل سواء اللي عايش أو اللي غار في داهية.

نهض مصطفى وصاح مُنفجِرًا: اللى استشهدوا مش أحسن مني. واللي

بتشتمهم دول كان عندهم حلم وهدف. وإنتوا اللي موتوا أحلامهم.

قالها وانطلق نحو غرفته وأغلق على نفسه من الداخل، وقف خالد على مقربة من غرفته قائلا بصوتٍ عالٍ:

ـ وحياة أمك الوسخة ما هتخرج من البيت ده غير على جلسة غسيل الكلى بس. وهاخلي العسكري يجيبك ويوديك.

ترامت الجملة إلى مسامع غادة الجالسة في غرفة النوم، أغلقت ماكينة إزالة الشعر وتوجهت له قائلة بتحدٍ:

ـ إحساسك إيه وإنت بتقول على مراتك وسخة؟

هَزَّ رأسه بانفعال مُستفسِرًا، لامسًا أذنه بأنامله وهو يقترب منها: بتقولي إيه؟! سمعيني كده تاني. إنتي عاوزة تفهميني إنك مش وسخة؟!

ـ الوسخة دي اللي إنت رحت اتجوزتها عرفي وقعدت معاها أسبوع في شرم، وإنت عارف إنها صاحبتي. الوسخة دي تبقى مرات أمين الشرطة اللي شفتك معاها هنا في الشقة على سريري من أربع شهور.

اقترب منها حتى أصبح أمامها مباشرة، تقهقرت خوفًا خطوتين للوراء فمدَّ ذراعه واضعًا إياها على كتفها، ضغط عليها في رفق بسبابته وإبهامه قائلا وهو يبتسم بثقة:

ـ فيه حاجة مش متأكد منها (ضغط أكثر بسبابته وإبهامه فتألمت. أردف) الحاجة دي هاتأكد منها في الأيام اللي جاية، بس لو طِلعِت صح، عليا الطلاق هيبقى آخر يوم في عمرك. عارفة هاعمل فيكي إيه؟ زي ما باعمل في أوسخ حرامي في القسم. هاحطك جوا شوال مع قطتين واقفل عليكوا من فوق، وأدوّر فيكم الضرب بكرباج لحد ما حد فيكوا يموت.

أحكم قبضته أكثر حتى بكت ألمًا، ثم صرخت إلى أن انهارت وأصيبت بهستيريا أفقدتها صوابها وظلت تثرثر بكلامٍ غير مفهوم قبل أن تهرع لغرفة النوم فأغلقت عليها الباب من الداخل، بينما التقط خالد «الريموت» مرة أخرى بكل هدوء، واضطجع على الأريكة كما كان، ظل يعبث في القنوات أعلى وأسفل إلى أن استقر أخيرًا على قناة «ناشيونال جيوجرافيك» وحلقة عن قصة هروب أحد المسجونين من أكبر سجون المكسيك.

داخل غرفة النوم أمسكت غادة هاتفها وهي تئنّ بحُرقة وأخذ جسدها يعلو ويهبط، تحدثت بعدما أوقفت نشيجها بصوتٍ خافت به بعض رجفة: أيوه يا أمجد. بتحبني بجد وعاوزني؟



في اليوم التالي.

شقة بإحدى عمارات الزمالك العتيقة، مساحتها هائلة، كل قطعة أثاث فيها تعتبر نادرة، تحمل وراءها تاريخًا عريقًا، تم شراء كل قطعة على حدة بعد فرزٍ وتفكيرٍ عميق؛ صالون يرجع تاريخه لعام ١٨٩٣ كان موضوعًا ذات يوم في قصر القنصل الفرنسي لمصر، نجفة ضخمة عمرها أكثر من مائة عام شهدت يوما ما المطربة أسمهان وهي تشدو بصوتها الرائع في حفل زواج ابنة أحد أكبر باشاوات مصر آنذاك، مرآة كبيرة بطول الحائط مؤطرة ببرواز ذهبي يحمل عبق ١٦٨ عامًا، أرضية مكسوة بأغلى أنواع السجاد التركي، طرقة طويلة مكسوة بسجادة حمراء بها غرف يمينًا ويسارًا، مطبخ مساحته كمساحة شقة لأسرة متوسطة الحال، به

طباخ دؤوب يُعِد بتفانٍ وجبة العشاء، وطباخة تنتفض مُسرِعة نحو الباب بعدما سمعت صوت الجرس، فتنظر عبر العين السحرية فتجده المقدم خالد، فتفتح ليدخل متجهًا إلى غرفة المعيشة التي يجلس فيها والده ووالدته، جالسين أمام تلفاز أشبه بشاشة سينما، يتابعان باهتمام بالغ برنامج «التاسعة مساء» مُنصتين لتحليل منة الشاذلي ومراسليها الذين ينقلون مباشرةً من أسوان آخر تطورات حادث اعتداءات كنيسة مار جرجس.

جلس في حضرتهم دون أن ينبس بكلمة لمدة اثنتي عشرة دقيقة عند أول فاصل إعلاني، فالتفت له والده فنهض خالد ليقبل يديه ويد والدته بخشوع طفل في الصف الأول الابتدائي، كتم والده صوت التلفاز قبل أن يوجّه لخالد وابلا من اللوم والعتاب والكلام القاسي، بينما ينصت خالد مُطرِقًا.

ـ أنا لو كنت أعرف إن أخلاقك هتبقى كده بعد ما تتخرج من كلية الشرطة ماكنتش دخلتهالك. فرق كبير بين خالد الولد المؤدب وخالد بيييييه، الظابط عديم الأخلاق.

قاطعه خالد مُرتجفًا: يا بابا من اللي باشوفه في شغلي وباقابلـ...

قاطعه والده بحِدّة: كلام فارغ. اللي بتقوله ده كلام فارغ، ما تبص حواليك وتشوف نماذج الضباط المحترمين، أو حتى اللي بدؤوا يبقوا محترمين بعد الثورة يا أخي. الضباط دلوقت مابقوش مقبولين يتشافوا في الشاااااارع، وبيحاولوا يتوددوا للشعب عشان يصلحوا العلاقة مرة تانية، وإنت زي ما إنت مش عاوز تتغير؟!

أطرق رأسه ولم يتفوه بحرف فاستطردت والدته:

ـ الأولاد بيشتكولي منك. ممكن تقول لي إيه المعاملة اللي بتعاملها لهم دي يا ولد؟! أنا عمري عاملتكم كده سواء أنا أو باباك؟

ـ أنا شايف اللي ماحدش شايفه. ونزولهم ميدان التحرير هيئذيهم. حذّرتهم كذا مرة وماسمعوش كلامي. أنا خايف عليهم مش عاوزهم يكونوا نقطة ضعفي يا أمي.

عنَّفه والده: تقوم تقسى على ابنك اللي عنده فشل كلوي؟! تقوم تزق بنتك على الأرض وتضربها جامد بالشلوت؟ (أضافت والدته.) إنت عارف إنك كده ممكن تقضي على عُذريتها؟

ظلَّ مُطرقًا لم يتفوه بحرف، فأردف والده:

ـ إنت عاوزهم يسيبوا البيت ويطفشوا؟ تربيتك دي غلط يا خالد. اسمع الكلام يا ابني إنت المفروض تحتويهم وتفهمهم بالرَّاحة الصح من الغلط، اتقرب من بنتك دي في سن خطر، عامل ابنك كويس ده مريض وربنا ما يوريك تعب الفشل الكلوي، على الله تعرَّفهم إنك عرفت إنهم اشتكولي.

ـ إنتوا ليه فاكرينني باكرههم؟ هو فيه حد بيكره ولاده؟ يعلم ربنا باحبهم قد إيه بس تصرفاتهم مابقتش تعجبني. (نهض) أستأذنكم أنا عشان ورايا مشوار.

نظر له والده بحنان: خد بالك منهم واحتويهم يابني. وماتخليش عملك كضابط يخليك تفقد إنسانيتك كأب.

هزّ خالد رأسه متفهمًا، استأذنهم وانصرف، استوقفه والده عند الباب.

ـ خلي بالك من شغلك وراعي ربنا وضميرك، ماتخلّيش حد يمسك عليك غلطة. وصلني إن اسمك بيتقال كتير في الوزارة الأيام دي. إهدا

شوية. إهدااااااااااا كفاية قوي آخر موضوع حصل لك.
- حاضر يا بابا. ربنا يقدم ما فيه الخير.

قالها مُزمجِرًا قبل أن يرحل ويركب سيارته، أدارها وظل واقفًا لدقيقة يفكر في كلام والديه قبل أن يتفاجأ بدراجة بخارية تنبت أمامه من عدم، وسيارة من الخلف نزل منها رجلان يمسك أحدهما مطواة، والثاني يمسك بهراوة ضخمة.



الأحد ٩ أكتوبر ٢٠١١.. الساعة ٠١:١٨ ظهرًا

كانت الأجواء أمام كنائس شبرا لا تنبئ بأن اليوم سيكون واحدًا من أحلك أيام مصر منذ اندلاع ثورة ٢٥ يناير، بالرغم من غليان الأقباط حينئذٍ، بسبب أوضاعهم وحرق كنائسهم واضطهادهم المستمر، منذ حادث كنيسة القديسين في يناير ٢٠١١، مرورًا بحرق كنيسة العذراء بإمبابة في ٧ مايو بنفس السنة، اعتداء المتطرفين بكنيسة مار جرجس في إدفو بأسوان، اعتصم الأقباط أمام مبنى ماسبيرو تنديدًا بهذه الأحداث، الشيء الذي جعل الكنيسة ترفض هذا الاعتصام محاولة إقناع الأقباط بإنهائه لكن دون جدوى، استمر الاعتصام لفترة حتى تم فضه بالقوة من قِبل قوات الأمن.

كنتيجة لذلك؛ انفلت الغضب المكتوم في صدورهم، بدأ اليوم بعدة مسيرات انطلقت من شبرا، شارك فيها نشطاء مُسلمون قبل الأقباط تنديدًا بفض الاعتصام، جموع غفيرة ملأت شارع شبرا بطوله،

صلبان مرفوعة بجوارها مصاحف، مسيرة من شارع جانبيّ تنضم إلى أخرى بشارع مُتفرع لينضموا إلى المسيرة الأكبر بالشارع الرئيسي فالأكبر بالميادين حتى وصل عددهم قرابة الخمسين ألف متظاهر، مُتّجهين إلى ماسبيرو، كل الهتافات كانت تشير إلى سلمية واضحة، جليَّة. إلى أن وصلت المسيرة الأضخم إلى ماسبيرو مُحافِظة على سلميّتها، حتى بدأ الاحتكاك بين قوات الأمن والشرطة العسكرية وبين فئة انحرفت عن المسيرة.

كان أحدًا داميًا، أسود وحزينًا. وكالعادة منذ اندلاع الثورة؛ تضاربت الأقوال والآراء حول إجابة سؤال واحد؛ «*من هم هؤلاء الذين انحرفوا عن المسيرة وأحالوها من سلمية إلى دموية سقط فيها العشرات؟!*»

وكالعادة؛ كانت الحادثة مادة خصبة لقنوات الإعلام ـ المختلفة والمتضاربة ميولها ـ لتناولها والحديث عنها لأيام، كل منهم يحاول إبعاد مسؤولية الجثث عن الطرف المُنحاز له، بل واتهام الطرف الآخر بأنه من فعل ذلك، وكالعادة؛ يشاهد المواطن العادي الآراء المطروحة والمناقشات فلا يخرج بنتيجة حاسمة أو تحليل يثلج صدره فينام مرتاحًا بمعلومةٍ كافيةٍ وافية. وكالعادة تتناولها الصحف في مواقعها الإلكترونية وأعدادها الورقية.

وكالعادة؛ ينتقل هذا التضارب بسرعة البرق إلى صفحات التواصل الاجتماعي، فبمجرد إدراج الخبر على «فيس بوك» و«تويتر»، يأخذ (إعجابات، تعليقات، مشاركات) من الجميع، تعليقات من كل أطراف وأطياف الشعب المصري، وسرعان ما ينتهي الأمر في النهاية لتراشق كل منهما الآخر بالسباب والشتائم والاتهام بالعمالة والخيانة وإشعال

الفوضى. فكل شخص في هذا البلد هو خائن في عين المخالف معه في الرأي!

وكالعادة؛ ينتقل هذا التضارب إلى المقاهي وفي العمل والأسواق، بل ووسائل المواصلات؛ بعض الناس قالوا إن هذه الفئة من الأقباط، والبعض الآخر رأوا أنها فئة مُندَسَّة هدفها إحداث وقيعة بين الأقباط والمجلس العسكري، الأمر الذي حذَّر منه البابا شنودة قبل ذلك. فيما كان هناك رأي ثالث أنها أيادٍ خارجية تريد أن تعبث بأمن مصر مُستغِلّة أيّ تجمع سلميّ ليحيلوه إلى عنف، والأهم أنه لأقباط. ورأي رابع أن الأقباط دبَّروا ذلك كي يكون ذريعة لفرض وصاية غربية على مصر باعتبارهم أقلّية بحاجة إلى حماية. فيما يرى آخرون أن السبب في ذلك فلول الحزب الوطني فيضيف عليه آخرون غيرهم أن من فعل ذلك بلطجية قام باستئجارهم حبيب العادلي «من داخل طرة» كي يحدثوا هذه الوقيعة. فيصيح آخر أن السبب في ذلك سوزان مبارك « كل ما تروح زيارة لسجن طرة لازم يحصل مصيبة يوميها أو تاني يوم على طول.»

فيتشاجر معه شخص آخر مخالف معه في الرأي، فيتبادلون الاتهامات أيضًا، إلى أن ينتهي الأمر لظهور شخص (أصم-أبكم-كفيف) ليهدئ من روع الطرفين. بينما تظل «الكنبة» عامرة بالجالسين عليها، فينظرون إلى الأطراف المتشاجرة المتناحرة، يهزّون رأسهم في صمت ويكملون احتساء الشاي.

ما إن هوت الشمس من أعلى قُبَّة السماء وآذنت بالمغيب، حتى اشتدَّت المواجهة، ووصلت إلى ذروتها فسقط خلالها شهداء كثيرون ومصابون أكثر؛ ما يقرب من ٢٧ شهيدا، قالت بعض الروايات إن منهم من تم إلقاؤه في النيل، ومنهم أعداد كبيرة كانوا مُكَوّمين جثثهم فوق بعضهم البعض بداخل المشارح.

وسط نيران مُندلِعة في كل مكان، مدرعتان محترقتان ومولتوف ملقى من هنا إلى هناك والعكس، كانت الجثث والمصابون متناثرين في كل الأنحاء. من بينهم رجلٌ عَضِلٌ، لا تخفي جروحه ودماؤه المسالة ـ والتي غطَّت ملابسه ـ بنيته القوية وطوله المديد، مُلقى بجوارِ حائط عمارة «دار المعارف»، ما زال قلبه نابضًا بوهنٍ على استحياء، أنفاس تدخل صدره فتخرج مُتهدّجة بعد حين، عبر شفةٍ هدلاء مُضرجة بالدماء التي تقطر منها، فاقد الوعي تمامًا، مُهشَّم الرأس إثر ضرباتٍ متتاليةٍ، جرح قطعي في صدغِه وبأنحاء متفرِّقة في جسده. موشومٌ برسغ يده صليب، وعلى ذراعه مرسوم صورة رمزية للعذراء والمسيح ومكتوب تحتها بخطٍ رديء «جرجس»، لمحته المُمَرّضة «شادية غنيم» العائدة من عملها بمستشفى قصر العيني.



الاثنين ١٢ مارس ٢٠١٢ ـ ١٠:١٦ صباحًا.

حارة السِرجة ـ إحدى حواري منطقة رملة بولاق

«يا صباح الخير ياللي معانا، ياللي معانا، الكروان غنا وصحّانا!»

مهما مرَّت الأيام والسنون على منطقة شعبية، مثل رملة بولاق، ستظل أجواء صباحها هي نفس أجواء كل صباح. بعدما تميل شمس الضحى عليها، مُرسِلة خيوطها الذهبية الواهية، لينبلج نهارٌ مُشرقٌ من رَحِم ليلٍ مُكفَهِرٍ. فيصدح صوت أم كلثوم ليشدو عبر راديو محطة الشرق الأوسط.

من بين شوارع منطقة رملة بولاق الضيقة، والأزقة التى ضاقت الأرض على من فيها بما رحبت. كانت هناك حارة السرجة، المتعرجة، المتكسرة، ضيقة الطرقات. تفوح فيها رائحة الفول من قدْرِ عم صابر الذي يبدأ عمله من بعد صلاة الفجر. بجواره المخبز اليدويّ الذي يصنع خبزًا مُنتفِخًا طيب الرائحة. على الناصية تجلس أم فتحي خلف منضدة عليها أربع علب حلوى لا تزيد يومًا ولا تنقص، رغم ذلك لم تنم جوعى قط. في صدر الحارة التي تنتهي بباحة مُتَّسِعة على هيئة نصف دائرة، يتوسطها بيت المقدِّس بشاي ذو الثلاثة طوابق، شباك الطابق الثاني يتدلّى منه حبل مربوط بنهايته حذاء طفل صغير، إشارة من لوقا إلى حبيبته مريم أن والديه ليسا في المنزل ويمكنها الصعود إليه في أمان.

بجوار البيت تقف سيارة ميكروباص تويوتا موديل ٢٠١٠ بمحاذاة الجدار، بجوارها دلو ممتلئ بالماء والصابون يغمر فيه جرجس فوطة صفراء قبل أن يعتصرها جيدًا ليُلَمِّع الإطارات بعد قضاء ساعة ونصف في غسيل ميكروباص الأسطى إبراهيم سارينة، الجالس في قهوته يحتسي شايا خمسينة وحجر معسل عليه قطعة حشيش، يتطلَّع إلى مؤخرة شادية الممتلئة وهي تترجرج حينما خرجت من بيتها تسير مُتهادية بخطواتٍ ألهبت صدره فأضرمت النار بداخله، تذكّر حينها زوجته وهي تتلوى بأكوام جلدها وكرشها وترهّلاتها تحته، تخور كثورٍ إسبانيٍ هائج تم طعنه برمحين وأربعة أسهم. فهزَّ رأسه مُتحسرًا قبل أن يسُبَّ اليوم الذي تزوجها فيه قبل أن يرى شادية، ومؤخرتها. أمسك بعدها هاتفه ليتصل بابنه:

ـ إيه ده إنت لسه نايم يابن العِجلة؟ ناموسية أمك كحلي! ألوووو.

قوم ياااااااض الساعة داخلة على ١١ وموظفين الشركة بيخرجوا ١٢ لسه وراك مشوار في اكتوبر. أما نشوف الخمس دقايق بتاعتك.

أغلق الهاتف ودسَّه في سيالة جلبابه، ثم أمسك بالماشة ليزيح من حجر المعسل قطعة فحم مُنطفئة وينادي على خميس صبي القهوة الواقف أمام الحوض يغسل الأكواب، فهرع مُسرِعًا تجنبًا لسماع سبّ الأسطى إبراهيم له، لكن دون جدوى.

ـ أنا كام مرة ياض أقول لك تحط لي فحم عصافيري. حاطط لي فحماية قد مناخير أمك! كده تحرق لي الحشيشة؟

ـ يا أسطى أنا احتارت معاك وربنا. مش إنت امبارح شتمتني بأمي برضو عشان باحط فحم عصافيري وقلت لي أحط لك فحم كبير؟ أولع لك في نفسي عشان تستريح يعنـ..

لم يلبث أن أكَمِّل خميس جملته حتى تفاجأ بكف إبراهيم مطبوعًا بصماته على رقبته ليصدر صوتًا جعل جرجس ينتفض بينما يلمع الإطارات، تلقّى خميس الصفعة برضا تام دافنًا بقايا كرامته في صدره، ثم دخل القهوة بهدوءٍ ليُحضِر فحمًا، أمسك إبراهيم كوب الشاي فاستطرد:

ـ واعمل لي شاي بدال اللي برد ده ياض. (رمى ما في الكوب على جرجس موبخًا). وإنت ياض يا جرجس، هتقعد للضهر تغسل في الكاوتشات؟ ماتخلص ياض!

نهض جرجس مُتخربِطًا مُرتبِكًا، ونُقَط الشاي تتقاطر من «بنطلون الترينينج» الباهت المتهالك ماركة «أديبوس».

ـ يا أسطى إبراهيم مانا باغسلها لك بذمة وضمير، يرضيك ابنك يطلع بالعربية متوسخة؟

ـ لا مايرضينيش. بس مايرضينيش برضو تقعد في غسيلها ساعة وتيجي آخر اليوم تقول لي عاوز خمسة جنييييييه عشان قعدت أغسلها ساعة. قالها ملوحًا بليِّ الشيشة.

ـ يعنى لو وديتها بنزينة ودفعت ٢٥ جنيه في خمس دقايق يبقى حلال ليهم وحرام ليا؟

ـ إنت هتقعد ترغي؟ داهية فيك وفي اللى جابتك. لأ. اللي جابتك لأ عشان حبيبتي (التفت خلفه موجهًا كلامه لخميس). عملت الشاي ولا لسه يابن الزانية؟ إنت عارف ياض يا خميس إني كنت ماشي مع أمك زمان؟

ـ آه يا سيد الأسطوات ماهي قالت لي إنك كنت بتزنقها في الخرابة، خلاص أهو الشاي قرَّب يغلي وهاصبهولك.

قالها وهو يضع السكر، قبل أن يبصق بهدوء في الكوب بلغمًا سحبه من صدره وأنفه، صبَّ فوقه الشاي بعدما غلى وقلَّبه جيدًا مع عود نعناع أخضر يانع، ووضع الكوب في صينية بجوار كوب ماء مثلج.

ـ صباح الفل يا أسطى، بالهنا والشفا على قلبك.

رشف منها الأسطى إبراهيم رشفةً هنيئةً شعر بعدها بالانتشاء قائلًا:

ـ إنت عارف ياض يا خميس، إنت فيك كل العبر الوسخة، بس عليك كباية شاي بتعملها لما بتكون رايق، بتعدل الدماغ.

ـ أنا خدَّامك يا سيد الناس، وربنا خدَّامك.



بعد قضاء وقت عاصف بشبقٍ محموم بين غادة وأمجد، مارسا فيه الحب ثلاث مرات، دلفت إلى الحمام لتأخذ حمامًا دافئًا قبل أن ترتدي ملابسها وترحل مُسرعة إلى نادي الزمالك لتأخذ ابنها إلى جلسة غسيل الكلى. تاركة أمجد نائمًا عاريًا تمامًا، طبعت قبلة حانية على صدره ثم دثّرته برفقٍ خشية أن يستيقظ.

وصلت إلى النادي فوجدت مصطفى جالسًا على الرصيف لأكثر من نصف ساعة ينتظرها، اعتذرت له عن التأخير مُتحججة بأنها كانت في وزارة الداخلية لمتابعة مكافأة والده. هزَّ رأسه بضيق دون أن يتفوه بكلمة، إلى أن وصلا إلى المستشفى، دفعت غادة رسوم خمس جلسات غسيل ثم أخذت إيصالًا بالمبلغ، التفتت فأصيبت بالذعر فجأة حينما وجدت مؤمن حربي في وجهها: مساء الخير يا مدام غادة. البقاء لله.

نظرت إليه باندهاشٍ عارم، وبالكاد استطاعت التقاط أنفاسها، قالت له بنفاد صبر: أعتقد يا مؤمن بيه إن دي المرة العشر تلاف تعزيني وتقول لي البقاء لله!

ـ آه فعلا، ماعلش نسيت. ممكن نقعد مع بعض نتكلم شوية في موضوع خالد الله يرحمه؟

ـ أعتقد إني قلت كل حاجة في التحقيق، وأعتقد برضو إني دلوقت أرملة. ومايصحش أبدًا حد يشوفني قاعدة معاك، وبالذات ابني. أو أي مخلوق تاني عمومًا! قالتها بحدة وانفعال، مرَّت بجانبه بعدما رمقته بنظرة تنم عن ضيق، خرجت لتشتري بعض الحقن والأدوية التي يطلبها منها الأطباء ليحقنوها كل جلسة في أنابيب ماكينة غسيل الكلى. دخلت بعدها لابنها وجلست بجواره. تجوس في رأسها أشياء كثيرة. ظلت تفكر

فيها إلى أن قطع حبل أفكارها صوت نشيج ابنها، فنظرت له بأسى.
ـ مالك بس يا مصطفى؟ البكا والحزن غلط على صحتك يا حبيبي.
ـ كل ما أفتكر بابا الله يرحمه ماباقدرش أمسك نفسي يا ماما. (مسح دموعه بباطن كفه). حاسس إننا كنا ظالمينه، حاسس إنه كان بيحبنا وإحنا ماكناش حاسين بده.
ـ أبوك كان أناني يا حبيبي، وشعورك ده عشان إنت لسه صغير، بكرة لما تكبر هتعرف. هتعرف قد إيه هو كان ظالمنا، وأنا بالأخص.
ربتت على صدره بتحنانٍ قبل أن يرن منبه الجهاز بأن الجلسة انتهت، نادت على الممرضة لتنزع الأنابيب، أعطته بعدها علبة عصير تعويضًا عن سكريات فقدها، ودرءا لإعياءٍ مُحتمَل.
أما داليا التي ما زالت جالسة بمفردها في غرفتها، وقد أغلقت الباب على نفسها من الداخل، ليس باب الغرفة فقط، وإنما أيضًا باب روحها، أغلقته تمامًا، لا تفتح لطارقٍ قط، حتى لو كان هذا الطارق غادة التي حاولت مرارًا إصلاح ما بينهما، وسدّ الفجوة. كلما تحاول الاقتراب منها خطوة تبتعد هي عشر خطوات، فتغور الهوّة الفاصلة بينهما.
لم تستطع نسيان اليوم الذي مرَّت فيه بجوار غرفة النوم وسمعتها تتحدث إلى أمجد في الهاتف مكالمة ساخنة وتحكي له عما أعجبها في الليلة التي قضياها معًا. انغلق بعدها قلبها تمامًا وظلت تنظر إليها على أنها خائنة.
حتى صديقاتها؛ قلَّما كانت تخرج مع إحداهن إلى أحد المولات لساعة أو بضع ساعة، ثم تعود أدراجها إلى البيت مرة أخرى لتحتمي بعزلتها بين جدران وحدتها التي أصبحت أقرب لها من نفسها، وأنفاسها.

تفكّر بالساعات في والدها، لم تستطع التخلُّص من ذكراه قَطْ، نادمة على أن آخر موقف بينهما كان شِجارًا، كلما تذكرت ما كان يفعله فيها، كانت تجد عشرات الأسباب التي تشفع له عندها، طالما حذرها من أحمد، وفي النهاية اكتشفت أنه كان على حق. لم تنس تلك المرارة التي انزوت داخل صدرها فاستقرت كجبل؛ وتحطَّمت بسببه أحلام ظنت أنها ورديّة، فكان يخدعها ويوهمها أنه ثائر ومُنتمٍ إلى الوطن. لكنها اكتشفت في النهاية أنه ينتمي إلى جماعة من دون الوطن. أحبته بشغف وأسكنته فؤادها واكتشف بعد ذلك أنه لم يستحق كل هذا الحب، خُدِعَت فيه وظنت أنه إنسان، لكن وجدته ضَيّقَ الأفق، جاهلا وجهولا، تذكرت كل كلمة دارت بينهما من قبل، كل لحظة قلق عليه مرَّت عليها وأرهقتها، ظلَّت تفكر إلى أن انفجرت فجأة في البكاء حتى احمرَّت عيناها.



بعد عناء يومٍ طويل مرَّ عليها كدهرٍ، تمر بين الدورين الخامس والسادس لإحضار دواء، أو لتركيب «كانيولا» لمريض، أو لمسح قيء أحدهم. بدلت شادية ملابسها في عُجالة وألغت ميعاد مع «محمد معجونة» النقَّاش، كي تُكمِل بحثها في الكنائس، علَّها تجد ما تبحث عنه، أو تسمع خبرًا تنتظره. دخلت قاعة الصلاة بكنيسة الدوبارة حيث يلقي القس موعظته الأسبوعية، منهيًا بمقطع من إنجيل مَتَّى:

«طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ، لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. طُوبَى لِلْحَزَانَى، لأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ. طُوبَى لِلْوُدَعَاءِ، لأَنَّهُمْ يَرِثُونَ الأَرْضَ. طُوبَى لِلْجِيَاعِ

وَالْعِطَاشِ إِلَى الْبِرِّ، لأَنَّهُمْ يُشْبَعُونَ. طُوبَى لِلرُّحَمَاءِ، لأَنَّهُمْ يُرْحَمُونَ. طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ، لأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللهَ. طُوبَى لِصَانِعِي السَّلاَمِ، لأَنَّهُمْ أَبْنَاءَ اللهِ يُدْعَوْنَ. طُوبَى لِلْمَطْرُودِينَ مِنْ أَجْلِ الْبِرِّ، لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ».

وقبل أن ينفضَّ الجمع من أمامه استطرد.

ـ كنت عاوز أنوّه على موضوعين، الأول إن أهالي إخوانكم اللي استشهدوا محتاجين الرعاية المعنوية قبل الرعاية المادية، أحسنوا ليهم واسألوا عليهم وعايدوهم، ماتسيبوهمش غرقانين في ابتئاسهم وغمهم لوحدهم، اقفوا جنبهم.

الموضوع التاني إحنا معلّقين صورة لشاب مسكين فاقد الذاكرة، اسمه جرجس لو حد استدل عليه أو يعرفه يبلغ سكرتير الكنيسة. في رعاية الرب ألقاكم المرة الجاية.

أخذت تراقب كل من ينظر للصورة، لعلَّ أحدا يصيح قائلًا إنه يعرفه، أو يظهر على وجه أحدهم أيّ تعبير يدل على أنه تعرَّف عليه. ظلت هكذا إلى أن خرج آخر شخص، دون جدوى. جلست بعدها في حضرة القس الجالس في هدوء وسكينة، سألته في قلق:

ـ إيه الأخبار يا أبونا؟ عملت إيه في موضوع جرجس؟

ـ للأسف يا بنتي أنا كده عملت اللي عليا وزيادة، علقنا صورته في الكنايس اللي حوالينا، وبعد كل دروس الآحاد كنت باسأل يمكن حد يعرفه زي ما إنتي شايفة، لكن مافيش فايدة.

ـ طبّ والحل إيه يا أبونا؟

ـ مافيش حل غير اللي قلت لك عليه يومها، بلَّغي الشرطة وهما يتصرفوا.

ـ شرطة إيه بس؟ ده أنا بمجرد ما قلت لهم إني عندي واحد تايه ومالوش أهل. كان ناقص يضربوني ويشتموني. وفي الآخر قالولي اعملي محضر، ورموه في الدرج.

ـ كده بقى يبقى ربنا يشمله بعطفه ورحمته ويعثّر أهله عليه. للأسف يا بنتي أنا كده عملت اللي عليا.

شكرت شادية القس ثم مضت عائدة إلى الحارة مُطأطِاة الرأس، فاقِدة الأمل، خائِبة الرجاء.



في سطح البيت المُتهالِك، الواقف بصمودٍ رغم اغتصاب خمسة وثلاثون عامًا له ولجدرانه وأساساته وأدواره الأربعة. عمودان خشبيّان مُثبّتان بإحكامٍ يمينًا ويسارًا موصول بينهما حبل مرتخٍ، منشور عليه ملابس أشبه بخِرقٍ بالية، بجوار سلم خشبي ترقد بقايا هيكل حديديّ كان يومًا ما درّاجة. بأقصى اليمين عشّة بداخلها بط وإوز موضوع أمامهم بقايا كرنب، كُرّات وقشر بطيخ. وبضع دجاجات ينقرن ـ بغير انتظام ـ قدرا به خبز منقوع في ماء، ما إن يوشك على الانتهاء حتى يُملأ من جديد، بجوار العشّة قفص كبير بداخله ستة أرانب يتدلى بين قضبانه من أعلى برسيم يأكلون منه طيلة الوقت بلا هوادة. سطحٌ، لا يخلو من رائحةٍ مميزةٍ نفّاذة تُزكِم الأنوف، ولا من صياح الديكة عند الفجر، أو ضغيب الأرانب ونقنقة الدجاجات طوال النهار والليل.

بأقصى اليسار غرفة خشبية صغيرة بُنّية اللون لا تفرق كثيرًا عن

عشة الطيور، سقفها مكون من عروق خشب لا تمنع تداعي الأمطار الهاطلة بالشتاء ولا اختراق أشعة الشمس اللاهبة بالصيف. بداخلها سرير صاج مُتهالِك يصدر أزيزًا بسبب تقلُّب جرجس فوقه طوال الليل لا يستطيع النوم، رغم ما يعانيه طوال اليوم من غسيل السيارات، أو تنظيف «منور»، أو قضاء أي مشوار لأي شخص بالحارة. يضع الجنيه فوق نصف الجنيه طوال اليوم فيصبح مبلغًا هزيلا بالكاد يكفي قوته.

ليس هذا الذي يؤرقه، وإنما وقوفه على حافّة الجنون، يحيا مُوزعًا بين عذابين؛ الأول هو أنه لا يعرف من فعل به كل ما حدث له ليلة ماسبيرو، والثاني هو أنه الآن بلا هوية واضحة، لا شيء مما سبق قادر على تذكره، يشعر أن شيئًا كبيرا ضائعًا منه أو تائهًا عنه، لا يعرف ما هو! لا يتذكر أيّ شخص من حياته مُسبقًا. أخبرته شادية أنه على الأرجح فاقِد للذاكرة، وأشياء أخرى أخبرته بها لم يفهم منها شيئًا، كل ما يعرفه أن اسمه جرجس؛ شخص يعيش النهار لا يسمع إلا سبابًا من إبراهيم سارينة له ولأهله ـ الذين لا يتذكرهم ـ ويتشاجر مع «كلاعينو» الذي يتقاسم معه يوميًا ـ عُنوة – كل ما يجنيه من غسيل السيارات، يسترق نظرة إلى مريم، المهتمة به وبحاله المثير للشفقة. يجلس مع خميس أو أخيه جمعة ويسهر معهم أحيانًا، وشادية التي تُحضِر له من حين لآخر غداءً جاهزًا، وتطمئن عليه لدقائق ثم تغادر بعد نظراتٍ لم يفهم معناها!

يرى في أحلامه أشياءً غير مترابطة، مواقف مُبعثرة غير منتظمة وأطراف لحظات تومض في دُجاه، يستيقظ في منتصف الليل صارخًا، ناسيًا معظمها، وحينما يحاول تجميع الصور التي يتذكرها من بقايا حلمه، ويضع الواحدة بجوار الأخرى، لا يصل إلى شيءٍ واضحٍ وجليّ،

صداع ينزل حينها بأثقاله فوق رأسه ليخترق لُبَّ دماغه، فيتلوى ألمًا حتى يتهالك مرة أخرى على فراشه، ألمًا يظل بعدها أنيسًا لرأسه وقت طويل. فيدسّ نفسه تحت غطاءٍ متهالك، ويغيب عن الوعيِّ ليسافر في سباتٍ عميق درءًا لهذا الألم.

أيقظته في الصباح أشعة الشمس الحارقة، الخارقة لسقف غرفته، وطنين ذبابة مُلِحَّة سخيفة! نهض بوجهٍ واجمٍ، عاجز عن الكلام، وما زال يفكر في الرؤى التي هاجمته ليلة أمس. والليالي التي تسبقها، ارتدى فانلّة داخلية رثّة، فتح صنبور المياه الصدئ ليمدّه ببخل بخيط مياه رفيع يغسل به وجهه قبل أن تطرق شادية الباب.



بعد غياب ابنهما عنهما عدة أيام لم يعلما فيهم شيئًا عنه، واستقبلا بعدها ظرفًا بداخله صورته وهو مُلقى على الأرض غارقًا في دمائه التي تغطي معظم معالم وجهه وجسده بالكامل. تحرَّق فؤاداهما عليه، ساد الحزن والاغتمام منزلهما، اكتسى وجهاهما بجزعٍ ووجلٍ لم يشعرا به من قبل. جاءهم خبر ولدهما دون أن يدروا أين دُفِنَ؟ وهل دُفِن من الأساس أم ظل هكذا ملقى في العراء؟ ما هوَّنَ عليهما قليلا هو عودة ابنهما محمود من الخارج ليواسيهما ويقف جوارهما في هذه الفجيعة التي ألَّمت بهما، ما إن ينفرد بنفسه هو الآخر حتى يجهش بالبكاء فيغرق في دموع أحزانه على أخيه الذي لم يقابله منذ ثلاثة أعوام. يذهب يومًا بعد يومٍ إلى أولاده وزوجته ليعزيهم ويطمئن إن كانوا يحتاجون شيئًا.

ويتابع إجراءات وزارة الداخلية كي يتم تكريمه غيابيًا وتسليم نوط الشجاعة بدلا منه.

نفس الحال لا يختلف كثيرًا بين أولاده مصطفى وداليا، بينما استمرت غادة في علاقتها بأمجد، تقابله كل يومين أو ثلاثة، تقضي معه يومًا كاملا، تشعر أحيانًا بوخزة ضمير لكن كالعادة؛ سرعان ما تبرر لنفسها ما فعلته وما تفعله، وستفعله.

حين علمت الشرطة بالواقعة ورأت الصورة، قام المقدم مؤمن بعمل تحريات وتم استجواب عدة أشخاص. لكن إيجاد الفاعل أمر ليس باليسير.

خالد الكحكي؛ شخصية مُثيرة للجدل لديها القدرة على التحلّي بعشرات الصفات ونقيضها في آنٍ واحد. لذا فإيجاد القاتل أو كشفه أمر شبه مستحيل، فعلاوة على عدم وجود جثة. كان خالد ضابط شرطة وكان معروفًا عنه أن لديه أعداء كثيرين، لكن أيضًا لديه أحباء أكثر. يُحسِن بيدٍ لأشخاص بينما يقسو بالأخرى على أشخاصٍ آخرين. ردود أفعاله تجاه أشياء معينة يتم توقعها أحيانًا بسهولة، وأحايين أخرى يبدو غامضًا مُبهمًا. يوجد بعض الشبهات في بعض المأموريات التي قام بها وكثيرًا ما تم استجوابه في عدة وقائع يخرج منها كشعرةٍ من عجين، لكن أيضًا لا أحد في الوزارة يستطيع أن يشك في مهارته البارزة وقدرته الفائقة على «تقفيل» قضايا وإحباط عمليات كبرى. لم يكن يومًا مؤيدًا لنظام ما قبل الثورة، لكنه أيضًا لم ينحز لثورة ٢٥ يناير. يحب أسرته، لكنه في نفس الوقت يعاملهم معاملة جافة فظّة، فاليوم الذي قابلهم مُمسكًا بسلاحه في ميدان التحرير، اصطحبهم قبلها بيومين يشتري لهم أغلى الملابس والهدايا!

لم تضع الشرطة بشكلٍ كاملٍ في حسبانها عند التحقيقات أنه تم اغتياله، بل وضعت احتمالّات أنه قد يكون مفقودًا. وفي كلتا الحالتين تباينت مشاعر وأحاسيس من حوله تجاه ما حدث له ما بين تعاطفٍ وتشفٍ!

استجوب مؤمن أشخاصًا كثرا؛ من بينهم العسكري الذي لم يكن يفارقه إلا نادرًا، أبو جريشة، الجيَّار، جبريل، الشاب الذي أصابه بمطواته في العتبة، غادة جوهر، مصطفى ابنه، داليا ابنته. وآخرون يشتبه في تورطهم.



ـ بسم الله ماشاء الله، وشك النهارده بدر منوّر يا زين الرجال. صباح الفل على عيونك، قلت أجيب لك فطار ناكل لقمة مع بعض، عشان ماتنزلش يا حبة عيني على لحم بطنك.

أسدل رأسه على صدره مُغتمًا ولم ينبس بكلمة، بدا مهمومًا ويحمل همَّ الدنيا كلها فوق كتفيه، همًا مُثقلاِ عليه بما لا يطيق احتماله، نظرت إليه شادية بحزنٍ وأسى:

ـ وحياة الغاليين عندك ماتخلينيش أشوفك كده. قلبي بيتقطع عليك.

ما زال حزينًا مُطرِقًا، ضاغطًا بيديه على رأسه التي تجوس فيها أفكار كثيرة غريبة غير منتظمة أو محددة، لم يلتفت لكلامها ولم يأبه، بينما تجوَّلت هي بعينيها على عضلات ذراعيه والعروق المنتفضة بساعده، شعر صدره الكثّ وانعكاس أشعة الشمس على منكبيه المُتقاطِر عليه عرقه فزاده لمعانًا، وزادها شبقًا.

ـ ياااااه، لولاش بس إنت مسيحي يابن الكلب. قالتها بحسرة في قرارة نفسها قبل أن تمسح عرق كتفه بيدها، فتمسحها في رقبتها ثم تُمسِّد شعره الملتمع فأذنه وذقنه، شعر جرجس بتصرفاتها الغريبة فارتبك وأشاح بوجهه بعيدًا، شعرت بالإحراج وابتعدت عنه.

ـ أ.. أ.. أنا آسفة يا جرجس، ماكانش قصدي.

نهض مُقاطعًا بانفعالٍ شديدٍ: أنا تعبان يا شادية، مش عارف حاجة ومش فاهم حاجة، حاسس إن دماغي ممسوحة.

ـ مانا قلت لك إن احتمال اللي عندك ده يكون فقدان ذاكرة، واحتمال كبير يكون مؤقت، شهرين تلاتة وترجع زي الفل وتفتكر كل حاجة. احمد ربنا إنك نجيت، إنت كنت ميّت وربنا حطني في طريقك عشان مكتوب لك تعيش تاني.

أَمَالَ الهمّ والحزن رأسه إلى الوراء، ساندًا بيديه للخلف على السرير، فاستطردت:

ـ أنا شفت لك دكتور مخ وأعصاب كويس. مِعرِفة. الخميس الجاي نروح له عيادته وربك يعدلها من عنده.

ـ وعملتي إيه في موضوع الكنايس اللي قلتي لى سألتي فيها.

ـ رحت كنيسة الدوبارة والكاتدرائية ودار السلام والعدرا. مافيش فايدة. لزقنا صورتك على كل أعمدة المنطقة ومستنيين. يمكن حد يعتر عليك يتصل بينا.

مسح بانفعال عرقه المُترشح على جبينه وسألها مستفسرًا:

ـ إيه اللي حصل يومها بالظبط؟! لقيتيني إزاي؟ حالتي كانت عاملة إيه؟ إيه اللي حصل لي بعدها؟؟ أنا هاتجنن يا شادية. هاتجنن يا ناس

ماحدش حاسس باللي جوايا. وكل مرة أطلب منك تحكي لي بتنقطيني بالكلام!

نظرت إليه بأسى، قبل أن تلتقط قرص طعمية هرسته بإبهامها في رغيف خبز، وضعت فوقه جرجير ثم طلبت منه بإلحاح:

ـ طب عشان خاطري كل اللقمة دي تتقاوت بيها عشان ماتبقاش على لحم بطنك. ناولته الرغيف قبل أن تسرد له ما حدث بالتفصيل، الدقيق.



كان يومًا أسود قمطريًا بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، طوفانًا بلا موسى أو حتى فرعون، جحيمًا حقيقيًا، تروح الجموع بين دركاته وتغدو. تحت عمارة دار المعارف يرقد الرجل! بينه وبين الحياة أنفاس واهية، واهنة. أدركتْ أن قلبه لا يزال نابضًا بالحياة حينما لمحت رعشةً لا إرادية بأصابع يده، انحنت وأمالت برأسها فألصقت أذنها بصدره ليتأكد لها شكها، نظرت يمنة ويسرة فوجدت شبابًا ورجالا كثيرين يحملون قتلى ومصابين، من بينهم وجدت أحد جيرانها «جمعة» ومعه «التوك توك» الذي يمتلكه، ومعه أحد المصابين، فنادت عليه بصوتٍ مرتجف، اندهش من وجودها وسألها بأنفاسٍ لاهثة بالكاد يلتقطها: شادية! إيه اللي جابك هنا؟ جثة مين دي؟

ـ لا ده لسه حيّ، شكله واحد من المسيحيّين اللي كانوا بيتظاهروا النهارده.

ـ طب بصي، هاروح أودي المصاب اللي معايا ده للمستشفى الميداني اللي عند ميدان التحرير وأرجع لك.

رَبَعتْ مكانها نحو عشرين دقيقة ولم يأتِ، ملَّت من الانتظار وحالة الرجل تسوء، كلما يسألها شاب إن كانت تريد المساعدة تخبره أنها تنتظر جارها بالتوكتوك، كل نصف دقيقة تمسك بأناملها رسغه استشعارًا لنبض، إلى أن نضبت فاستعانت بأحد الشباب المتطوعين لنقل المصابين للمستشفى الميدانيّ بواسطة دراجته البخارية، ساعدها في حمله على الدراجة وجعله يستند عليه وركبت وراءهم مُمسِكة به بصعوبة بالغة، وبالكاد تحمَّلت حتى وصلوا للمستشفى الميداني، استدعت أحد الشباب المتطوعين وأخبرته أنها مُمَرِّضة، وطلبت منه بعض أدوات الإسعافات الأوّلية فأخبرها آسفًا أنهم لا يملكون سوى الشاش والديتول وما شابه. تركته وذهبت إلى مستشفى ميداني آخر بجوار المتحف المصري فأخبروها بنفس الشيء.

عادت بسرعة إلى المستشفى الأول فوجدت أن أعداد المصابين تتزايد وجرجس ملقى أمام الخيمة، فسألها أحد طلبة الطب المتطوعين:

ـ هو يقرب لحضرتك؟

ـ لأ.. آه.. لأ.. آه آه ده جاري. أرجوك اتصرف أنا كل اللي عاوزاه خيط طبي وإبرة، أنا ممرضة في القصر العيني وهاعرف أسعفه.

ـ والله يا آنسة ما معانا، إحنا عندنا حاجات بدائية جدًا، واحد زميلنا كتب ع الفيس إننا محتاجين دعم طبي وأدوات، يا إما تستني أي إمدادات توصل لنا، يا إما توديه أقرب مستشفى، القصر العيني مثلا طالما بتقولي إنك بتشتغلي هناك، بس وديه دلوقت عشان نبضه هيقل. وحالته شكلها خطرة.

قطع كلامه جمعة الذي صاح فيها منفعلا:

ـ إنتي فين يا شادية؟ رجعت لك آخدكوا مالقتكيش.

ـ لقيتك اتأخرت والجدع بيموت. القصد، هنا مافيش إسعافات كافية عشان يخرج من حالته دي، تعالى ناخده على القصر العيني بسرعة.

حمله جمعة وسندت معه شادية حتى استقرّ داخل التوكتوك. الميدان يزداد أعدادًا حتى أصبح شبه مُكتظّ، وكل الشوارع المتفرعة منه ممتلئة عن آخرها، ويصعب على المترجّل أن يمشي فيه، فكيف يسير فيه توكتوك أو حتى دراجة بخارية؟!

امتلأت الشوارع أيضًا عن بكرة أبيها، والحركة في الميدان لا تكف؛ كتف هذا تصطدم بكتف ذاك، شاب يستند إلى زميله بعد أن أصيب، فتاة تحمل بعض الأدوية لتزود بها المستشفى الميداني، صحفيون يغطون الأخبار ويحاولون التقاط صور، جثة محمولة على أكتاف متظاهرين ينددون بالفاعل، ويحاولون الخروج به من الميدان أو وضعه في مسجد عمر مكرم للغد. كان يومًا أشبه بيوم الحشر، ولا تملك شادية ولا جمعة رفاهية امتلاك الوقت للتفكير فيما سيفعلون، ذهابهم إلى المستشفى كان شبه مستحيل، إذا استطاعوا اختراق المتظاهرين والوصول إلى آخر سور الجامعة الأمريكية، فلن يجدوا إلا أحجارًا كأحجار الاهرامات تغلق الشارع وتحول دون عبور التوكتوك، وشارع محمد محمود شبه مغلق أيضًا، نظرت شادية خلفها وسألت جمعة: وإنت جاي من ماسبيرو الطريق أخباره إيه؟ زحمة ولا..

ـ أي نعم جيت بأعجوبة لكن قدرت آجي، زحمة آه لكن مش زي محمد محمود أو شارع الشيخ ريحان.

ـ طب لف، هتاخد نفس الطريق لحد ميدان عبد المنعم رياض، ونخرّم من جوا الحواري لحد ما نوصل للسرجة، هاحطه في العشة اللي فوق السطح، وأنا هاعرف أعتني بيه وأسعفه.

ـ هو يقرب لك يا شادية؟

ـ مش وقت أسئلة باقول لك الجدع هيروح مننا فطيس. يلا لف بسرعة مافيش وقت.

اخترقا الحشود بأعجوبة إلى أن وصلا لميدان عبد المنعم رياض، سلكا شارعًا جانبيًا ضيقًا إلى أن وصلا لجراج الترجمان بالسَّبتيَّة، ومنها سلكا حارة فزقاقًا، يمينًا فيسارًا إلى أن وصلا بسلام إلى حارة السرجة، حاول جمعة حمله على كتفه فلم يستطع، فقفز أخوه خميس صبي القهوة مع رجل آخر، حملوه حتى وضعوه في غرفة بسطح البيت الذي تقطن فيه شادية. ما هي إلا دقيقتان حتى صعد إلى السطح رجال آخرون ونساء وصبية، سألوا بفضول عن هذا الرجل، فأجابتهم شادية بانفعال:

ـ ده جرجس من البلد عندنا، ماعرفش إيه اللي جابه القاهرة فوجئت بيه من ضمن المتصابين في ماسبيرو (صاحت بنبرة مستغربة لا تخلو من استنكار) إيه يا ناس إنتوا هتفضلوا واقفين كده متنَّحين؟ روح ياجمعة هات لي شاش وميكروكروم، وإنت يا لوقا. روح لمريم بنت عمك جبرائيل قولها شادية بتقول لك اتصرفي من عيادة الدكتور متياس اللي شغالة فيها وخليها تجيب سلك طبي وإبرة وبنج لو موجود. ويا ريت لو جلوكوز كمان.

هبَّ كل منهم من مكانه تلبيةً لطلباتها، وانفرط الحشد تدريجيًا

يضربون بأسى كفًا بكفٍ، منهم من عاد أدراجه حيث كان، مُتمتمًا «حسبي الله ونعم الوكيل في اللي بيقتل في ولا دنا»، «الجدع وشه بدر منوّر منه لله اللي كان السبب»، «يستاهل، المسيحيين غلطانين مش عايزين يجيبوها لبر»، «ربنا يقومك بالسلامة يا ولداه، مسم، تلاقي أمه دلوقت قلبها واكلها عليه يا حبة عيني». ومنهم من ذهب لإحضار مياه مثلجة، ملاءة نظيفة للسرير المتهالك، عطر لإفاقته من غيبوبته، هِدمة أخرى غير الهدمات البالية التي عليه.

لم تمرّ نصف ساعة حتى حضرت مريم بأدوات الخياطة ومحلول جلوكوز، فساعدت شادية على خياطة رأسه أربع غرز، وجرح قطعيّ في صدغه غرزتين، ضمدتا بعض الجروح الأخرى، وعلقتا له المحلول.

سهرت شادية بجانبه طوال الليل، وطوال نهار اليوم التالي، تعمل دؤوبة على تطبيبه لا تتركه طرفة عين. مَّر يومان وثلاثة، فأسبوع حتى اختلط عندها الليل بالنهار، ينتهي محلول الجلوكوز فتستبدله بآخر، تتابع الجروح وتقدُّم التئامها، رغم أنها كانت عصبيّة على الرَّتق، لكن اهتمامها المُتنامي به أحدث فارقًا كبيرًا. بدأ يستفيق في اليوم التاسع، فتح عينيه لأول مرة. في نفس اللحظة التي كانت تستبدل فيها المحلول، تهلّل وجهها فرحًا، لكن سرعان أن أغلقهما مرة أخرى وغاب، ليعاود فتحهما في اليوم العاشر وتفوَّه أخيرًا بكلماتٍ مقتضبة من حنجرته التي أوشكت على الصدأ والتصحُّر من هجرِ الكلمات التي تخرج منها: أنا فين؟ إنتي مين؟!

حاول النهوض، غير أنه شعر بالصداع يدق بمطرقته على رأسه وباقي جسده فآلمه، وارتمى برأسه مرة أخرى قبل أن يصرخ بقوة هزَّت

أرجاء السطح. هدأت شادية من روعه حتى غفا قبل أن تنزل شقتها لتحضر له طعام، التقطت في طريقها من العشّة دجاجة سمينة، لم تأخذ أكثر من ساعة حتى صعدت مرة أخرى فوجدته كما تركته. حاملة صينية بها صحن يحتوي على مرقة دجاج هنيئة مريئة لتقوّي أعصابه وتُدَفِّق الدم في عروقه الجدباء القاحلة، وترمم جدران معدته التي تشققت من هجر الطعام لها. صحن آخر به لسان عصفور، وثالث به مرقة خضار مغمورٌ فيها الدجاجة مُقسَّمة إلى أربعة أرباع. كانت رائحة الطعام الذي أعدته له شهية وفوّاحة، تسلَّلت إلى أنفه فنبهّت حواسه إليه.

ساعدته على النهوض وإسناد جذعه إلى ظهر السرير فأحدث اصطكاكًا زاد رأسه ألمًا فوق ألمٍ، لكنه بالكاد تحمّل. ربتت على ظهره بحنانٍ حييٍّ وناولته ملعقة شوربةً صغيرة وجد صعوبة بالغة في ابتلاعها فتأوه مُتألمًا من حلقه، لكنها حاولت معه مرة بعد أخرى تدريجيًا حتى تعوَّد على البلع، تناول سبع ملاعق، أمال بعدها جذعه إلى الخلف وأغمض عينيه ببطء. حاولت أن تعطيه قطعة لحم صغيرة لكنه أغلق فمه دون كلام إشارة منه أنه لا يستطيع أو لا يريد. لكنها على أية حال، انبسطت أساريرها؛ ليس فقط لأنه أكل أخيرًا، لكن أيضًا لأنه استفاق وقد تورَّد وجهه بعدما جرت الدماء في عروقه مرة أخرى، وصار الوجه الشاحب المتقع نضرا نسبيًا، وإن ظلت بنيته الجسمانية المهيبة كما هي.

مرَّ يومان آخران حتى بدأ يستفيق أكثر، ويتحدث كشخصٍ طبيعي، لم ير أمامه في كل مرة يصحو فيها سوى شادية، سألها نفس السؤال:

ـ أنا فين؟ وإنتي مين؟! وإيه اللي جابني هنا؟!

ـ إنت جرجس. لقيتك مرمي قدام ماسبيرو يوم ما عملتوا مظاهرات.

ـ مظاهرات إيه؟ ومين إحنا اللي عملناها؟!

ـ إنتوا، المسيحيين، مالك؟!

ـ مش فاكر حاجة.



ـ وبعدين طيب. مين اللي عمل فيّا كده وعمل كده ليه؟ وآخرة اللي أنا فيه ده إيه؟! قالها مُقتربًا من البكاء، فأجابته شادية وهي تربت على كتفه:

ـ آديك عايش معانا أهو وفي وسطنا. هو إنت مش مستريح هنا في الحارة؟

ـ أنا عمري ما دقت طعم الراحة هنا. كفاية الأسطى إبراهيم زفت، وإهانته ليا كل شوية. والقرف اللي باشوفه طول اليوم في غسيل العربيات وشغل الفاعل وغسيل السجاجيد والواد كلاعينو والسلالم.

ـ مممممم طب بص. أول حاجة هنروح كمان يومين تلاتة للدكتور المعرفة اللي قلت لك عليه، تاني حاجة هاشوف لك شغلانة تانية تشتغلها طالما ابن المبقعة ده بيرازي فيك. خليها على الله وطول مانا جنبك ماتقلقش من حاجة.

ـ ماشي. ماشي يا شادية.



اليوم التالي. في أحد كافيهات مدينة نصر

منذ أن جلسا من نصف ساعة والفتاة لم تكف عن البكاء والانتحاب بحرقة، وإن كانت قبل قليل لديها شك أنه قد يكون يمازحها أو يكذب عليها فقط ليقتنص منها ثلاثة آلاف جنيه، لكنه أثبت أنه لم يكذب وعرض عليها فيديو به كل ما حدث بينهما في شقته: هتقعدي تتنيلي كده كتير؟ اخلصي أنا ورايا مشوار مهم. فين الفلوس؟

ـ كده يا هيثم؟ أهون عليك تعمل فيا كده؟ أنا عملت كده معاك عشان باحبك مش عشان شر.. يبقى ده جزائي؟ قالتها وهي تنتحب، فأجابها مُنفعلا:

ـ يخرب بيت أهلك، هو إنتي شفتيني نزلته على النت؟ الفيديو هيفضل معايا ماحدش هيشوفه. طالما إنتي مش عاوزة حد يشوفه. كله متوقف عليكي.

ـ يانهار أسود. هي فيه بنت تبقى عاوزة حاجة زي دي تنزل على النت؟!

انفجرت دموعها أكثر، نظر حوله في ربكة وهو يلوى شفتيه امتعاضًا، رمق ساعته وصاح بها بصوتٍ منخفض:

ـ ممكن بقى تخلصي عشان رايح مشوار مهم، هاتي الفلوس انجزي.

مسحت دموعها ثم دسَّت يدها في حقيبتها، أخرجت حفنة نقود وأعطتها له بيدٍ مرتعشة:

ـ دول.. دول ألفين و ٥٠٠ جنيه، ماعرفتش أتصرف في فلوس تاني.

ـ نعم يا روح أمك؟! إحنا هنستعبط؟ عدَّ المبلغ فوجده بالفعل ألفين وخمسمائة جنيه، نظر لعينيها مليًا يتفحص وجهها، مَدَّ يده فجأة والتقط

حقيبة يدها التي بجانبها وفتح سوستة جانبية فأخرج خمسمائة جنيه، فاتسعت عيناها، التقط هاتفها ونزع البطارية ليخرج شريحة الهاتف، ألقاها لها قبل أن يضع الهاتف في جيبه، فصاحت:

ـماينفعش يا هيثم حرام عليك اللي بتعمله فيا ده. أبوس إيدك سيب الموبايل.

ـ بصي بقى، أنا كنت ناوي كمان يومين أطلب منك تلات تلاف تانيين. كده يا بنت الناس مش هاطلب منك حاجة تاني بجد.

نظرت له نظرة تشف عن عدم ثقتها في كلامه، فأردف:

ـ ثقي فيا بجد. مش هاطلب منك ولا مليم تاني، والفيديو هامسحه، أهو عشان تصدقي. مسح أمامها الفيديو، وابتسم لها ابتسامة لا تحمل أي معنى، فقالت له باستياء:

ـ وأضمن منين إنك ماتكونش بتكدب ومايكونش فيه نسخة منه عندك فى البيت أساسًا؟

نظر لها لثوانٍ وأطال النظر:

ـ بصي إنتي لازم تثقي فيا ماعندكيش اختيار تاني. أنا هامشي بقى عشان زي ما قلت لك ورايا مشوار مهم، (نهض ومد يده ليصافحها، فوقعت عيناه على خاتمها الذهبي). الخاتم ده ينفع تقولي لأهلك إنه وقع منك؟

خلعته لتضعه في جيب بنطلونها: حرام عليك يا هيثم والله لو قلت لهم كده هيبهدلوني، إزاي أساسًا يقع مني؟ مش هيصدقوني.

حدق في الفراغ قليلا، ثم بدا كالذي جاءته فكرة: خلاص قولي لهم إنك كنتي بتتوضي ونسيتيه على حوض الكلية.

ـ بس أنا ماباصليش وهما عارفين كده.

ـ عادي يعني. سهلة. صلي يومين تلاتة قدامهم، هيتعودوا عليكي وانتي بتصلي، وقولي لهم إنك نسيتيه على الحوض، لما يلاقوكي بتصلي هيغفرولك موضوع الخاتم. يلا بسرعة هاتي الخاتم ورايا مشوار ومستعجل يا بنتي.

نظرت له وقد بدا على وجهها التوسُّل. فكرر كلامه.

ـ يلا يا بنتي انجزي ورايا مشواااااار قلت.

ـ اتفضل. أبوس رجلك يا هيثم اوعى تأذيني.

ـ هاحاول. باي. ماتنسيش تدفعي الحساب، ماتحاسبيش على المية. الإزازة مقفولة ماتفتحتش.

أرسل لها قبلة على الهواء، انطلق بعدها كالممسوس، خرج إلى الشارع وأخرج هاتفه بعدما ركب سيارة أجرة مُهاتفًا سارة، سألها أين هي فأخبرته أنها في مكتبة «ألفا» بمصر الجديدة تشتري بعض الكتب، فطلب منها المكوث مكانها وأخبرها أنه سيصل خلال ربع ساعة، أخرج بعدها هاتفه ليبحث في «جوجل» عن أسماء كتب وروايات كي يحفظ منها ما يجعله حينما يقول أسماءهم أمامها تدرك وتتأكد أنه قارئ نهم!

بينما ظلت الفتاة صاحبة الفيديو مطرقة رأسها في خنوع تبكي حتى انهارت من البكاء قبل أن ترفع رأسها وتشرد رويدًا رويدًا. أخذت تستجمع ذاكرتها تدريجيًا، مُحاوِلة تذكر الأشياء المحفوظة في كارت الذاكرة الموضوع في هاتفها الذي أخذه هيثم منذ قليل! تداركت كل شيء بالكامل حتى اتسعت عيناها وأوشكت على الانفجار حين تذكرت أن كارت الذاكرة به صور لوالدتها بملابس البيت القصيرة، صور أخرى

«سيلفي» مع ابنة خالتها وأختها وصديقتها بالملابس الداخلية. عدة مكالمات قديمة مُسجَّلة مع شباب كانت تتحدث معهم متظاهرة أنها تحتاج لمبالغٍ مالية، مكالمات جنسية ساخنة مع أحد الشباب تحتوى على تأوهاتٍ وقُبلاتٍ حارّة.

كادت أن تغيب عن الوعي، وشعرت بغصةٍ في حلقِها وأن المكان يلفّ بها، لطمت وجهها فجأة وأخذت تتمتم بكلامٍ غير مفهوم، تطوع أحد الشباب فسألها عمَّا بها فصرخت في وجهه ونهضت مُهروِلة إلى الخارج وهي منهارة من البكاء، سألها النادل بخوف عن الحساب فأخرجت من جيبها مائة جنيه، ألقتها في وجهه ورحلت.

وصل هيثم إلى المكتبة في غضون عشر دقائق، فوجد سارة جالسة تحتسي قهوة وتقرأ رواية «عزازيل». سألها: إيه اللي بتقريه ده؟!

نظرت له باندهاشٍ وتعجب: إنت بتتكلم بجد؟! دى عزازيل! إوعى تقول لي ماتعرفهاش!

اندهش في قرارة نفسه من رد فعلها، تساءل في سره ما هذه الرواية صاحبة الاسم الغريب التي تظن أنه يجب أن يعرفها كل شخص على وجه الأرض! خرج من شروده بسرعة وأجابها بثقة:

ـ إيه دي اللى ماعرفهاش؟ هو فيه حد في الدنيا مايعرفش عزازيل؟ المكان أساسًا يجنن.

ـ مكان إيه؟

ـ مش عزازيل ده اسم مكان؟

ـ إنت بتهزر. مش كده؟ ماتعرفش عزازيل وهيبا والصراع بينهم؟ سألته كأنها تعلم أنه بالفعل يمزح وتعلم ذلك.

ـ آه طبعًا باهزر. أنا قريت عزازيل دي كتير جدًا. وأكتر حتة بتخليني أعيط لما عزازيل بيموت فى الآخر.

بدأت تتحدث بجدية: بيموت إزاي يعني؟!

ـ باقول لك إيه هنفضل نتكلم كتير عن الكتب والروايات؟ مش كفاية طول النهار والليل قاعد باقرأ؟ مستخسرة فيا أهزر شوية؟! قالها بأسى مصطنع بمهارة فأجابته:

ـ لا طبعا هزر. سوري افتكرتك بتتكلم بجد. قول لي بقى عندك كتب إيه؟

ـ كتيييير جدًا. مكتبة ضخمة يابنتي.

التمعت عيناه ببريقٍ ماكرٍ حينها ومضت للتوِّ في عقله فكرة وليدة اللحظة مستطردًا: فكرتيني صحيح أنا جبت لك الكتب اللي قلت لك عليها.

ـ بجد؟؟ أنا مش عارفة أقول لك إيه أنا سعيدة جدًا. قالتها مُتهلّلة فأردف بابتسامة حذرة ولعاب يسيل في حلقه:

ـ لو حابة تجيلي تشوفي مكتبتي وتاخدي منها اللي إنتي عاوزاه ماعنديش مانع، بالإضافة طبعًا للكتب اللي جبتهالك.



حارة السرجة. ١٧ مارس ٢٠١٢ الساعة ٠٦:١٨، المغرب

بعدما قضى أربع ساعات كاملة فوق أحد أسطح الحارة، يرتبه وينظمه وينظفه، مسح بعدها سلم خمسة أدوار، طمعًا في عشرة جنيهات من

صاحب البيت، جلس محتقن الوجه عابسًا في القهوة المُكتظَّة قبل أنّ يفرش فوق المائدة كيسًا فوقه علبة كشري صغيرة، وثلاثة أرغفة. ظل يأكل كأنه لم يرَ الطعام منذ سنين، لحقه خميس بدورق مياه مُثلّجة وهو ينظر له متعجبًا، لاحظ جرجس نظراته فسأله والأكل يتطاير من فمه:

ـ إيه يا بن الزانية على رأي إبراهيم زفت سارينة. بتبص لي كده ليه؟!

أجابه ضاحكًا ويضرب كفًا بكفٍ: عارف يا جرجس. أنا مابازعلش منك لما بتقول لي كده، لإني باحبك لله في لله. ومستعجب من دراعك اللي قد فخدي وكتفك ده اللي ممكن يشيل حمار حصاوي، وبتخاف من واحد زي إبراهيم سارينة أو ابنه، مستغرب إزاي بتكِش من أي حد يزعق لك أو ياكل حقك. إنت لو مسكت الواد كلاعينو أقسم لك بجلالة الله إنت ممكن تكله بسنانك.

أطرق رأسه حزنًا وقد توقَّف عن المضغ: طب وبعد أما أضربهم! افرض واحد فيهم مطلع مطوته ورشقها في بطني، أو طردوني. هاعمل إيه وهاروح فين وهابات عند مين؟ وأنا أساسًا ماعرفليش أهل ولا صحاب ولا يحزنون. ياجدع ده أنا كنت متشرح ولولاك إنت وشادية وأخوك جمعة كان زماني ميّت.

ـ بعد الشر عليك يا صاحبي، ماتقولش كده تاني. وماحدش يقدر يطردك، أمال أنا باعمل إيه. وربنا المعبود ما يحصل. اليوم اللي مش باصطبح فيه بوشك بيبقى يوم ما يعلم بيه إلا ربونا. وبالذات لما يبتدي بوش إبراهيم سارينة العكر اللي...

لم يكمل خميس جملته حتى فوجئ بكف سارينة ينزل على قفاه ليحدث رنينًا دوى في أنحاء القهوة. فانتفض هلعًا قبل أن يلتفت:

ـ المعلم الكبير قوي، الأسطى سارينة. حبيبي والله يا معلم.

أحكم قبضته على قفاه وجذبه نحوه ليصطدم وجه خميس بصدره:

ـ مين ده اللي وشه عكر يا بن الزانية؟ هو ربنا بيفتحها في وشك غير لما بتصطبح بوشي ياض؟

ـ يا سيد الأسطوات ماتاخدش على كلامي. فيه حد ياخد على كلام ابن سهير بتاعت الكنافة برضو؟

ـ الله يمسيها بالخير أمك. كانت لهطة قشطة بنت الكلب. آآآآآه أيام. امشي انجر ياض هات شاي وحجر معسل.

ـ فوريرة يا كبير.

انطلق مسرعًا فأحضر الشيشة الخاصة به، وضعها أمامه برفق، ثم أحضر حجرًا وضع فيه قليلا من المعسل وفوقه فحم عصافيري كما طلب منه من قبل. ثم عشّق الحجر في الشيشة وغطاها بـ «طربوش». سحب الأسطى نفسًا عميقًا، ما إن دخل خميس ليحضر له الشاي حتى رفع «الطربوش» ونادى عليه ليوبخه بأقذع الشتائم.

ـ أنا ياض كام مرة أقولك حط لي فحم كبير. يخرب بيت أبو اللي جابتك. ياض يابن الـ...

قاطعه خميس مشيرًا بيده. والله ما إنت مزعل نفسك يا كبيرنا. (رفع الحجر ونزع منه الفحم الصغير واستبدل به فحمتين كبيرتين ثم أعاده مرة أخرى) شد يا معلم.

سحب الأسطى نفسًا، وقال له وهو يزفره:

ـ روح اعمل الشاي. وماتنساش النعناع.

ـ طلقة يا سِيدِ الحتة.

وقف وراء «نصباية الشاي» ليأخذ بـ «كنكة» ماء مغليا ويضعه في كوب به سكر وشاي مسبقًا، وضع قليلا من الماء ثم رفع جلبابه وأدنى الكوب تحت عضوه دون أن يلاحظه أحد، غير أن جرجس الذي بالكاد يُغالِب ضحكه كان يرمقه مُراقِبًا ويعرف مُسبقًا أنه سيفعل ذلك. تبوَّل خميس في الكوب بضعة ملليمترات، ثم رفعه مرة أخرى على المنضدة، وأكمله بالماء المغلي، قَلَّبَه جيدًا واضعًا عودي نعناع أخضرين وقدمه للأسطى مع كوب ماء مُثلَّج في صينيةٍ نظيفةٍ لامعة.

ما إن وضعها أمامه حتى ارتشف منها رشفة، ناظرًا لأعلى منتشيًا.

ـ عليك كباية شاي ياض يا خميس. بنت حرام. افتح التليفزيون أما نشوف آخر أخبار المخروبة. فصاح المذيع:

قبل سبعة عشر يومًا، كانت قد أعلنت اللجنة القضائية العليا للانتخابات أن أول انتخابات رئاسية في مصر منذ تنحي الرئيس السابق محمد حسني مبارك في ٢٠١١، ستجرى في ٢٣ و٢٤ من شهر مايو ٢٠١٢، على أن تجرى جولة الإعادة يومي ١٦ و١٧ يونيو، وسيعلن اسم الرئيس يوم ٢١ يونيو.

واليوم، قد رحل عن مصر، واحد من أنبل رجالها، البابا شنودة.

قاطعه سارينة موجها كلامه لجرجس: صحيح ياض يا جرجس، البقاء لله

سأله مندهشًا: ـ البقاء لله في مين يا أسطى؟!

ـ في البابا شنودة الله يرحمه، أنا أسمع إنه كان رجل محترم قوي وبيحب بلده، ربنا يعوضكم عنه خير.

ـ مش فاهم حاجة. بابا شنودة مين؟!

سأله أحد الجالسين: صحيح يا جرجس إنت مش فاكر أي حاجة خالص؟ طب هتفضل لحد إمتى على كده يابني؟

أجابه والأكل ملء فمه: هاروح لدكتور مخ وأعصاب قريب.

سأله شخص آخر: إيه اللي وداك هناك أساسًا؟ كنتوا ناويين على إيه؟ مش كفاية خربتوا البلد؟

نظر له جرجس فاغرًا فاه دون أن يتفوه بكلمة، فأجاب بدلاً منه شاب متحمس من أهل الحارة، يبدو عليه التعليم والثقافة:

ـ مين دول اللي خربوا مصر؟ هما لو كانوا عاوزين يخربوا مصر فعلا كانوا طلبوا اللجوء لأمريكا باعتبارهم أقلية محتاجة لحماية، شوف كام كنيسة اتحرقت واتفجرت، ولسه هيتحرق أكتر ومابيتكلموش، شوف كام مسيحي انطرد من بيته في الأقصر عشان حبوا يبنوا كنيسة وعلى أرضهم. ويوم ما لقينا جرجس كان شباب ماسبيرو عاملين اعتصام ومظاهرات احتجاج. وكان فيهم مسلمين كتير من ضمنهم أنا. ولو قا كان معايا. إحنا شركا في الوطن ده، ولازم نحرّره من الفساد، ومن الجهلة اللي زيك.

انتفض الرجل ليتشابك مع الشاب، فهبَّ خميس ليحول بينهم مراضيًا كليهما حتى هدآ. فعاد الشاب يردف من جديد:

ـ خلصنا من مبارك جالنا المجلس العسكري والمتعصبين دينيًا.

تدخل رجل أربعيني سارح في حديثهم منذ البداية، يقرض ظافر بنصره بأسنانه في نهم حتى انتزعه وبصقه قبل أن يستطرد:

ـ حرام عليكم يا ولاد الكلب، كان ماله مبارك؟! خربتوا بيتنا مابقيناش لاقيين العيش الحاف ناكله. ثورة وزفت وهباب على دماغكم.

رد عليه الشاب: ماهو برضو حزب الكنبة ده اللي ودانا في داهية،

إنتوا أخطر من فلول الحزب الوطني، ومش بعيد اللي حصل في ماسبيرو ده كان بتدبير من سوزان، لإنها قبلها بيومين كانت في طرة.

ضرب الرجل كفًا بكف: طرة إيه وسوزان مين يا عيل يا مخرّأ؟! باقول لك مش لاقين العيش الحاف نااااااااكل! إنت إيه خنزير مابتفهمش؟ أنا لو عندي ابن زيك كنت طردت ميتين أمه.

ـ مش هارد عليك عشان إنت رجل كبير وبتخرف.

صاح فيهم الأسطى إبراهيم أن يكفوا عن النقاش بعد أن نفد صبره. حتى عمَّ الهدوء كل أرجاء القهوة بعد ثوان، ثم ألقى عليهم سؤالا:

ـ الانتخابات ع الأبواب. هترشحوا مين.

باستثناء جرجس الذي ما زال فاغرًا فاه لا يعلم ما الذي يتحدثون عنه، أجاب كل منهم إجابات مُتداخِلة مع بعضها البعض بصوت عالٍ، كل منهم منحاز للمرشح الذي يقول اسمه متحمس له:

ـ عبد المنعم أبو الفتـ.. مفيش غير النسر حمدين صباحـ.. ششششش مرسي هو اللي هيقعد ع الكر.. مرسي مين يابا أحق واحد هو أبو العز الحرير.. يا ريت يخرَّجوا جمال مبارك عليا الطلاق ياخدها باكتساح. الفترة الجاية محتاجة شفيق يا جدعان.

نظر لهم خميس متذمرًا قائلا في قرارة نفسه: شكلي كده هاعملها في كباياتكم كلكم يا ولاد الكلب. كل ده عشان واحد قال لواحد تاني البقاء لله في البابا شنودة؟!

انتزعه سارينة من تفكيره قائلا: اقفل التليفزيون ده ياض يا خميس.



بمجرد أن دخلت شقته نظرت في كل الأنحاء تبحث عن المكتبة، سألته أين هي فأجابها مُتلعثمًا:

ـ المكتبة في شقتي اللي فوق، أصل أنا عندي شقتين فوق بعض، الشقة اللي فوق عامل فيها مكتبة وركن صغير للكتابة والقراية.

ـ إنت بتكتب كمان؟ إنت عظيم يا هيثم.

وضع يده على خصرها وسألها مُبتسِمًا: يعني مبسوطة دلوقت وإنتي معايا؟ مش خايفة؟

ـ لا طبعًا يا حبيبي مش خايفة، ومقتنعة جدًا بوجودي معاك هنا لوحدنا. لإني عارفة إنك مش هتئذيني، ولإني واثقة فيك، وعارفة إني في نظرك دلوقت مش بنت قليلة الأدب.

ـ أنا لو بصيت لك على إنك قليلة الأدب أبقى مش رجل. وماعنديش نخوة. أي حاجة هتحصل بيني وبينك هتبقى بحب، هتحصل عشان بنحب بعض، وثقتك فيا دي عمري ما هاخونها يا حياتي.

شعرت سارة ببهجةٍ ملأت قلبها لم تشعر بها من قبل، ألقت نفسها في حضنه فشعرت أكثر بالأمان ـ أو هكذا بدا لها ـ طلبت منه أن يعدها ألا يتركها أبدًا. ففعل. ثم اصطحبها إلى غرفة نومه وأعطاها أربعة كتب فانتشت أساريرها وقبَّلته قُبلةً ساخنة، في الوقت الذي تسلَّلت فيه يده مُمسِكة بأطراف «البادي» الذي ترتديه ونزعه بِخِفّة ـ مُعتاد عليها ـ من جسدها دون أن تشعر، نزع بعدها قميصه، ظلت تقبله إلى أن انتبهت أنه يفكّ حمالة صدرها من الخلف بينما يحتضنها بعد أن خلعت «الجيبة» والحذاء، ابتسمت له وطلبت منه بخجل حييّ أن يُطفئ النور، لكنه رفض قائلا:

ـ حتى لو قفلت النور، نورك برضو هيفضل منور الأوضة، طب قولي لى إزاى أطفي النور، وماشوفش الوش الجميل ده؟ والجسم الفظيع ده؟ معقولة؟! فيه كده في الدنيا؟ مافيكيش غلطة؟!

نزل كلامه ومدحه بردًا وسلامًا إلى قلبها، وأشاع أمواج الطمأنينة لتسري في دواخلها، لم تجد حرفًا ترد به عليه. استلقت على السرير تحت مُخدِّر نظراته، وكلامه.



كعادة أيّ نقاش سياسي بين أطرافٍ مختلفة ميولهم، انتهى نقاشهم إلى احتدام وسبابٍ تقادح بينهم كالشرر، علاوة على الاتهامات! هذا ينعت ذاك أنه عميل، وهذا يصفه بأنه ماسوني، وهذا تآمري، وهذا كافر ويتبنى فكر صهيوصليبي وأنجلوتوراتي! أما طرفا الحديث من البداية، الأسطى إبراهيم سارينة سبَّهُم جميعًا ورحل ليجري بعض التصليحات في الميكروباص. وجرجس الذي خرج من القهوة هربًا من نقاشات لا يعلم عنها أيّ شيء. وَقع صوت مسدس تثبيت المسامير ـ الذي يستخدمه رجب المنجد بجواره مُصدِرًا إيقاعًا مُنتظِما ـ على أذنيه جعله يشعر بألمٍ شديد كاد أن يشق رأسه لنصفين، استحضر صفيحة قديمة بها قطع من الخشب، أشعلهم ليستدفئ بهم، جلس على الرصيف أمام المنزل الذي تسكن فيه مريم، التي خرجت من باب المنزل وجدته جالسًا. فتاة ثلاثينية ذات شعر أحمر صارخ مُموَّج، ترتدي فستانا لا لون مُحدّدا له، غير أنه لا يخفي سحر قدها السمهريّ الممشوق وهي تتمايل

فتخطف قلب وغرائز كل من يسترق النظر إليه. تقيم علاقة مع لوقا؛ جارها الذي يحبها لكنه لا يملك ما يجعله يأكل ثلاث وجبات باليوم، لذلك لا يستطيع أن يتزوجها، حاولت عدة مرات أن تقنع والدتها ووالدها أن يتزوجا في منزلها ويعيش معهم فرفضوا، اقترحت عليهم أن تتزوج في بيته مع أمه وأبيه فرفضوا أيضًا!

فقررا أن يقيما علاقة سرية، تنظر لأعلى فتجده قد أدلى بحبله المنتهي طرفه بحذاءٍ صغيرٍ مربوطٌ فيه، فتعلم أن لا أحد عنده. فتصعد له بهدوء!

ـ مالك يا جرجس؟ قاعد شايل طاجن ستك ليه يا أخويا؟

ـ زهقت من الحارة ومن اللي فيها ومن حالي اللي لا يسر عدو ولا حبيب يا مريم، ولا عارف أنا مين ولا أهلي فين. زهقت. زهقت حتى من الشكوى!

ـ كده يا جرجس؟ تزهق مننا؟ قالتها مداعبة بضيقٍ مُصطنع فأجابها متلهفًا.

ـ لا طبعًا يا ست الكل. أهلها على عيني وراسي. بس يعني عاجبك حالي وأنا باصحى كل يوم الصبح يطلع ميتيني طول اليوم عشان في الآخر مالاقيش تمن العيش الحاف؟!

ـ ممممممم طب بص. اللي يحل لك مشكلتك دي؟

ـ يا ريت. بس فين وإزاي؟! سألها مطرقًا.

ـ أنا ممكن أشغلّك في وكالة البلح جنبينا. بس هتتبهدل. (شردت لثوانٍ ثم صاحت) أو ممكن موظف أمن، جسمك بسم الصليب عليه يجنن. تنفع تشتغل في النايل سيتي بتاع ساويرس. رجل محترم بيعطف على كل الفقرا فى الكنايس.

ـ ودّيني أشتغل هناك حتى لو بواب ماعنديش مشكلة.
ـ مممممممم.. بس إنت عندك مشكلة إنك معاكش حتى بطاقة.
أطرق رأسه في أسى فأردفت: بص أنا ممكن أشغلك في مطعم سوليتير في المهندسين، صاحب المطعم أنا ليا دلال عليه ومش هيقول لي لأ. إنشالله تقف في المطبخ، وهاخليه يديلك فى الشهر ٩٠٠ جنيه. ويمكن أكتر. إنت وشطارتك.
ـ ماشي برضو يا ريت. أهم حاجة أبعد عن المخروبة دي أنا خلاص هاموت من الـ...
لم يكمل جملته حتى وجد سيارة هوندا سيفيك حمراء اللون وقفت عند ناصية الحارة، ركض أناس كثيرون نحوها، حتى الذين كانوا يتلاسنون بالمقهى، انشغلوا بالسيارة وبمن داخلها، سأل مريم باندهاش عن هذه السيارة ومن بداخلها فأجابته:
ـ دي مدام مرام سعد الدين، ربنا يكرمها، بتجيلنا هنا كل شهر توزع لعب للأطفال، دواء للعيانين، لبس وفلوس وحاجات كتير. فيه أربعة من حارتنا باعوا من سنتين أعضاءهم لمستشفى جوزها ونصب عليهم، عوّضتهم بآلافات. ومن ساعتها وهي مابتقطعش زيارتها لينا. الرب راعي ومابينساش عبيده يا جرجس. فُكَّها وانسى همومك وهتتحل ببركة البتول العذراء.



عذراء أم ليست عذراء، فهذا الأمر لا يعنيه البتة من الأساس. بعدما انتهى منها، جلس قبالتها وما زال عاريًا. واضعًا «اللاب توب» على فخذه وأخذ يتصفح رسائله على الفيس بوك فلفت انتباهه رسالة من فتاة أخبرته أنها ستشاركه الإعلان القادم. تصفّح صورها بينما نهضت سارة ممسكة بفوطة تمسح بها منيه الذي على جسدها. مَدّت ذراعها له بالفوطة وطلبت منه أن يمسح لها ظهرها لكنه لم يكترث بها مُنشَغِلا بصور الفتاة، سارحًا في تقاسيم جسدها وانحناءاته ولون بشرتها فأرسل إليها رسالة يرد عليها ويعبر لها عن سعادته بمقابلتها يوم التصوير. أشاحت سارة له بالفوطة مرة أخرى فتحدث إليها بضيق: إيييه يا سارة؟؟؟ إنتي لسه هتمسحي؟ ادخلي الحمام خدي دش واخلصي!

نهضت بدلال وهي تسأله عمّا يفعل فلم يجبها. جلست على فخذيه بين صدره و«اللاب توب». مشت بأناملها على شعره فأشاح بوجهه بعيدًا ناظرًا يمينه باحتداد إلى لا شيء، طالبًا منها أن تدعه الآن وتذهب إلى الحمام لأنه مشغول، ابتعدت عنه وجلست مرة أخرى على السرير، صمتت لثوان قبل أن تسأله: حبيبي مش هتوريني مكتبتك اللي في الشقة اللي فوق؟

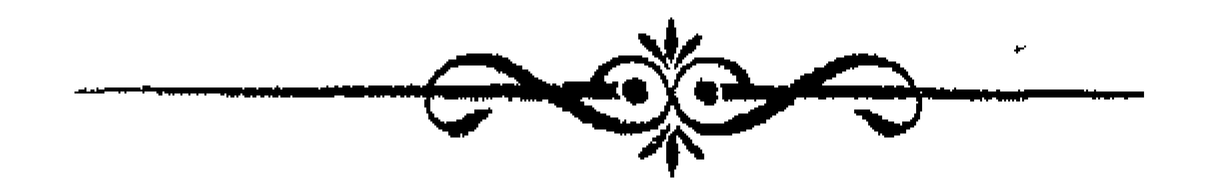
لم يكترث لسؤالها، موليًا انتباهه للفتاة التي ردت على رسالته. كررت سارة عليه نفس السؤال مرتين حتى انصرف انتباهه وقال لها مزمجرًا:

ـ فيه إيه يا سارة مالك! إنتي ليه رغاية؟ إيه الإلحاح ده؟!

قالت له بوجهٍ عبوس: رغاية؟؟ إلحاح؟؟؟ مالك يا هيثم؟!

ـ هيكون مالي يا حبيبتي،عاوزة تشوفي المكتبة؟ حا.. حاضر، ماهو أكيد هاوريهالك في مرة، بس مش النهارده. ممكن تدخلي الحمام بقى تاخدي دش وتلبسي عشان شوية ونازلين؟

قالها متأففًا قبل أن ينهمك مرة أخرى مع الفتاة التي يراسلها. نهضت، حدجته بنظرة شك وارتياب تقاوم بإلحاح ألا يتسلل لباطن نفسها، ارتياب من حقيقة قد تكون متوارية وراء ستارٍ زائف. دلفت إلى الحمام ووقفت تحت الدش محاولة إقناع نفسها أنه ليس كذلك، وانفعاله هذا ليس له مبرر سوى انشغاله فقط. خرجت من الحمام وهو يغلق حاسوبه ويلتقط ملابسه، انحنت هي الأخرى لتلتقط في تؤدة ملابسها المُبعثرة على الأرض، ولا تزال تحاول إقناع نفسها بأشياءٍ كثيرة عكس التي تفكر فيها، حتى انتهيا من ارتداء ملابسهما ونزلا الشارع، أوقف سيارة أجرة لها قبل أن يطلب منها أن تتصل به في تمام الساعة العاشرة، لإخبارها بشيء مهم.



بعد ثلاثة أيام. مطعم سوليتير.

ذهبت مريم إلى هناك مُصطحِبة جرجس، بعدما وعدته أنها ستوفر له عملا في هذا المطعم، الذي يديره ملاك متياس ابن الطبيب الذي تعمل معه. توسلت إليه وألحت عليه كثيرًا وتوسطت له عند أبيه حتى وافق على مضض. شعر جرجس بالارتياح على أية حال لأنه لن يحتك بالأسطى سارينة بعد اليوم، تفحَّص المكان من الخارج فشعر بألمٍ في رأسه حينما ومضت صورة في عقله وانطفأت في أقل من جزء من الثانية، شرد لثانيتين قبل أن تنتزعه مريم من شروده:

ـ عاوزاك لما تقابل أ. ملاك تسلم عليه بس. ماتتكلمش أي كلمة لو سألك، أنا اللي هارد. ماشي؟

أومأ لها بالإيجاب فدخلا قاصدين مكتب مارك الذي تفرس هيئته قبل أن يسأله:

ـ إنت منين يا جرجس؟ واشتغلت إيه قبل كده؟

همَّ بالتحدث، فقاطعته مريم وهي تلكزه وتجيب بدلا منه بلسانٍ واثق:

ـ جرجس أصلا من إدفو، طردوا أمه وقتلوا أبوه في حادثة كنيسة المريناب الأخيرة، قعدوا في القاهرة شهرين لحد ما أمه ماتت يا ولداه بعدها جات له صدمة عصبية ومخه اتمسح واتلحس، الكنيسة قعدت فترة تحسن عليه لكن هو عاوز يشتغل. وطبعا مافيش غير حضرتك أقصده في الخدمة دي.

حدجها مارك ثم علَّق نظره عليه من تحت نظارته وسأله هل يعرف منطقة المهندسين جيدًا، تمتم جرجس على استحياء فتدخلت مريم مرة أخرى وأخبرته أنه ذكي ولَمَّاح و«لهلوبة»، يستطيع التعلُّم بسرعة ويحفظ الأماكن في غضون يومين على أكثر تقدير. هزَّ مارك رأسه موافقًا قبل أن يأخذه إلى المطبخ وسلَّمه إلى رئيس الطُّهاة الذي كان مُتعِضًا ومُتأفِفًا من قدوم جرجس الذي سيعمل بدلا من ابن أخيه المطرود منذ يومين، طلب من مارك أن يتريَّث قليلا ويعطي لابن أخيه فرصة أخرى لكن مارك رمقه بنظرة حادة وأمره بخشونة أن يستلم جرجس ويُعَلِّمه كل شيء للعمل معهم.

عاد بعد ذلك إلى مريم مُحذِرًا إياها:

ـ للمرة الأخيرة. اوعي الواد ده يكون وراه مشاكل يا مريم. أنا هاشغله هنا بس عشان خاطر بابا، وعشان خاطر خدمتك له طول السنين اللي فاتت.

ـ والمسيح الحي الواد مِنكِسِر وغلبان يا أ. مارك. باقول لك لهلوبة. بس حظه قليل و...

ـ خلاص خلاص. هنشوف كلامك صح ولا غلط الأيام اللي جاية.

شكرته بحرارة ورحلت، فاصطدم كتفها عند الباب بكتف غادة المتأبطة أمجد بانتشاء.



كانت الشّقة مُعتمة تمامًا، إلا من ضوءٍ منبعثٍ من إحدى الغرف، ليرسم على الأرض بقعة خافتة غير مُنتظِمة، من ضوءِ شمعة مُضاءة بالداخل، تتراقص شعلتها بتكاسُلٍ أمام سارة؛ المتزعزعة أحشاؤها بعد انطفاء بريق عينيها المُمتلِئة بالطموح، التطلُّع والذكاء. سارة التي كانت يومًا ما ذات وجه ضحوك. مُنطلقة، مُقبِلة على الدنيا، شارِعة ذراعيها لها. سارة التي طالما تثقفت وقرأت أُمَّهات الكتب والروايات وحضرت ندوات ثقافية عديدة، وصالونات أدبية شتى، سقطت هكذا بسهولة! لا تدري كيف؟ هل لأنها وثقت في شخصٍ ليس جديرا بالثقة؟ ربما! هل لأنها تساهلت وتساهلت بدون تفكير وتردد حتى أصبحت سهلة المنال؟ ربما! هل لأنها خضعت لإعمال قلبها من دون عقلها؟ ربما!

أسئلة كثيرة كانت تجوس في عقلها لم تجد لها إجابة، الشيء الوحيد

المؤكَّد أمامها الآن هو الواقع الذي هي فيه. مُنزوية داخل غرفتها، مُحتمية بجدران عزلتها، مُنهارة من البكاء المتواصل لليوم الثالث. منذ أن هاتفت هيثم كما اتفقت معه في الليل، وردَّ عليها بكبرٍ واضحٍ وجليّ. استغربته في البداية، لكنها سرعان ما تأكد لها جديته، حينما أخبرها أن كل ما حدث بينهما مُسجَّل صوتًا وصورة، تأكدت أكثر حينما أرسل إليها مقطعا من الفيديو وهو يخلع ملابسها في غرفته. شعر حينها من سكوتها بغتة بما تشعر هي به، وبكل ردود الأفعال التي تصدر منها. أعطاها وقتها في امتصاص الصدمة بينما ظلَّ يضحك ملء شدقيه كعادته، كان هذا قبل أن يطلب منها مُهدِّدًا، خمسة آلاف جنيه وخاتمها الذهبي واللاب توب.

شعرت بالغرفة تدور بها وسقطت على الأرض بعد المكالمة مغشيًا عليها لمدة طويلة إلى أن مرَّت والدتها بجوار غرفتها وانتبهت لها، لتجد وجهها مُمتقعًا شاحبًا، قرَّبت فوّهة زجاجة عطر من أنفها استدعاءً لأي رد فعل، حتى استفاقت فسألتها عمَّا بها، فأخبرتها ـ كذبًا ـ أنها خائفة من الامتحانات، فطمأنتها والدتها وربتت على كتفها وغادرت لتتركها وحدها.

ظلت هكذا يومين كاملين انتبذت فيهما إحدى زوايا غرفتها، بالكاد تأكل، تفكر فيما ستفعله حيال هيثم، هل ستعطيه ما طلب؟ طيب. من أين ستدبر له خمسة آلاف جنيه؟ وماذا لو سألها أهلها عن اللاب توب والخاتم الذهبي؟

وهل سيحذف الفيديو بعد ذلك؟ أم سيبتزُّها به مرة أخرى؟ نفس السؤال الذي يتبادر إلى ذهن كل ضحاياه.

فكرت أن تُبلِّغ عنه الشرطة، لكن، ماذا ستقول في البلاغ؟ وهل سيدينونها أم لا؟ وهل سيهتمون بها من الأساس؟ جلست تفكر كثيرًا وهي تبكي فيهتزّ كتفاها مُحاوِلة كتمان نشيجها كي لا يسمعها والداها. حتى قررت أن تعطيه اللاب توب والخاتم وكل النقود التي بحوزتها وهم نحو ثلاثة آلاف جنيه ثمن «كورس» الإيطالي. لا تدري كيف ستدبر باقي المبلغ، اتصلت به تستميحه أن يُخفّض المبلغ إلى ثلاثة آلاف. فأجابها بفظاظةٍ وقسوة بكلمة واحدة: لأ.

ـ أبوس رجلك يا هيثم أنا والله ماعييش غير...

ـ أنا قلت لأ يعني لأ. وكلمة تاني هاخليهم ست آلاف.

ـ حرام عليك يا هيثم والله الـ...

ـ طب ستّلاف يا سارة. وكلمة تانية هاخليهم سبع تلاف. جربي تتكلمى كده.

بكت بحرقة أكثر، فأردف: آآآآيوه كده. الفلوس بعد بكرة تكون عندي، مع اللاب والخاتم، في الكافيه اللي جنب الـ... هأ هأ. المكتبة يا.. مُثقّفة.



ـ خد هنا يا أخ. تعالى هنا إنت اسمك إيه؟

لم ينتبه جرجس لسؤال مساعد رئيس الطهاة في المطعم، معلقًا نظره على جوال ملقى على الأرض ممتلئ بلحومٍ تبدو من رائحتها الكريهة

المنتشرة في المكان أنها فاسدة، تتهافت عليها الحشرات الطائرة والزاحفة. وقدر كبير مليء بالطماطم والخيار مستقر تحت صنبور يسقط من فُوَّهته خيط رفيع من الماء، وحول هذا القدر حبات طماطم وخيار ملقاة على الأرض المُتَّسِخة. حتى جاء أحد الصبية فأغلق الصنبور وأمال القدر ليصفي منه الماء قبل أن يرفعه ويناوله لصبي آخر يُقَطِّعهم إلى شرائح صغيرة، لمح الصبي حبات الطماطم الملقاة على الأرض فأخذها كما هي ووضعها فوق القدر الممتلئ.

ـ إنت يابني هو أنا باندَه لأمي؟!

انتبه جرجس لصوته أخيرًا فالتفت له، استطرد المساعد:

ـ مالك تايه كده ليه وعمال تبص يمين وشمال كإنك في مغارة علي بابا!

ـ لامؤاخذة.. أصـ.. أصلي أول مرة أشتغل في مطعم فِخِم قوي كده. بس مستغرب من ريحة اللحمة دي ومن الوساخة هنا. ماعلش يعني من غير مؤاخذة. عربية الكبدة اللي في الشارع أنضف من هنا.

تدخّل رئيس الطهاة متأففًا:

ـ هو الأخ جاي من وزارة الصحة يفتش علينا؟ اخرج برا يا حبيبي شوف الناس اللي قاعدين في الصالة مبسوطين من الأكل إزاي. إنت هتتعب قلبي من أولها ولا إيه؟!

ـ لالالا ولا أتعب قلبك ولا يحزنون. أنا جاي آكل عيش و..

قاطعه المساعد بصوت عال أمام كل العاملين الواقفين ينظرون:

ـ يبقى تاكل عيش وانت ساكت، وماتتدخلش في اللي مالكش فيه. سامع ولا لأ؟؟؟ خد الورقة دي وروح هات لنا الطلبات اللي فيها.

أخذ الورقة وذهب ليسأل عن العنوان ليحضر الطلبات المكتوبة، كان هذا بعد دقائق من مغادرة غادة وأمجد.



مرَّ يوم كامل ولم تستطع أن تجمع باقي المبلغ المطلوب منها لهيثم، لا تدري من أين تحصل على ثلاثة آلاف جنيه، أضاءت في عقلها فكرة، وهي أن تتسلَّل ليلا فتسرق خاتم والدتها الذي تتركه دومًا على التسريحة، فهو يساوي ألف جنيه تقريبًا، وما زالت تريد ألفين جنيه، جاءتها فكرة ندت لها جبينها وانهارت بعدها في البكاء وهي تنظر لمكتبتها الممتلئة بأمهات الكتب الأجنبية، المترجمة والنادرة. أقل كتاب ثمنه مائة جنيه. وضعت عشرين كتابًا في حقيبتها وذهبت بهم إلى إحدى مكتبات وسط البلد، والذي تعرف صاحبها جيدًا، عرضت عليه الكتب وأخبرته أنها تمر بضائقة مالية، فلمعت عيناه حينما تفحَّص الكتب وعرض عليها شراءهم بألف وخمسمائة جنيه مُستغِلا ضائقتها، ترجته أن يشتريهم بألفين لكنه رفض وأخبرها أنها لن تجد ما يدفع لها أكثر منه. وافقت مضطرة. بقلبٍ يعتصر ألمًا على كتب طالما كانت تبعث الدفء فيها وفي مكتبتها. فلا أحد يعرف قيمتهم سوى قارئ نهم يعشق اقتناء الكتب ويتطلع لقراءة المزيد.

خلعت سلسلتها التي أهداها إياها والدها في عيد ميلادها، وباعته مع خاتم والدتها مقابل ألف وخمسمائة جنيه، ثم عادت أدراجها يعتصرها

فؤادها على سرقتها لخاتم والدتها وتفريطها في هدية والدها، والأنكى من ذلك، تفريطها في كتبها.



طلبات: ١٠٠ كيس مناديل سفرة ـ ٢٥ رول مناديل تواليت ـ ٧ أكياس شفاطات ـ ٥٠ دستة معالق شفافة ـ ٢٠٠ باكتة سكر عادي ـ ١٥٠ باكتة سكر دايت ـ ٣٠ دستة شوك بيضاء

٤٣ شارع محيي الدين أبو العز ـ معرض الشيف لخدمات الفنادق والمطاعم.

أخذ جرجس الورقة المكتوبة بخطٍ ركيك من مساعد رئيس الطهاة، وذهب ليشتري ما بها بعد أن سأل عامل دليفري لأحد المطاعم عن العنوان، فوصفه له بالضبط، في طريقه وجد قدميه وقفتا فجأة أمام عمارة على ناصية الشارع، تسمَّر مكانه، نظر لها بعينين ضيقتين، أحس أنه ـ ربما ـ رآها من قبل، شعر بألمٍ حاد في مؤخرة رأسه حينما نظرَ لأعلى، ظل هكذا لثوانٍ قبل أن ينتفض هلعًا من صوت حارس العقار:

ـ واجف كده ليه يا جدع إنت؟

ـ مـ.. مـ.. مفيش حاجة. باقول لك إيه يا أخينا. هو مين اللي ساكن في العمارة دي؟ أقـ.. أقصد يعني أسامي المسيحيين اللي ساكنين هنا.

ـ ولا مسيحيين ولا مسلمين، وامشي انجر من هنا بدال ما أجيب لك الحكومة.

ـ ياعم اهدا إنت عصبي ليه؟ طب تعرف واحد اسمه جرجس؟ شفتني قبل كده؟

حاول أن يطيل كلامه ليركز الحارس في ملامح وجهه أكثر، ربما يكون هذا منزله، لعله يتعرف عليه، لكن بلا جدوى، أجابه حارس العقار بحدة وخشونة بعد أن أحكم قبضته برسغه بيد، ومسك هاتفه باليد الأخرى:

ـ آه طبعًا، إلا أعرفك. إنت شكلك حرامي وهاتصل بالحكومة تعرَّفك إنت مين يابن الشياطين.

حاول جرجس أن يتخلص من قبضته، وبالكاد فكَّها فقبض الحارس قبضته الأخرى عليه حالفًا بأيمانات الله وبطلاق «أم العيال» بالتلاتة أنه لن يتركه، شعر جرجس أنه أدخل نفسه في شجارٍ هو في غنى عنه، لكمه بقبضته لكمة سال على إثرها خيط من أنف البواب، قبل أن يختفي جرجس من أمامه، بل تبخَّر.



في نهاية يوم شاق في مستشفى قصر العيني، أعطاها أحد أطباء المخ والأعصاب موعدا لإحضار جرجس للكشف عليه مجانًا بعيادته، ذهبت بعدها إلى الحارة وسألت خميس على جرجس فأخبرها أنه رآه مع مريم في الصباح، اتصلت بمريم فوجدتها في شقتها.

ـ طب افتحي أنا طالعالك على السلم أهه. فتحت مريم لها الباب وعادت إلى الكنبة تكمل طلاء أظافر قدميها. سألتها:

ـ وديته مطعم يشتغل فيه. عاوزة إيه من الرجل يا شادية؟ غرضك منه إيه؟
ـ يا بت أنا حجزت له عند دكتور كويس. معرفة. يمكن يحاول يعالجه وذاكرته ترجع له. حلو لون شعرك ده عاملاه فين وبكام؟
ـ قطيعة ده بوَّظه المنيِّل. قلت له اعمله عسل وطحينة راح عملهولي اللون ده. هاااه وبعدين؟ وبعد ما الذاكرة ترجع له يا محرونة؟ مش يمكن يكون متجوز ونأبك يطلع على شونة؟
ـ وهو حتى لو متجوز. هاتجوزه إزاي ده مسيحي! تكونيش إنتي اللي حاطة عينك عليه؟
ـ والمسيح أبدًا. إنتي هتعملي زي أمي؟ أول ما شافته دخل قلبها وقالت لي وقعيه فيكي ده شكله طيب وابن كنيسة.
ـ طب طالما عينك مش عليه اديني عنوان المطعم اللي شغال فيه يا هايجة يا بتاعة لوقا.



«ستريت هير. كِريم جيل لشعر كله حيوية. ليك وليها وليا.»
ـ cut. والنبي يا عم هيثم حاول تخلصنا من أم ده إعلان بقى ولا نشوف حد غيرك؟ مش معقول كده هنقعد نعيد في أم الجملة عشرين مرة. الشمس هتروح مننا. غير إننا مأجرين الشاطئ ده ساعة بالشيء الفلاني! إنت عارف شط في العين السخنة بكام في الساعة؟
ـ لامؤخذة يا أ. علي. آخر مرة وأوعدك هاقولها زي ما إنت عايز.

أدى الجملة، وبالرغم من أنها ليست كما ينبغي لكن المخرج اضطر أن يُمرِّرها ويعالجها فيما بعد في المونتاج. جلس هيثم بعدها على الشاطئ مُضطجِعًا علي كرسي يعبث في هاتفه على أي فتاة يُعَكِّر عليها صفو حياتها أو يطلب منها أن تأتي لمنزله أو يبتزها في مبلغ آخر، حتى فوجئ بسارة تتصل به فتذكر أنه على موعد معها اليوم لتعطيه ما طلبه منها، أجابها:

ـ أيوه يا سارة. حضرتي الحاجة طبعًا.

ـ أيوه حضرتها و..

أنزل الهاتف من أذنه وجحظت عيناه حينما رأى فتاة تقبل عليه مرتدية «مايوه» من قطعتين، من الوهلة الاولى تذكرها. وما زالت سارة تتحدث إليه، نهض مُصافحًا الفتاة بعد أن أغلق المكالمة بلا مبالاة:

ـ مش إنتي اللي كلمتيني من يومين تلاتة على الفيس؟

ـ آه أنا. ومبسوطة قوووووي إني شفتك النهارده.

ـ ماعلش ماخدتش بالي منك وإحنا بنصور، أو ممكن تقولي عليا كنت أعمى ساعتها.

انطلقت منها ضحكة بغنجٍ أذاب أعصابه وهو يلتهم نهديها بعينيه، ظل يتحدث إليها حتى انتهى فريق التصوير من وضع المعدات بالسيارات، أعطاها رقم هاتفه واتفق معها أن يتقابلا في القاهرة، فوافقت على الفور واستأذنته أن تذهب لتبدل ملابسها، ظل ينظر إليها ماسحًا جسدها بعينيه بداية من شعرها مرورًا بكتفيها فخصرها وفخذيها. اشتعل حين وصل بنظره إلى كعب قدميها الذي تداعبه رمال الشاطئ ملتصقة به وهي تسير متهادية.

انتزعه من شروده رنين هاتفه فوجد المتصل سارة التي تحدثت إليه بضيق لأنه أغلق المكالمة دون أن يستأذنها، فاعتذر لها متحججًا أن الهاتف أغلق المكالمة من تلقاء نفسه! أخبرته بنبرة مختنقة أنها أحضرت كل طلباته، وستنتظره أمام المكتبة لتعطيهم له. تسلَّل الشك إلى قلبه، وطلب منها أن يكون اللقاء في شقته، خشية أن تكون نصبت له فخًا للإيقاع به، وأيضًا ليمارس معها الجنس. رفضت في البداية لكنه أمرها بنبرة صارمة، فوافقت مُضطرة، مُجبرة.



ما إن خرج جرجس من المطعم حتى تنفَّس الصُّعَدَاء وأحسَّ أنه كان يعمل خادمًا في الجحيم لعقود، فوجئ بشادية تنتظره بالخارج فتهلَّل وجهه:

ـ عرفتي منين عنواني هنا يا شادية؟

ـ شادية غنيم لو عاوزة تعرف أي حاجة بتعرفها يا سبع الرجال. يلا عشان مافيش وقت. ميعادنا عند الدكتور بعد ساعة إلا ربع.

أوقفت تاكسي، جلس جرجس بجوار السائق فتأففت شادية لذلك وجلست في الخلف، سألهم السائق وهو يرمُق وجه شادية في المرآه أين سيذهبان فأجابته: الحُسين والنبي ياسطا.

استدار السائق بظهره ومدَّ ذراعه كليًا للباب الخلفي المجاور لشادية، خاطفًا نظرة لصدرها وحكَّ ساعده بفخذها وهو يفتح الباب ويغلقه

مرة أخرى بقوة. رغم أنه محكم الغلق! ثم اعتدل في جلسته قائلا:
ـ أوامرك يا ست الكل. شيللاه يا آل البيت.



حاول بعض الصحفيين مقابلة أسرة سليمان الكحكي لأخذ أي تصريحات أو معلومات عن فقد ابنهم، وهل هم متأكدون أنه قُتِل أم مفقود فقط، لكن محمود رفض أن يُدلي بأي تصريحات، حيث كان منهمكًا في رعاية أمه التي ألقى المرض بغطائه فوقها واتخذ من جسدها فِراشًا؛ أصيبت بجلطة في المخ مؤخرًا حزنًا على خالد، ترتب على هذه الجلطة عدم قدرتها على الكلام وشلل نصفها الأيمن، أصبحت منذ ذلك الحين طريحة الفراش. أما والده فكان يقضي جُلَّ وقته بين قراءة القرآن بجوار زوجته، أو يشاهد في حزن برامج «التوك شو» التي تتناول على مدار الساعة آخر الأحداث السياسية، وحينها ينفرد بنفسه يظل يبكي بحرقة إلى أن يسافر في سُباتٍ عميق.

قلما تزورهم غادة وأولادها، بل شبه انقطعت عنهم. لا تريد أن تراهم كي لا تتذكر خالد والأيام الحالكة التي كانت تحياها معه، تقضي وقتها بالنهار نائمة إلى الظهر ثم تذهب إلى النادي حيث جلسات النميمة مع صديقاتها، أو تصطحب ابنها إلى جلسة غسيل الكلى في الأيام المُقرّرة لذلك. أما المساء فكانت تقضيه مع أمجد وأحيانًا تقضي معه الليل كله وتعود أدراجها إلى المنزل بعد الفجر؛ الأمر الذي جعل داليا تمتعض أكثر

من تصرفاتها، خاصة بعدما رأتها ذات مرة تنزل من سيارته أمام المنزل. حاولت عدة مرَّات أن تفاتحها في هذا الموضوع كصديقة، وتسألها إن كانت ستتزوج برجل آخر، أو متزوجة بالفعل ولم تخبرهم؟ فتُؤكد لها أنها ليست متزوجة ولن تتزوج قط، وستقضي باقي عمرها في رعايتهم. لكن داليا لم تر أي تصرف يدل على ذلك. مما انعكس على تصرفاتها هي الأخرى خارج المنزل، فأقامت عدة علاقات مع شباب وغالبًا ما تفشل قبل مرور أسبوعين. اليوم، بعدما خرجت من الجامعة، واعدت زميلا لها وذهبت معه إلى منزله لكنها أصاخت عن الأمر وتراجعت في اللحظة الأخيرة حينما وطئت قدماها آخر درجة سلم أمام باب الشقة، لتعود أدراجها وتدخل حجرتها، تنعزل بوحدتها عن الكون كعادتها. تفكر باكية في فقدان أبيها، وتتمنى في قرارة نفسها أن تراه مرة أخرى، ولو أخيرة.

ترتمي في حضنه وتعتذر له عن أي شيء بَدَرَ منها وأغضبه، منذ أن رأت الصورة الغارق فيها بدمائه، ظلت عالقة في ذاكرتها لم يمحها أي شيء، لكن قلبها يحدثها أنه ما زال حيًا وسيعود قريبًا لا محالة. فالأصعب من الحزن على فقدان شخص عزيز، هو التمني بأمنياتٍ واهية على أمل عودته مرة أخرى، ولا يعود في النهاية. انتزعها من شرودها صوت مفاتيح والدتها التي وصلت للتوِّ، مرَّت بجوار غرفتها ورأتها وهي تبكي لكنها لم تلق لها بالاً ودلفت إلى غرفة النوم. تفحَّصتها داليا بعينيها قبل أن تتبعها إلى الغرفة فوجدتها تخلع ملابسها في عجالة وتلتقط بشكيرًا لتأخذ حمامًا، سألتها وهي مُمسِكة بملابسها التي خلعتها للتو:

ـ هو إنتي كنتي باللبس ده النهارده وإنتي نازلة؟

شردت غادة لثوانٍ باحثة عن إجابة سريعة، فأجابتها بضيق وعينين مرخيتين:

ـ لأ. كنت لابسة جينز أزرق وبادي أحمر، بس لقيت الطقم ده في محل في المهندسين لما سيبتكم. أسعاره رهيبة. فقلت أجيبه.

ـ طب فين البنطلون الجينز والبادي الأحمر؟! وليه بدلتيهم وإنتي جاية. ماصبرتيش ليه تلبسيهم يوم تاني أقصد؟!

أجابتْ مُتلعثِمة: ماهووو. عادي يعني. أصل..

قاطعتها داليا: والملابس الداخلية دي برضو اشتريتيها النهارده؟!

ـ البرا دي أنا نازلة بيها الصبح..

باغتتها داليا وهي تتفَحَّص جسدها بعينين ضيقتين: إيه العلامات اللي على دراعك وصدرك ورقبتك دي؟!

أجابتها غادة بغضبٍ بعدما نضبت ووجدت أنها لا تملك إجابات: وإنتي مال أبوكي يا حيوانة يا جزمة؟ إنتي هتحققي معايا ولا إيه يا بنت؟ بصي بقى لو هتقرفيني كل شوية بأسئلة مرات الأب دي قولي لي من دلوقت. والله العظيم أسيب لكم البيت وأطفش. جاتك القرف عليكي إنتي وأبوكي.

قالتها ومرت بجانبها تجاه الحمام، فزمَّت داليا شفتيها وبالكاد استطاعت كبح جماح دموعها، فتحت غادة باب الحمام قائلة لها بصوت عال:

ـ على فكرة أنا هابات برَّا البيت النهارده، ولو منش عاجبك تصرفاتي روحي عيشي في الزمالك مع أهل أبوكي الله يجحمه مطرح ما غار.



وصلت شادية وجرجس إلى طبيب المخ والأعصاب الذي تحدث إليه قليلا، سأله عدة أسئلة يريد أن يستقي منها معلوماته، سأله عن اسمه بالكامل فلم ينبس بكلمة، سأله عن عمره وأهله أو أي شيء يتذكره فلم يجد عند جرجس أي إجابة شافية وافية.

أجلسه على الشيزلونج وأجرى له عدة فحوصات مبدئية وهو يسأله:

ـ بتنام كويس يا جرجس؟ أقصد يعني.. مابتقلقش بالليل وإنت نايم كذا مرة؟

ـ باقلق كتير يا دكتور. مابانامش ساعتين تلاتة على بعض.

ـ بتحلم؟ ولو آه قول لي بتحلم بإيه؟

ـ باحلم بحاجات غريبة بس بانساها أول ما باصحى. بس فيه حلم اتكرر معايا كذا مرة.

ـ احكي لي عليه في عرضك يا حبيبي.

ـ مش فاكر. قصدي يعني مش باشوف فيه حاجة واضحة. ولد وبنت باحضنهم وبعدين أبعدهم عني وأضربهم. ست واقفة بعيد بتبص لي بكره كأنها عاوزة تاكلني.

أشاحت شادية بوجهها إلى الحائط وقد لَوَتْ شفتيها خشية أن يكون هؤلاء زوجته وأولاده، تذكرت ما قالته لها مريم. سأله الطبيب:

ـ شكلهم إيه، أعمارهم، أساميهم تفتكرها ولا لأ؟

ـ لا شكلهم مش واضح. الحلم ذات نفسه مافيهوش تفاصيل كتير.

ـ بتحلم بأماكن؟ فيه أماكن معينة بتحلم بيها وبتتكرر؟

ـ لأ.

ـ طب لسه فاكر حاجة من الإنجيل أو الـ...

قاطعه جرجس مُحدّقًا عينيه في الفراغ: استنى يا دكتور استنى. النهارده شفت عمارة في المهندسين، حسيت إني شفتها قبل كده.

ـ عنوانها فين العمارة دي؟

ـ ماعرفش أروحها تاني ولا فاكر فين بالظبط.

ـ طب لو رحت مكان تاني وحسيت إنك تعرفه حاول تكتب عنوانه في أي ورقة. عندك أي حاجة تانية عاوز تقولها؟

ـ .....

ـ تمام.

اشتبه الطبيب أن يكون بالفعل فاقدًا للذاكرة، طلب منه النهوض وكتب له بعض الأدوية المهدئة للأعصاب والمقوية للذاكرة، وعدة أشعة مطلوبة، وقال لشادية:

ـ الأدوية دي يمشي عليها وتعملولي التحاليل والأشعة دي ضروري وتعالوا الأسبوع الجاي زي النهارده. وجه كلامه مرة أخرى لجرجس:

ـ جرجس إنت بتاخد أي مكيفات أو مخدرات في الوقت الحالي؟

ـ لأ يا دكتور. السيجارة ماباشربهاش. هو يادوبك شوية الشاي بتوع الصبحية...

ـ تمام تمام. نتقابل الأسبوع الجاي يا بطل. واوعى تشرب أي مخدرات خليك زي ما إنت. وزي ما قلت لك لو لقيت أي مكان فكّرك بحاجة اكتب لي عنوانه. لو افتكرت أي حاجة اكتبها. أي حلم حتى.

ـ فيه أمل في الشفا يا دكتور؟ سألته شادية بقلق فأجابها:

ـ كله على الله يا شادية. آه صحيح الأشعة دي اعملوها في مركز الأشعة بتاعي جنبنا هنا أول شارع الغورية. الأجهزة هناك حديثة ودقيقة مش

هتلاقوها عند أكبرها مركز أشعة وتحاليل، على الله تعملوها في مكان تاني. مش هابص لها! مع السلامة وألف سلامة عليك يا أخ جرجس.

كانت العيادة على مقربة من شارع الغورية فتمشيا إلى أن وصلا عند ناصيته فأمسكت يده قائلة:

ـ عاوزاك تروق بالك خالص يا سيد الناس. هنروح دلوقت نعمل الأشعة عند المركز بتاع المخفي ده، ومتقلق...

ساد الصمت فجأة في أذنيه ولم يعد يسمع ما تقوله شادية، شعر بغتة بألم شديد في رأسه بالكامل وارتخاء في أعصابه لمدة ثانيتين تبعه شعور بالغثيان حينما رأى الدنيا من حوله تلف به وكأنه ينتقل من زمن إلى زمن آخر، كان ذلك حين رأى من مكانه عند ناصية شارع الغورية، جزءا من مبنى باب زويلة، وبالتحديد الجزء العلوي من سطحه والمُزيَّن بقطعٍ منتظمة نصف دائرية، يعلوها قمة المئذنة اليسرى واقفة بهيبةٍ وشموخ. شرد وغاب عن كل ما حوله، لم ينتبه لنفسه إلا وهو يشير بسبابةٍ مرتعشة تجاه المبنى والمئذنة، رأى لثانيتين في ذاكرته الممتلئة بالثقوب أشخاصا يرتدون ملابس سوداء وسلما ذا سورٍ خشبي، زيرا من الفخار مكسور الحواف. التقط تلك المشاهد فاتسعت عيناه هولاً، وإن لم يعِ كنهها بالتحديد. حاول التحدث مُحركًا شفتيه لكنه لم يستطع، سألته شادية لهفى:

ـ إيه يا قلبي، افتكرت حاجة ولا إيه يا حبة عيني؟

لم يسمعها جيدًا وانطلق يعدو تجاه المبنى ككلبٍ مسعور رأى قطعة لحم طازجة. انطلق فانطلقت خلفه وإن لم تستطع اللحاق به إلا بعدما وصل أسفل المبنى بأنفاسٍ لاهثة يتفحصه بعينيه محاولا تكملة وتفسير

ما وَمَضَ في مُخيّلته منذ قليل، وتجميع صورة واضحة أو موقف واضح أو أي شيء يُريّحه، لكنه شعر أن كل شيء تلاشى! حتى مجموعة الصور التي عبرت بذاكرته كعابرِ سبيل، تلاشت هي الأخرى.

ضرب جبهته براحة يده بقوة وعصبية، غامت الدنيا في عينيه لثوانٍ ثم عادت الرؤية من جديد شيئًا فشيئًا، نظر حوله فلم يجد سوى سيدة بائسة تجلس تحت المبنى بمنضدة عليها بخور وشموع ملونة، سألها لاهثًا في لهفة ممزوجة بضيق وأسى:

ـ باقول لك إيه يا أمي. إنتي ماشفتينيش قبل كده؟ ماتعرفينيش؟

ـ لأ يابني، بسم الله الرحمن الرحيم. إنت ملبوس يا ضنايا؟ مالك؟

لم يأبه باندهاشها وأسئلتها ثم التفت لشادية مُلوّحًا كفه المرتعش بحركة عصبية فوجدها تنظر له بشفقة.

ـ أنا من شوية افتكرت حاجات كتير ورا بعض. ماقلتلكيش عليها يا شادية؟ هه. قلت لك ولا لأ؟

ما زالت تنظر له نفس النظرة بعينين تذرفان، ربتت على كتفه لهنيهة فهدأ وخشع، عادا بعدها أدراجهما إلى الحارة بعد أن أجرى التحاليل.



انتظرته لأكثر من ساعة عند ناصية الشارع الذي يقطن فيه، إلى أن جاء أخيرًا، صعد إلى الشقة أولا ثم تبعته بعد عشر دقائق تجنبًا للفت انتباه السكان. دسَّت يدها في حقيبتها وأعطته المبلغ المتفق عليه، أخذهم منها، عدّهم فوجدهم لا ينقصون مليمًا فلمعت عيناه. قالت له بحزم:

ـ خلاص، اتطمنت إنهم مظبوطين. سلام بقى عشان ماشية.
نهض وأحاط خصرها بذراعيه قائلا: إيه يا حبيبتي مالك بس زعلانة مني في إيه؟ هتمشي كده على طول من غير ما أشبع منك؟
قاطعته متذمرة: ششششششش تعرف تبطل الأسطوانة المشروخة دي؟ إنت استحالة تكون إنسان عادي زينا كده. إنت إيه؟ مخلوق من مية شياطين؟ إنت مش إنسان طبيعي. إنت كلب ابن كلب.
أطرق لهنيهة ثم قال لها بنفاد صبر: طب بصي بقى يا روح أمك، أولا أنا هانام معاكي دلوقت. ثانيًا أنا محتاج ألفين جنيه تانيين. هاااا إيه رأيك بقى يابنت الـ؟!
سقطت على الكرسي خلفها وأخذت تنتحب وهي حاضنة وجهها بكفيها، ربت على كتفها وسألها ساخرًا:
ـ تؤ تؤ تؤ. مالك يا ساسو؟؟! إنتي عمرك ما كنتي كده! ليه النكد ده بس؟
ـ أنا جبت لك الفلوس دي بالعافية ومش معايا ولا مليم تاني.
رفعت رأسها فبدا وجهها ممتقعًا شاحبًا من البكاء ثم أردفت:
ـ أنا سرقت أهلي يا هيثم. عارف يعني إيه سرقت؟
ـ خلاص. لو معاكيش فلوس أنا مش هاضغط عليكي. إحنا ممكن نعمل حاجة ألطف.
ـ ؟؟؟
ـ فيه اتنين إصحابي هنقابلهم بالليل. هتقعدي معاهم ساعتين تلاتة وأنا هاحاسبهم.
نهضت وقد تغضن وجهها من التقزز والاحتقار. همَّ ليُكمِل كلامه

فقاطعته ببصقة في وجهه، ورحلت. فأمسك بذراعها قبل أن تفتح باب الشقة، علق نظره على وجهها الذي لا يتحرك فيه شيء سوى جفنيها الذي يرتجف من نظرته القاسية. لم يتفوه بكلمة، مسح بصقتها من وجهه بيده ثم لعقها، فارتجفت أكثر قبل أن يترك يدها، لترحل مُمَزَقة بين توجسها من أنه سينفذ ما تخشاه وهددها به، أو أنه بالفعل نَفَّذْ.

وصلت بيتها بعد ساعة ونصف، كان ذلك في نفس الوقت الذي أرسل إليها رسالة فحواها أن تفتح الفيس بوك وستجد هدية. فتحته فوجدت إحدى أكبر الصفحات الجنسية على الفيس بوك، وقد نشرت رابط الفيديو من موقع اليوتيوب بعد أن أجرى له مونتاجا وحذف منه كل اللقطات التي يظهر فيها. وعدد المشاهدات تخطى الثلاثة آلاف في أقل من ساعة.



اليوم التالي. ٢٣ مارس ٢٠١٢

استيقظ جرجس مُتكاسِلاً، رمق الساعة فانتفض حين وجد أن أمامه ثلاثين دقيقة على ميعاد العمل، وضع رأسه تحت صنبور المياه الذي رفض بقتامة أن يقطر عليه ولو قطرة ماء، فنزل في عجالة ودخل القهوة ليغسل وجهه.

ـ صباح الفل على اللي كان إمبارح مع شادية.

ـ وحياة أبوك أنا ما فايق لك يا خميس، تعرف تسكت؟

ـ ماشي ياعم. أعمل لك حلبة بحليب ولا شاي حلواني؟

ـ لا ده ولا ده، قدامي تلت ساعة وأروح المخروب اللي شغال فيه. سلام.

ركض حتى وصل إلى مطلع كوبري ١٥ مايو ليأخذ من مطلعه أي ميكروباص للمهندسين فوجد العشرات يركضون خلف العشرات مُشهرين أسلحة بيضاء، ساد فجأة في الشارع حالة من الهرج والمرج وقُطِعَ الطريق مما تسبب في ازدحامه. صاح مزمجرًا: هو باين عليه إنه يوم إسود من أوله.

صعد الكوبري على قدميه وأخذ ميكروباص، وصل المطعم بعد ميعاده بنصف ساعة، ما إن دلف إلى المطبخ حتى اصطدم بمساعد الشيف:

ـ تكونش دي الوكالة بتاعة أبوك؟ متأخر ساعتين يا روح أمك؟

ـ فيه إيه بس ياعم. يا فتاح يا عليم مالك ع الصبح؟ كان فيه خناقة وسكاكين وسواطير ماعرفتش أعدي أركب والطريق كان واقف. وبعدين كل الحكاية نص ساعة مش ساعتين ولا حاجة!

ـ مش مبرر يا حبيبي. اصحى قبل ميعادك بست سبع ساعات أو تبات قدام المطعم مش مشكلتي. أنا ليا إنك تيجي هنا في ميعادك. يلا اتنيل طلع شوالين الأوطة دول اغسلهم.

انحنى جرجس ليفتح الجوال فدفعه الرجل بباطن قدمه في مؤخرته فانكفأ على وجهه وبطنه.

ـ إنت هتشيل شوال الأوطة قبل ما تشيل البرميل اللي فيه الخس والخضار اللي تحت الحنفية؟

نظر له جرجس وقد أوشك على البكاء بعد هدر كرامته وما زال مُنكفِئًا على وجهه، استطرد الرجل وهو يلقي بجانبه مّسَّاحة:

ـ خد المساحة دي. زيح المية على البلاعة وشيل برميل الخضار من تحت الحنفية، واغسل الأوطة.

شعر جرجس برغبة عارمة في أن ينهض فيطبق قبضتيه على رقبته ويفصل رأسه عن جسده، أو يرشق سكينا في كرشه المترهل، أو على أقل تقدير يسبه ويسب المطعم وصاحبه ويرحل في سلام. لولا أن ذلك سيسيء لمريم، ويجعلها في موقف حرج أمام المدير. فآثر الصمت على الإهانة ونهض، التقط المساحة وشرع في القيام بما أُمِرَ به.



في نفس اليوم. خبر بموقع جريدة الأهرام اليومية

«معركة بالأسلحة النارية بين الباعة الجائلين وأصحاب المحال بـ ٢٦ يوليو»

تمكَّن رجال الأمن بالقاهرة من احتواء مشاجرة نشبت بين مجموعة من البائعين وأصحاب المحال التجارية بشارع ٢٦ يوليو ببولاق أبوالعلا، بعد أن تبادلوا إطلاق الرصاص في الهواء، مما أحدث حالة من الذعر لدى أصحاب المحلات المجاورة.

وتبيَّن من التحريات التي أشرف عليها اللواء.... مدير مباحث العاصمة حدوث مشادة كلامية بينهم لقيام... بافتراش البضائع الخاصة به أمام محل.... فتطورت إلي مشاجرة قام على إثرها... و.... و....

بالتدخل لمناصرة ذويهم حيث قام الأخير بإطلاق أعيرة نارية من الطبنجة التي كانت بحوزته، تم ضبطهم والأسلحة المُستخدمة في المشاجرة، وبمواجهتهم اعترفوا في الحال بارتكابهم للواقعة.



دخل مدير المطعم مكتبه، رفع سماعة الهاتف فطلب قهوته قبل أن يلاحظ عدم وجود قطعة كريستال ثمينة على مكتبه، تغضَّن وجهه ونادى على عمال النظافة الذين أخبروه أنهم لم يعلموا شيئًا، فاستدعى باقي العاملين بالمطعم وتفتيشهم جيدًا. حتى جاء الدور على جرجس فوجدوا قطعة الكريستال في جيب سرواله الخلفي.

ـ هو أنا أوافق إنك تشتغل هنا عشان تسرقني يا روح أمك؟ قال ملاك ثم سأل رئيس الطهاة: الواد ده أخباره إيه في الشغل؟

ـ حرامي ابن وسـ... عمل الحركة دي برضو معانا إمبارح. في وقت الـ break سعادتك لقيناه حاطط في شنطته كيس هامبورجر وخرج بيه.

ذُهِل جرجس ولم يستطع أن يفتح فمه ليدافع عن نفسه، وأدرك أن هذه مكيدة حيكت ليطردوه من المطعم، استطرد مارك:

ـ غوروه في داهية الحرامي ابن الحرامية ده. امشي يا ابن المعفنة وماشوفش وش أمك هنا تاني، وبلغ بنت الـ.. مريم إني مش عاوز أشوفها هي كمان.

ـ بس أنا مظلوم ماعملتش حاجة يا أ. مارك، مش عارف دي دخلت جيبي إزاي.

ـ هششششش إنت لسه ليك عين تتكلم ياله؟! خرجوا الواد ده برا وفتشوا شنطته ليكون سارق حاجة تانية. امشي يابن الحرامية من هنا وعلى الله أشوف وش أمك هنا تاني.

ـ خرج جرجس من المكتب مُطأطئ الهامة، مُنكسِر النفس. بعد أن بصق مارك في وجهه، وعند الباب صفعه المساعد على قفاه المحنيّ وشتمه بأهله، الأمر الذي جعل جرجس يلتفت وأمسكه من رقبته واعتصرها وكاد أن يقتله لولا تجمع العاملين واستطاعوا بالكاد أن يفكوا قبضته عنه. ثم صاح بعد أن خرج من المطعم بوجهٍ يغلّفه الذل والهوان.

ـ والله لأبلغ عنكم وأقول إنكم بتستخدموا لحوم فاسدة يا ولاد الكلب يا نصابين. مش هاسيبكم.

سار بعدها على غير هدى من المهندسين إلى العجوزة، يجرّ خطواته الوئيدة وينعي حظه العاثر، أخذ التفكير والتوجُّس يبعثان في ساقيه وهنًا على وهنٍ. تائه المسير، جاهل المصير. لا يعلم أين يذهب أو ماذا سيفعل بعد ذلك، أحسَّ أنه ليس سائرًا بل مُسيَّرًا، وأن العالم كله يقف ضده، والكون رغم اتساعه ضيق في عينيه بحجم ثُقب إبرة. أكمل المسير على كوبري ١٥ مايو إلى أن وصل لمنتصفه فوق النيل مباشرة، سأل نفسه أيقفز من فوق الكوبري ويستريح إلى الأبد من هذا العذاب الذي يحتله؟ أم يعود إلى الحارة ويرضى بما قسمته له الأقدار ويعمل ما بين تنظيف الأسطح والسلالم والسيارات ويرتضي بذلك ويعيش إلى أن يموت ميتة طبيعية؟ بكى. بكى كطفلٍ صغيرٍ فقد والديه للأبد أو تاه عنهما في وسط مولد، انهمرت دموع سخينة من عينيه البريئتين، عينيه اللتين كانتا بالأمس يرتعد من نظرتهما الكبير قبل الصغير. ويرتجف كجناحي طائر الطنان.

ترى، هل فقدانه لذاكرته جعله يفقد معها فطرته الآثمة وغريزته للشر اللتين تنامتا معه وحلَّ محلهما البراءة والطَّهارة التي تولد مع أي إنسان؟ وهل إذا عادت له الذاكرة سيعود معها كل ما كان عليه؟ هل يمكن أن يختلط الخاثرُ بالزُّباد داخل النفس البشرية؟! ما الذي جعله هكذا قبل أن يفقد الذاكرة؟ وهل للذين حوله دور في ذلك؟!

تابع السَّير إلى أن وصل وكالة البلح، رأى ازدحامًا كبيرًا، تنتصفه كاميرا ومُراسِل واضعًا سبابة يده اليمنى في السماعة التي بأذنه، مُمسكًا ميكروفونا بيده اليسرى، ينقل تقريره الذي جمعه حول الواقعة التي حدثت صباح اليوم بين البائعين، وأسفر عنها جرحى ومصابون كُثر. تفحَّص جرجس الحشد بعينيه فوجد جمعة بينهم واقفًا خلف المراسل الذي يتحدث بصوتٍ مُرتفِع كي يصل صوته بوضوح لمقدم البرنامج، اخترق الجمع إلى أن وصل لجمعة، لكزه في كتفه متسائلا:

ـ جمعة.. جمعة.. هو الراجل ده بيتكلم بيقول إيه؟

ـ ده مذيع في الفضائيات يا جرجس.

كان ذلك في الوقت الذي أنهى فيه المراسل تقريره، فوضع يده على أقرب كتف نالتها يده، فكان كتف جرجس وما زال ناظرًا للكاميرا:

ـ ... وتم ضبط كل الأسلحة اللي كانت مع الطرفين يا أستاذة منة وعاد الهدوء للمنطقة منذ قليل. (سأل جرجس) اسم حضرتك إيه؟

شعر بالارتباك من هول المفاجأة: جـ.. جـ.. جرجس سعاتك.

ـ إنت من سكان المنطقة يا جرجس ولا شغال هنا؟ سأله المُراسل.

ـ لا سعاتك أنا ساكن في رملة بولاق وكنت معـ...

ـ إيه اللي شفته أو المشاجرة بدأت إزاى أو إيه اللي تعرفه عن اللي حصل؟

ـ ماعرفش حاجة سعاتك أنا كل اللي أعرفه إني كنت رايح الشغل الصبح ولقيت ناس بتجري من جنبي يمين وشمال بسكاكين وسواطير وبلا أزرق بعد كده قلت أطلع الكوبر...

جاء رجل ضخم من الخلف اخترق الحشد كغوريللا جبلية، دفع جرجس بلطفٍ وحلَّ محلَّه بخفّة ورشاقةٍ عجيبة وأصبح هو الذي يتحدث بصوته الجهوريّ ويسرد كل الذي حدث بدقة مدرس تاريخ، الأمر الذي لم يعترض عليه المراسل حيث لاحظ أن التحدث مع جرجس لا يسمن ولا يغني!



قبل إحدى عشرة دقيقة.

جلس سليمان الكحكي جوار زوجته بعد أن أسند جذعها على ظهر السرير وأعطاها قرصين من الدواء قد أذابهما في ربع كوب ماء كي يسهل عليها ابتلاعهم، حالتها ساءت أكثر من ذي قبل، وأثَّرت الجلطة على فمها الذي أصبحت تعاني كثيرًا في فتحه، وشجت بقلبها الهموم بما لا طاقة لها باحتماله، فجعل لسانها عاجزًا عن الكلام. قبَّل يدها وجبينها فنظرت له نظرة امتنان عن اعتنائه بها وإخلاصه لها، نادى على الخادمة بصوتٍ وهن:

ـ يسرية، يا يسرية.

هرع إليه ابنه محمود الذي كان جالسًا بالخارج: أيوه يا بابا عاوز حاجة؟

ـ مافيش يا حبيبي، أنا كنت بانادي على يسرية علشان تناولني ريموت التليفزيون عشان أعلِّي الصوت شوية، برنامج التاسعة مساء بدأ، هي راحت فين الست دي.. يا يسرية

ـ تقريبًا نزلت تجيب الدوا اللي خلص. اتفضل يا بابا الريموت أهو.

ناول محمود الريموت لأبيه ثم جلس على حافّة السرير الذي تستلقي عليه والدته، قَبَّل قدميها قبل أن تتدخل منة الشاذلي مردفة:

ـ ...وماحدش عارف إيه السبب بالتحديد! والمشاجرة دي إن دلت على شيء فتدل على إن فيه حاجة غلط طرأت على طبيعة المواطن المصري، ودلوقت هنشوف تقرير مراسلنا مباشرة من وكالة البلح، (وضعت سبابتها على أذنها مضيقة عينيها) ألو. أيوه يا أيمن أتمنى تكون بخير وماصابكش أي أذى. إيه آخر ما آلت إليه الأخبار دلوقت عندك؟

كان سليمان الكحكي يتابع الحلقة بعينين كسولين، بينما زوجته تنظر إلى التلفاز شاردة في اللا شيء، ومحمود مطرق رأسه، حتى أنهى المراسل تقريره والتفت إلى من كان ساندًا يده على كتفه، وسأله: اسم حضرتك إيه؟ فأجابه: ـ جـ.. جـ.. جرجس سعاتك.

ما إن شاهد سليمان الكحكي الرجل حتى وقف ببطء وترقُّب، في حين التفت محمود ـ وهو يضغط على زر التسجيل ـ إلى أمه التي صاحت بكلماتٍ غير مفهومة بعد أن حُلَّت عقدة لسانها المُعتقل داخل فمها ورفعت يدها اليمنى المرتعشة مشيرة إلى التلفاز، مما أكد لسليمان شكّه.

وقف منتصب القامة وظل ينظر للتلفاز مشيرًا بسبابته ويلتفت لزوجته التي ما زالت تغمغم بأنصاف كلمات غير مفهومة إلى أن انطلق من فمها كلمتان:

ـ خاااااااالد. ابني.

نظر محمود إلى أمه ووقف حائرًا ما بين فرحته لنطقها أم لفرحته حينما رأى أخاه الذي عرفوه عن طريق نبرة صوته ـ وإن كانت بها بعض انكسار ـ علاوة على الشامة المُستقِرّة فوق حاجبه الأيسر. لكن الأمر كان مُختلفًا بالنسبة لوالديه الذين استدلوا عليه عن طريق أفئدتهم المُلتاعة به والمُشتاقة له، قبل أي شيءٍ آخر.

أشار محمود لوالديه أن يسكتا ليستمعا جيدًا إلى كل حرف يقوله.



ـ طلعت في التليفزيون يابن الفقرية.

قالها جمعة لجرجس وهما عائدان في طريقهما إلى الحارة، واضعًا يده اليمنى على كتفه اليسرى، يتحدث إليه بكلامٍ لم يصل مسامعه حيث كان شاردًا بائسًا مبتئسًا، فانتبه جمعة لابتئاسه فأزاح يده واستوقفه:

ـ لا إله إلا الله، مالك يا جرجس الهم والحزن باينين عليك كده ليه يا عم؟

ـ الدنيا قايلالي لأه يا جمعة. طالع ميتيني. من بعد ما أنقذتوني من ماسبيرو وأنا مسحول في حياتي، من الشغل ده للشغل ده ومش باعمَّر في شغلانة. آديني لسه متخانق في المطعم اللي البت مريم وديتنى فيه. طردوني بفضيحة وضربوني. يا ريتكوا كنتوا سبتوني أطلَّع في الروح وأموت، على الأقل أهون لي من العذاب اللي أنا عايش فيه ده.

ـ يا عم ما إنت معانا أهو. إنت مش معتبرنا أهلك ولا إيه بس

يا ريس؟ إن كان على بتوع المطعم بكرة نروح نكسر هولك باللي فيه (نظر يمينه ويساره في حيرة قبل أن يستطرد). وبعدين تفتكر لو لقيت أهلك هتستريح؟ طب افرض إن هما اللي عملوا فيك كده عشان أي سبب. ميراث أو خناقة أو أي خلاف. تحب ترجع لهم يخلصوا عليك بجد المرة دي؟

ـ أنا في الحالتين ميت يا جمعة. إنت مش عارف يعني إيه كل حاجة في مخك ممسوحة!

صاح بملء فمه: نعمة، النسيان ده نعمة وفضل من عند ربنا يا جرجس. يلا نطلع ع الشارع العمومي نركب توك توك بدال ما نتمشى.

ـ أمال فين التوكتوك بتاعك صحيح؟

ـ اسكت والنبي ماتفكرنيش. اتسرق.

ـ إزاااي؟!

ـ قاعد ع القهوة باشرب حجر معسل وشوية شاي، يادوبك غفلت عنه ثانية، ثانية والمصحف يا عم، بابص مالقيتوش. اتبخر.

ـ طب وبعدين هتعمل إيه؟

ـ ماتقلقش. أنا عارف هاجيبه إزاي. المهم فك وشك كده يابا الدنيا مش مستاهلة.



بعد اختفاء ظهور أخيه من الكادر، أغلق محمود زر التسجيل، واتصل بصديق له يعمل صحفيًا ليطلب منه رقم أي شخص يوصله

ببرنامج التاسعة مساءً، فأعطاه رقم هاتف مُعِد بإحدى القنوات الفضائية ربما يستطيع أن يساعده، اتصل بالمُعِد وأخبره أن الموضوع متوقف على حياة أو موت أخيه وألح في طلبه المساعدة، فتفَهَّم المُعِد كلامه وأعطاه رقم غرفة تحكم البرنامج. شكره بحرارة قبل أن يغلق في وجهه الهاتف ويتصل، عشر دقائق كان الرقم مشغولا، عشر دقائق كان أبوه سليمان الكحكي يرتعش من القلق، يجلس وينهض فجأة كأنه جلس على صفيح ساخن، يروح ويجيء يشبك أصابعه ويفُكُّها، يدبّ على الأرض بقدمه ويضع يده المُرتعِشة على التلفاز، غير قادر على التحكم في ردود أفعاله الغريبة، يضغط على زر إعادة تشغيل الفيديو فتصيح زوجته «خالد. ابني. خالد.»

بينما ما زال محمود يعاود الاتصال كلما وجد الرقم مشغولا، إلى أن أجابه أحدهم، طلب منه رقم هاتف المراسل الذي كان على الهواء منذ قليل شارحًا له الموقف باقتضاب، فاعتذر له رافضًا إعطاءه إياه. ألح عليه محمود لكن بلا جدوى فأغلق المكالمة مُتبرمًا وهو يلتقط مفاتيح سيارته قائلا لوالده:

ـ إحنا بيننا وبين الوكالة يادوبك كوبري ١٥ مايو يا بابا. خليك مع ماما وهاروح أخطف رجلي لهناك، عشر دقايق وهاكون في وكالة البلح وإن شاء الله هاجيبه وأنا جاي.

ـ هاروح معاك. صاح والده متلهفًا

ـ يسرية مش هنا والطباخ رَوَّح. ماينفعش نسيب ماما لوحدها.

لوَّحت والدتهما بيديها أن يذهبا ويتركاها بمفردها، في الوقت الذي عادت فيه الخادمة بالدواء. فهرولا إلى الشارع، أخذا السيارة وانطلقا

نحو وكالة البلح، لم تمر ثلاث عشرة دقيقة حتى كانا هناك، ظلا يبحثان عن أي جمعٍ فلم يجدا! سأل محمود أحد أصحاب المحلات عن المراسل الذي كان واقفًا منذ قليل أو الحشد الذي كان حوله، فأخبره صاحب المحل أنه رحل منذ دقائق وانفض الحشد برحيله. أطرق رأسه حزنًا هو ووالده الذي استند على السيارة وطلب منه أن يسيرا هنا أو هناك ربما يعثرون عليه، ظلا يسألا فلم يجدا من يدلهم على أي شيء. فعادا أدراجهما بخفيٍّ حنين!

حينما عادا إلى المنزل استند سليمان إلى أقرب كرسيّ وجلس عليه بعد أن شعر باختناقٍ شديد وأن روحه كادت تفارق جسده، دلف محمود إلى حجرة والدته التي تشاهد المقطع المسجل، وتعيده كلما ينتهي. انتابتها نوبة بكاء جارفة حينما لمحت خيبة الأمل في عينيه، ظلَّت تنطق باسم خالد كثيرًا، وظل يربت على ظهرها ليهدئ من روعها ونامت على تلك الحال.

بعد أن اطمأن على والدته أطفأ النور وخرج من الغرفة وجلس بجوار والده الذي يبكي واضعًا رأسه بين كفيه، حاول أن يهدئ من روعه هو الآخر قبل أن يمسك هاتفه ويتصل بغادة زوجة أخيه ليخبرها بما حدث:

ـ غادة. إزيك.

أجابته بصوت متكاسل: أنا تمام يا محمود. خير!

ـ آسف لو كنت كلمتك في وقت مش مناسب، إنتي كنتي نايمـ..

قاطعته بحِدَّة: قول يا محمود فيه إيه. نايمة أو متنيلة هتفرق إيه ما إنت اتصلت وخلاص!

ـ مممممم. طيب. ع العموم جوزك لسه عايش.

نهضت مُنتفِضة من السرير وأزاحت يد أمجد القابضة على نهدها:

ـ إنت بتقول إيه؟ إزاي يعني لسه عايش؟!

ـ زي ما باقول لك كده. خالد ماماتش. شفناه في التليفزيون من شوية بس شكله متبهدل وأعتقد والله أعلم إنه فاقد الذاكرة أو حد عمل فيه حاجة غامضة إحنا مش عارفينها.

سألته بصوتٍ مستغربٍ لا يخلو من استنكار: مش فاهمة حاجة. إزاي لسه عايش؟!

ـ بكرة إن شاء الله هندور عليه ومش هنرجع إلا وهو في إيدينا.

ـ .... (شردت في مليارات الأشياء)

ـ غادة. غادة إنتي معايا؟ غادة!

انتبهت له وغمغمت: أيوه معاك يا محمود. طب ابقى طمني لو فيه عندك أي جديد.

ما إن أغلقت غادة الهاتف حتى سألها أمجد الذي استيقظ: مين ده اللي لسه عايش؟

أجابته بوجه شارد متجهم: خالد.

ـ نعم ياختي؟ إزاي لسه عايش؟

ـ إنت بتسألني أنا؟! أنا هامشي دلوقت وبكرة هاكلمك لو فيه جديد. ماتتصلش بيا نهائي هه. ماتتصلش بيا.

نهضت غادة وارتدت ملابسها في عُجالة وذهبت إلى منزلها، دخلت غرفة مصطفى فوجدته نائمًا، دخلت غرفة داليا فلم تجدها بالداخل، لم تأبه أين هي رغم الوقت المتأخر، جلست على أحد الكراسي في الصالة

وأضاءت «الأباجورة» ففزعت حينما وجدت داليا جالسة على الكرسي المقابل وواضعة قدميها على المنضدة، نظرت لها شذرًا، ووقفت ببطء معلقة نظرها على غادة، قبل أن تدخل غرفتها دون أن تنبس بكلمة.



جميع من في الحارة يدركون جيدًا معنى أن يكون الأسطى إبراهيم مُقمطِرًا للشرِّ أو غاضبًا من شخصٍ ما، ويعلمون جيدًا أن هذا الشخص سيبيت في منزله بعاهة مستديمة أو جرح قطعي في جسده أو وجهه على أقل تقدير، هذا إن بات في منزله، وليس في مستشفى!

ما إن وصل جرجس وجمعة إلى الحارة حتى قابلهم الأسطى إبراهيم بوجهٍ متغضن يحمل كل آيات الغضب، ونظرات تكاد تخترق جرجس الذي توجّسَ الشر في عينيه، والاحتدام المتطاير بينهما. جمعة أيضًا شعر بذلك فبادر بسؤاله رافعًا ذراعيه عند وجهه اتقاءً لبطشه:

- إيه يا أسطى إبراهيم؟ خير. مالك؟

أزاحه إبراهيم بيساره فانتحى جانبًا واصطدم بمنضدة يعمل عليها رجب المنجد. وأمسك بيمينه كتف جرجس وأحكم قبضته عليها بقوة حتى كاد يكسرها، تألم جرجس وأطلق صرخة مُدوية، احتشد الناس أكثر على أثرها، مُشفقين على مصير جرجس المعلوم!

أخرج الأسطى إبراهيم مطواة «قرن غزال» من سيالة جلبابه ونغزه في خصره نغزة صغيرة أدخل سِنَّها المُدبَّب حوالي ١ ملم في جنبه، ثم ألجأه بقوة إلى الجدار فاصطدم ظهر جرجس حتى كاد ينكسر عموده

الفقري، وما زال إبراهيم مُحكِمًا قبضته الغليظة على كتفه، أمسك رأسه وجذبها نحوه ليخبطها بقوة إلى الجدار قبل أن يصيح به بعدما اشتدَّ حنقه:

ـ قول لي بقى يا روح اللي جابت أمك إنت جيت لنا من أنهي داهية، وإيه علاقتك بشادية؟ هااااااااااا وكنتوا فين إمبارح وراجعين متأخر؟ إيه الحكاية اللي ما بينكوا بالظبط؟

أجابه جرجس مُتألِمًا من طعنة المطواة:

ـ كنت عند الدكتور يا أسطى والله. (صفعه إبراهيم على وجهه فأخذ جرجس يسترحمه) أبوس إيدك سيبني في حالي يا أسطى أنا الدنيا سودا في وشي حرام عليييييك.

ـ حرام عليا أنا؟؟؟ بتقرطسنا يابن الكلب؟؟؟ بترفعنا الأرايل يا أربعة ريشة يابن الوسخة؟

قالها وهو يسحب بمطواته على جنبه الآخر ليصيبه في جنبه الأيمن، نفس المكان الذي أُصيبَ فيه منذ ثمانية أعوام من قبل الرجل المُنْتَقِبْ! مما جعل المشهد يومض فجأة أمام ناظريه لجزءٍ من الثانية، شعر بنفس الألم الذي انتابه حينما رأي باب زويلة بالأمس، لكن هذه المرّة جعله هائجًا كجملٍ رأى سكينا مسنونة أمامه ومُقبِل على الذبح.

حضرت فجأة يد البسالة والإقدام الكامِنة فيه لتزيح بقوة ستائر الجبن، طوَّح يديه رأسيًا بقوة من أسفل لأعلى، ففكَّ قبضة إبراهيم وطارت المطواة من يده، لم يمهله جرجس فرصة ليندهش أو تجحظ عيناه من الصدمة، نطحه برأسه فأصابه في أنفه وتضرجت بالدماء، تقهقر إبراهيم بعدها خطوتين للخلف. ابتعد جرجس عنه خطوتين ووقف منتصبًا مُتصلّبًا في وسط الحارة، وأصابته حالة تشنُّج فازداد

حنقًا يعلوه حنق. ظل يصرخ بقوة، يقفز ويدب بقدميه على الأرض فتهتزّ تحته، ويعاود الصراخ كالمجنون مرة أخرى حتى نفضت عروقه وسط دهشة الجميع وأوّلهم الأسطى إبراهيم الذي أقبل عليه مُترددًا. وليته لم يقبل.

همَّ ليصفعه على وجهه ويطرحه أرضًا، فتفاداه ورفعه من خصره بكلتا يديه وألقاه على جمعة الذي لم يزل مُسجى على الأرض مُندهِشًا، نهض إبراهيم ملتقطًا عصا خشبية غليظة بجوار المنجد، هوى بها بقوة على فخذه مرتين متتاليتين علَّه يسقط، علَّه يهرب! تألَّم جرجس لكنه لم يسقط ولم يهرب، بل انحنى واضِعًا يديه مكان الضربة، فتلقى ضربة أخرى على رأسه، فانسفح الدم في الحال وغطى وجهه بالكامل وملابسه، اهتاج أكثر وأكثر، غالب سقوطه وهو يتفادى الضربة التالية بساعده الأيسر، والتقط العصا بيده اليمنى، جذبها نحوه فانجذب معها إبراهيم فتلقى ضربة قوية من ركبة جرجس فانحنى وسقط على الأرض. التفت جرجس بعدها يمنة ويسرة فلم يجد أمامه سوى المسدس الذي يستخدمه رجب المنجد في تثبيت المسامير، وضع فُوَّهته على كتف إبراهيم ورشق بواسطته مُسمارين في كتفه، وشرع في رشق الثالث لكن حال دون ذلك تقهقر إبراهيم للخلف مُدحرِجًا جسده بسرعة ونهض مُتأثرًا بالمسمارين المرشوقين في كتفه، في نفس الوقت الذي التقط فيه جرجس المطواة التي سقطت سلفًا من يد إبراهيم، وقف مُشهرًا إياها نحوه، قائلا وهو يلوِّح بها:

ـ هاااااااااااا. (أمال رأسه قائلا) تحب أرشقها في كرش أمك؟

قال له الأسطى إبراهيم وهو واضعًا يده على كتفه الغارقة بالدماء:

ـ مااااااااشي يا جرجس، وحياة (...) أمك ما هاسيبك. لا إنت ولا شادية هتباتوا ليلة واحدة في الحارة.

ـ وريني. هتعمل إيه. سواء إنت أو العجل ابنك أو أي حد يتشدد لك. (لوَّح بالمطواة في الهواء مرة أخرى في شكل حرف ×) هاااااااا تحب أشرَّحك يا إبراهيم يا سارينة؟

ـ إنت تشرحني؟ صحيح النمل طلع له سنان. أنا هاوريك. وربونا المعبود لأوريك. ماااااااشي يا بن الـ... ماشي.

قالها وهو يركض وخرج من الحارة وسط ضحكات الأهالي وفرحتهم الجيَّاشة بما فعله جرجس الذي سقط على ركبتيه واضعًا يده على جنبه مُتأثِرًا بالجرحِ الذي ما زال ينثعب منه الدم سخينًا، التفّ حوله ثلاثة من أهل الحارة ليسعفوه. شقَّ أحدهم قميصه وتحسَّسَ الجرح فندت منه صرخةٌ مُدوية، صرخة انطلقت من أخمص قدميه خرجت من حنجرته فأرعبت كلّ من حوله، صرخة انداحت لتخترق أثير الفضاء وعنان السماء، بعد أن هزَّت جدران بيوت الحارة بأكملها.



هل عبرت هذه الصرخة حارة السرجة، مخترقة الحواري والشوارع الأخرى، وكوبري ١٥ مايو وعمارات الزمالك، لتصل بعد لحظاتٍ إلى منزل والديه؟!

«خاااااااااااااالد!»

شعرت والدته بنغزةٍ قوية هاجمت قلبها وهي نائمة، فاستيقظت

فجأة وهي تصرخ كالمذعورة، مما أفزع زوجها وابنها اللذين دلفا إلى غرفتها بسرعة فوجداها ساهمة لثانيتين، لم تستطع أن تتمالك أنفاسها المُتسارِعة إلا بعد نصف دقيقة تقريبًا وهي تشير لهم بيديها المرتعشة نحو التلفاز، إشارات لم يفهما منها شيئا. نظرت بجانبها فوجدت قلما على الكومود، حاولت ـ عبثًا ـ التقاطه فناولها محمود إياه. التقطت علبة الدواء وكتبت على ظهرها بقلب أم يتّقد احتراقًا، وبيدٍ مرتعشة جملة واحدة.

«شغلوا الفيديو تاني. خالد ساكن في رملة بولاق»

نظرا لبعضهما البعض فالتفت زوجها مُلتقِطًا الريموت وفتح الفيديو، أعاده وبالفعل لاحظوا أنه قال للمراسل أنه يسكن رملة بولاق، كيف مرَّت عليهم هذه الجملة في غفلةٍ منهم دون أن ينتبهوا لها؟! نظر لها زوجها مُبتسِمًا، حضنها وقبَّل يدها ورأسها وأخبرها أنه سيذهب إلى هناك ويحضره لها في غضون ساعات، فاطمأن فؤادها وغفت.

خرج سليمان ومحمود من الغرفة بهدوءٍ كي لا تستيقظ، سأله هل يذهبا الآن أم في الصباح الباكر؟ فأخبره محمود أن منطقة شعبية كرملة بولاق ليس من السّهل دخول أغراب إليها في وقتٍ متأخر كالآن، وربما يشكُّون فيهم أو يصيبونهم بأذى، خصوصًا أنها منطقة كبيرة وتتكون من عدة شوارع وحوارٍ وأيضًا أزقة، وأن الذهاب في الصباح الباكر سيكون أفضل درءًا لأي مشكلة، وعلى أية حال ما هي إلا ساعات. أطرق والده وأومأ رأسه مستوعبًا ومقتنعًا بكلام ابنه.



بعد بكائها طوال يوم كامل، تنتفض كلما تسمع صوت هاتف والدتها أو والدها يرن، ترهف السمع لتتأكد هل هذه المكالمة من أحد أقربائها الذين شاهدوا الفيديو. فتتنفَّس الصُّعَداء في كل مرة تجد فيها أن المكالمة عادية، تتصفح الفيس بوك كل ساعة لتجد أن عدد المشاهدات يزيد إلى أن وصل لمائة ألف، كل ثانية تمر عليها كسنوات، تفكر في رد فعلها حينما يواجهها أهلها بالفيديو حينما يعلمون به. لم تجد أي جواب منطقي، وتتوقع ماذا سيفعلونه بها آنذاك دون حتى أن يسألوها، فالفيديو ليس محتاجًا لأي شرح. ظلت طوال اليوم تفكر باكية ماذا ستفعل، إلى أن اهتدت بتفكيرها إلى الهروب.

التقطت حقيبة ظهرها بجانب السرير، وضعت فيها بعضا من ملابسها، تسلَّلت في جنح الليل، رمقت الصالة فلم تجد فيها أحدًا، وجدت سروال بدلة والدها مُلقى على أحد الكراسي، أخذت محفظته وفتحتها فوجدت بداخلها خمسمائة وثلاثة وسبعين جنيه، أخذتهم وغادرت بعد أن تركت في غرفتها ورقة مكتوبًا عليها.

«سامحوني. إنتوا خسارة فيا. أنا ماستاهلكمش»

توجَّهت إلى منزل إحدى صديقاتها، والتي تعرف أن والدها في عمرة ووالدتها متوفاة، أخبرتها أنها ستمكث معها يومًا أو اثنين، فوافقت صديقتها على الفور مُرحِّبة بها. ولكن ليس أكثر من يومين.



ـ يومين بالكتير وتبقى زي الفل يا جرجس، أنا خلاص غيرت لك

على الجرح، الحمد لله إنه ماكانش غويط. منه لله ربنا يهد قواه إبراهيم زفت. بس ربك والحق. إنت كسرت مناخيره.

ـ الخوف ليرجع تاني ومش بعيد يقتلني يا شادية. أو يقتلك إنتي كمان. قال بعينين قلقتين.

ـ والمصحف ما يقدر. عينه بقت في الأرض خلاص، ولو هوّب ناحيتك أو حاول بس إنه يئذيك مش هيشوف مني إلا العين الحمرا.

ـ بس إنتي كنتي فين ساعة الخناقة صحيح يا شادية؟ سألها خميس

ـ كنت باستلم باقي التحاليل اللي عملتها له، البت مريم اتصلت بيا حكت لي ع اللي حصل وهي ميتة من الضحك، رجعت لقيته متلقح ع القهوة وماقدرش يرفع عينه عليا. باقول لك عينيه اتكسرت.

قاطعها خميس وهو ينظر إلى جرجس بعينين جاحظتين مُتحسّسًا ذراعه:

ـ ما شاء الله عليك يا جرجس، عضمك ناشف وعصبك حديد و...

قاطعته شادية بانفعال وهي تزيح يده:

ـ إيه يا خميييييس. قل أعوذُ ياخويا. حصوة في عينك اللي تندب فيها رصاصة، وعين اللي يشوف سيد الرجالة ولا يصليش ع النبي!

ـ عليه الصلاة والسلام يا ست الكل. أستأجز أنا بقى أشوف جمعة أخويا هو كمان عشان اتعور. يلا يا شادية.

ـ لأ أنا قاعدة مع جرجس شوية عشان أتطمن عـ...

قاطعها جرجس: لالالالا أنا بقيت كويس يا شادية. يلا امشوا بقى عشان هلكان وعاوز أنام. خدوا الباب في إيديكوا.

بمجرد أن خرجا نهض جرجس وأغلق الباب من الداخل، خشية

أن تعود مرة أخرى! ثم عاد إلى سريره وهو يعرج واضعًا يده على قطنيته، مدد جسده الخائر على السرير، ظل يفكر فيما حدث له أثناء المشاجرة، استرجع كل شيء إلا شيئًا واحدًا حاول بإلحاح أن يستعيده لكنه فشل. مشهد طعن الرجل المنتقب، ذلك المشهد الذي ومض في عقله لجزءٍ من الثانية حينما أصابه إبراهيم في جنبه، هزَّ رأسه في تأسٍ ويأسٍ حتى استنام، وسافر في سُباتٍ عميق، ليبحر بقارب ذاكرته في مُحيطاتٍ جديدة، قَصِيَّة، دون أن يدري بأيِّ شاطئ سوف يرسو!



بمجرد أن أرسلت الشمس أول خيوطها المشرقة إلى الأرض، فتح سليمان الكحكي عينيه، لكز محمود ليوقظه وكانوا بمنطقة رملة بولاق في غضون نصف ساعة. ركنوا سيارتهم في المرأب المجاور لمبنى النايل سيتي وترجَّلا حتى وصلا مشارف منطقة رملة بولاق. وجدا على الناصية حَدَّادًا يفتح دكانه فسألوه عن شخص يدعى خالد ووصفوا له شكله وهيئته، فأومأ رأسه بالسلب دون أن يتفوّه بكلمة، أخبره محمود أن اسمه جرجس. نظر لهم الحداد نظرة غاضبة: عاوزين إيه في يومكم الأزرق ده ع الصبح؟! خالد مين وجرجس إيه يا مجانين ياولاد الـ...

همَّ سليمان ليشرح له فجذبه محمود واعتذر للرجل ورحلا. توغلا أكثر وسألوا تاجر طيور استقبلهم بسكينه التي كان يحدّها بمُسْتَحَدّ، سأله سليمان عن شخصٍ يدعى خالد، فأخبرهم أنه يعرفه فاستطرد

محمود «جرجس». فأومأ رأسه بالإيجاب مؤكدًا أنه بالفعل يعرفه. أشار لهم بيديه واصفًا مكانه:

ـ بص يا باشا، امشي على طوووووول يمين في شمال أول حارة تقابلك لأ، تاني حارة لأ، ادخل تالت حارة، اسمها حارة العتّالين، هو ساكن ع الناصية.

انطلقا إلى حيث وصف لهم الرجل فوجدا نفسيهما يخرجان من المنطقة وتأكدا أنه كان يستهزئ بهما. عادا مرة أخرى فوجدا سيدة مُسِنّة تجلس صامتة على ناصية حارة السرجة، أمامها منضدة عليها أربع علب حلوى.

ـ السلام عليكم.

ـ ....

ـ والنبي يا حاجة ماتعرفيش واحد طول بعرض اسمه خالد أو جرجس؟

ـ ....

انحنى محمود وسألها مرة أخرى وهو يشرح بيديه: يا أمي. ماشفتيش واحد هنا اسمه جرجس. أو خالد. مواصفاته طويل و...

قاطعته: هات خمسين قرش ربنا يطعمك ما يحرمك.

دسَّ يده في جيبه وأعطاها خمسة جنيهات وأعاد عليها نفس السؤال فأخبرته وهي تدفن الخمسة جنيهات في كيس داخل صدرها أنها لا تعرف جرجس أو خالد أو أي عفريت أزرق.

مرَّت ساعتان بلا أى جدوى، شعر محمود بالإجهاد، ووالده أيضًا، نظرا لبعضيهما البعض لهنيهة قبل أن تلمع فكرة في عقل والده،

وهي أن يعودا للبيت وينقلا ملف الفيديو المسجل على الهاتف، ويستعينا به في السؤال عن ابنه، وبهذه الطريقة سيكون التعرف عليه أسرع.

بالفعل؛ عاد محمود إلى المنزل ليحضر الفيديو، وترك والده جالسًا على مقهى بجوار السيدة المُسِنة، فجاء له الصبيّ ماسِحًا هيئته بعينيه، مال بجذعه عليه وهو يسأله واللعاب يقطر من فمه، كفهد رأى فريسة:

- اؤمرني يا سعادة الباشا، تحب جنابك تشرب إيه؟

- هات لي قهوة مظبوط يا حبيبي.

- خميس، خدامك خميس. هوا وهيكون عندك شوية قهوة في فنجان روميو وجوليت اللي كان في جهاز أمي.

- ربنا يخليك يا أبو الخِمسان.

- وهاجيب لك مية معدنية كمان ياسعادة الباشا و..

قاطعه سليمان مزمجرًا: هات اللي تجيبه يابني واخلص بقى الله لا يسيئك!

ابتلع خميس باقي كلامه ودخل ليحضر القهوة.



تستطيع الشمس أن تبدِّد ظلام الليل المكفهر. تستطيع أن ترسل أشعتها إعلانًا لبدء يوم جديد لتوقظ غفلة النائمين. تستطيع أن تصدِّع جبالا جليدية، بل وتصهرها، أو تبعث الدفء على نصف العالم بأكمله. لكنها لا تستطيع أن تواري حُزنًا بات في صدرِ فتاة تفكر مُنتَحِبة في وغدٍ هجرها، أو خسيسٍ خدعها، أو فسلٍ دنيءٍ خلا بها!

فتحت صديقتها الشباك فجأة فتسللت أشعة الشمس من بين خصاصه، لتوقظ سارة التي فتحت هاتفها الذي أغلقته بالأمس بعدما خرجت من المنزل لتعرف من اتصل بها، استقبلت رسالة بكل الأرقام التي حاولت مهاتفتها. لفت انتباهها رقم هيثم وسط الارقام، جأش قلبها فزعًا وشعرت حينها بغصّة في حلقها لم تستطع ازدرادها، اتصلت به على الفور، ربما يكون هناك مصيبة جديدة أو بالأحرى فضيحة جديدة تتعلق بها فتدركها.

ـ آلو. أيوه يا هيثم. إنت اتصلت بيا؟

ـ آه اتصلت بيكي.

ـ خير؟؟ فيه أي مصايب تانية؟

ـ دلوقت أنا مزنوق في ألفين جنيه. هتعرفي تجيبيهم لي ولا أنزل باقي الفيديو؟

ـ بص بقى. أنا مش معايا ولا مليم تاني، ولعلمك أنا سبت البيت وطفشت، وأكيد دلوقت هما بيدوروا عليا عشان يقتلوني.

أجهشت بالبكاء فرد عليها هيثم ببرود ولا مبالاة دون الالتفات لكل ما قالته:

ـ يعني مش هتعرفي تدبري المبلغ؟

ـ تصدق بالله إنت ماعندكش دم؟ أنا غلطانة إني عرفت حيوان زيك استأمنته على جسمي وخان الأمانة. ربنا يرد لك كل اللي بتعمله في بنات الناس يا هيثم. منك لله.

استمر في اللامبالاة قائلا: طب باقول لك إيه، فيه حل تاني، فيه جماعة أصحابي هتنامي معاهم زي ما قلت لك قبل كده و..

أغلقت المكالمة في وجهه بعد أن بصقت وسبته قبل أن تدخل صديقتها متأففة بوجهٍ متغضن.

لمحت سارة الضيق في وجهها. سألتها عمَّا بها فأخبرتها صراحةً أنها لن تستطيع استضافتها أكثر من يومين. في قرارة نفسها لا تلومها على شيء فهذا من حقها وعليها احترام خصوصيتها، فما الذي يجبرها على استضافة فتاة حتى وإن كانت صديقتها؟ بالرغم من أنها هي نفس الصديقة التي كانت دومًا تلحّ عليها أن تأتي لزيارتها وقضاء أسبوع كامل في منزلها. لكن الآن الوضع مختلف تمامًا، ومن المؤكد أنها استنبطت من رؤية حقيبتها الممتلئة بأغراضها أنها هاربة من أهلها.

ـ بصي يا سارة أنا سمعت كل حاجة من برا، وكنت شاكة إنك هربانة من البيت أول ما شفت شكلك والشنطة اللي معاكي. كان باين عليكي، بس دلوقت اتأكدت، أنا آسفة ماقدرش أخليكي تقعدي أكتر من كده. ومش بعيد دلوقت أهلك يدوروا عليكي وأول مكان هيدوروا عليكي فيه هو هنا عندي.

رفعت رأسها وقالت لها متوسلة: أرجوكي خليني عندك اليومين دول لحد ما أرتب أموري. وأهلي لو جم هنا قولي لهم إنك ماشفتنيش.

زمَّت شفتيها قائلة: سارة. هما يومين بالعدد. أنا مش حابة يحصل مشاكل عندي. ودي مش أي مشكلة!



ـ دي مش أي مشكلة حصلت في الحارة قبل كده وعدت على خير يا خميس. دي خنااااااااااقة مع إبراهيييييييم سارينة بجلالة قدره! والله لولا إني شفت بعينيا كنت هاكذب اللي يحكي لي.

ـ أنا كمان شفت بعينيا. ولسه مش مصدق والله يا أسطى رجب. شفت لما مسك مسدس المسامير بتاعك ومسمر كتف أمه؟

دخلا في نوبة ضحك هيستيرية، استطرد بعدها رجب المنجد كلامه سائلا خميس متهامسًا:

ـ مين الباشا اللي قاعد برا ده ياض يا خميس؟

ـ ماعرفوش. أول مرة أشوفه يقعد هنا.

ـ شكله رجل باشا بجد. تفتكر طيب جاي ليه؟ عاوز إيه؟

ـ ....

ـ طب ماتروح تسأله كده يمكن يكون عاوز حاجة معينة.

استجاب خميس له وخرج ليسأل سليمان إن كان يحتاج مساعدة ما، في نفس الوقت الذي لمح فيه ابنه محمود عند ناصية الحارة، فلم يأبه لسؤال خميس ونهض ملوحًا له بيده فأقبل محمود عليه وفي يده هاتفه المحمول وأراه الفيديو.

ـ أهو يا بابا الفيديو جبته (نظر لخميس موجهًا كلامه له) والنبي يا حبيبي هات لي واحد قهوة ع الريحة.

ـ حاضر يا باشا طلباتك أوامر.

قالها مُحاوِلا استراق النظر إلى الفيديو، دخل القهوة، لكنه توقف فجأة حينما التقطت أذناه صوت جرجس، سرح قليلا يفكر في من يكونان هذان الشخصان؟؟ استدار سليمان مناديًا على خميس وسأله

إن كان يستطيع التعرف عليه أم لا، أمسك خميس الهاتف وظل يشاهد الفيديو بينما يفكر ماذا يجيبهم، ظن أنهم ربما يكونون من المباحث وجاؤوا ليقبضوا عليه بعد مشاجرته مع إبراهيم سارينة، أو ربما يكونون هم الذين حاولوا قتله من قبل وألقوه وسط ضحايا أحداث ماسبيرو، أو...

لاحظ محمود من تعبيرات وجهه أنه تعرَّف عليه فقطع خيط تفكيره مُكررًا عليه نفس السؤال فأجابه خميس مباشرة:

ـ لأ يا باشا ماعرفوش.

ـ أمال ليه كنت مبحلق قوي كده؟!

ـ لا يا باشا كل الموضوع بس إن المنطقة دي مش غريبة عليا. دي وكالة البلح جنبينا.

نهض محمود ووالده الذي أخرج من جيبه عشرين جنيهًا وأعطاها لخميس ورحلا قاصدين الشوارع والحواري الأخرى بالمنطقة. أما خميس فصعد بسرعة البرق إلى شادية فلم يجدها فتذكَّر أن نوبتها صباحية هذا الأسبوع، فصعد إلى جرجس ليخبره بما حدث فوجده يغط في النوم.



ظلا طوال اليوم يسألان هذا ويعرضان الفيديو على آخر، غطوا المنطقة كلها إلى أن مسكا طرف خيط، وإن كان واهيًا لكنهم تعلقوا به، حيث أخبرهم أحد الأقباط أنه رأى شخصا يشبه إلى حدٍ بعيد صورة الشخص الذي في الفيديو، سألوه عن مكانه فأخبرهم أنه رأى

صورته معلقة على أحد أعمدة الكنيسة منذ ثلاثة أسابيع، ووصف لهم الكنيسة، انطلقوا إليها فلم يجدوا أي صورة مُعلَّقة. سألوا أحد العاملين فأخبرهم أنهم بالفعل كانوا عارضين صورة لشخصٍ فاقد الذاكرة لمدة كبيرة ثم نزعوها، سألوه عن أي وسيلة اتصالات يمكنهم من خلالها التوصل له، لكنه أخبرهم آسفًا أنهم مزقوا الورق وألقوه في القمامة.

أطرقا رأسيهما في اغتمام ورحلا، لكن العامل أخبرهم بشيء آخر، لعله يوصلهم إلى شيء، قال لهما إنهما ربما يجدان نسخة من الورقة في كنيسة قصر الدوبارة حيث إنها هي التي أرسلتها إليهم. قبل أن ينتهي الرجل من جملته كانا قد انطلقا قاصدين كنيسة قصر الدوبارة حيث التقيا الأنبا بولا الذي أخبرهم أنه لا يتذكر هل معه نسخ أم ألقوها في القمامة. ترجا سماحته أن يتذكر جيدًا فالموضوع به حياة أو موت، اعتصر القس ذاكرته اعتصارًا فتذكر أن آخر نسخة من الورقة قد مزقها بيده للأسف، نهض محمود كالمجنون مُمسِكًا رأسه بكلتا يديه ناظِرًا لأعلى في ضيقٍ شديد لكن القس أخبره أنه يعرف الفتاة التي كانت تتابع معه.

ـ اسمها شادية غنيم وساكنة في رملة بولاق، حارة اسمها سراج، السرجة، مش فاكر بصراحة.

قاطعه سليمان الكحكي: السرجة؟؟؟

ـ آه أعتقد السرجة. والبنت شادية دي ممرضة في مستشفى القصر العيني.

انطلقا بسرعة الضوء إلى مستشفى قصر العيني، سألوا في كل الأدوار عن شادية غنيم، حتى وجداها أخيرًا في قسم الطوارئ بالطابق الأرضي.

ـ اؤمروني يا بهوات.

ـ أنا اسمي محمود الكحكي وده والدي سليمان الكحكي. مش ده موضوعنا. إنتي تعرفي اللي في الفيديو ده يا شادية؟ قالها وهو يعرض الفيديو عليها، فأجابته بمجرد أن رأت جرجس أنها لا تعرفه قط ورحلت، فمسكها من كتفها قائلا:

ـ القسيس قال لنا إنك تعرفي مكانه.

زجرت ونفضت يده من كتفها وهددتهما إن لم يرحلا الآن فسوف تصيح بأعلى صوتها وتقول أنه تحرش بها ثم رحلت مرة أخرى، فاعترض طريقها سليمان قائلا بصوتٍ متهدج حزين:

ـ يا بنتي إحنا مش عاوزين نئذيه! ده ابني. أقسم بالله ابني.

ـ وأنا إيش عرفني إنه ابنك، وحتى لو ابنك. مش يمكن تكونوا إنتوا اللي حاولتوا تقتلوه؟

صاح محمود قائلا: يا ست شادية. إحنا عايشين حالة ما يعلم بيها إلا ربنا من ساعة ما عرفنا إنه مات.

أخرج من جيبه الصورة التي أُرسِلَت إليهم، شاهدتها شادية فجحظت عيناها، فهي أول من شاهده في هذه الحالة.

استطرد سليمان وكاد أن يسقط من فرط التعب واللهفة لرؤية ابنه: يا بنتي أبوس إيدك ودّينا لابننا خلي أمه تشوفه قبل ما تموت، من ساعة ما عرفت إنه مات وهي تعبانة وجات لها جلطة، ودلوقت هي في البيت على أمل إننا نرجع بيه.

أطرقت شادية لهنيهة، فكرت فيما سيحدث بعد ذلك. هل هكذا ستنتهي القصة بمنتهى السهولة؟! جاؤوا ليأخذوه معهم وفي لمح البصر

سيبعد عنها؟؟ ستخلو غرفة السطح من جرجس ورائحة عرقه للأبد؟!
جرجس؟
صاحت شادية كالتي تذكرت شيئًا سائلة محمود: حضرتك اسمك محمود إزاي وهو مسيحي وبتقول أخوك؟
ـ ماهو ده اللي هيجننّا! مين اللي سماه جرجس وبناء على إيه هو اقتنع بده؟
ـ مين اللي سماه إيه؟ هو اسمه جرجس وفيه صليب في إيده واسمه مكتوب على دراعه. جنب صورة العدرا.
قطع الوالد جدالهم متوسلا شادية: يا بنتي أوطي على رجلك أبوسها يلا نروح. مش وقت أسئلة. قلبي هيقف.
ـ حاضر يا أستاذ سليمان. هاروح أمضي انصراف وأسلم شغلي لأي ممرضة تانية وآجي معاكم.
لم تمرّ نصف ساعة حتى وصلوا إلى حارة السرجة، فرآهم خميس مستغربًا كيف وصلا مرة أخرى ومعهم شادية، وأين عثرا عليها وكيف! حدجه سليمان بنظرة غيظ ومرَّ بجانبه مع محمود وشادية قاصدين سطح البيت حيث يجلس جرجس، أو خالد، أيهما أقرب.
طرقا الباب فلم يجب أحد!



ظلوا يطرقون الباب دون كلل فلم يُجِب أحد، فجاءت شادية من الخلف بعد أن التقطت ملعقة مُلقاة على الأرض، أدخلتها بحرفية لص

خزائن محترف بين الباب والقائم لترفع المسمار من الداخل فانفرج الباب، وانفرجت معه أسارير الأب والأخ. انفطر قلباهما حينما وجداه نائمًا على جنبه الأيسر موليًا ظهره للحائط، متكورًا يرتجف بردًا حتى كادت ركبتاه تلامسان ذقنه، خطا والده نحوه، انحنى، قبَّل رأسه وهو يجهش بالبكاء فانسكب سيل جارف من الدموع على رأسه فاستيقظ جرجس مفزوعًا ليجده هكذا، وأخاه مُقبِلا عليه باكيًا هو الآخر. قطب حاجبيه مُندهِشًا حينما رآى ذلك الكهل يُقبِّل رأسه. مرَّت على مخيلته أجزاء من مشاهد غير مُكتمِلة، وبعض صور، وأطراف لحظات انفلتت من الماضي لتُمَثَّل أمامه متقافزة بغير انتظام؛ أحد هذه المشاهد الذي يحمله فيه والده على كتفيه عند شاطئ البحر حين كان صبيًا. مرَّ أمام ناظريه أيضًا ذلك المشهد الذي كان يعنّفه فيه. وصورة أخيه حينما احتضنه يوم تخرجه من كلية الشرطة. ثلاثة مشاهد ومضت في مخيلته لم يزد أي منهم على جزءٍ من الثانية. وسرعان ما انطفأت! لم يفهم منها شيئًا، نفض رأسه مُحاوِلاً استجماع أو استحضار أي مشهد آخر، لكن على العكس فقد تبخَّر كل ما تذكّره للتوّ. صاح والده مُنتحبًا:

ـ خااااااالد. خالد ابني. خالد. خالد حبيبي!

لم يفهم شيئًا واكتفى فقط بالنظر إليهما غير مستوعب ما يحدث أمامه، شادية أيضًا لا تقل عنه دهشة، لم يمر أكثر من ثلاث دقائق حتى دخل الغرفة البائسة خميس وأخوه جمعة. من بعدهما مريم ثم رجب المنجد، دخل الواحد تلو الآخر حتى امتلأت الغرفة عن آخرها. تساءلوا فيما بينهم من هذان الرجلان اللذان جاءا؟ وماذا يقربان لجرجس؟! وهل بالفعل صادقان؟؟؟ وكيف يكونان صادقين وهما مسلمان بينما جرجس

مسيحي! آلاف من الأسئلة التي كانت تجوس في عقولهم، أسئلة تفتقر لإجابات، فبادر جمعة بسؤالهما.

ـ إنتوا تقربوا لجرجس إيه يا جدعان؟

أضاف خميس: وإيه اللي يثبت لنا إنهم قرايبه. مش يمكن يكونوا جايين يئذوه أو يكملوا عليه لما عرفوا إنه ماماتش؟ (التفت إلى شادية وسألها) رجعتيهم الحارة تاني ليه يا شادية؟

ـ استهدوا بالله بس أما نسمع من الجدعين. أكيد هم..

نهض محمود وهو ينظر لهم جميعًا وأطلق من فيه سهمًا أصابهم جميعًا في أعماقهم.

ـ جرجس مين يا مجانين يا ولاد المجنونة؟؟! اللي معاكم بقاله شهرين ده رئيس مباحث، المقدم خالد، المقدم خالد سليمان الكحكي.

ساد الصمت وانساب بينهم لدقيقة وبضع ثوان، ظلوا ينظرون لبعضهم البعض وهم في غمرة الذهول والاندهاش، ما بين حقيقة ما قاله محمود وبين شكَّهُم في صحة كلامه. أخرج والده هاتفه وعرض لهم صوره ببدلة الشرطة، وصورة أخرى يظهر فيها بطبنجته الميري وهو يصوب تجاه هدف. كان الفارق بين الشخص الذي في الصور وبين جرجس الماثل أمامهم ليس كبيرًا للدرجة التي تجعلهم لا يصدقون أنه هو. تكالب كل الحاضرين وتدافعوا فيما بينهم كي يشاهدوا «جرجس» ببدلة الضابط وعلى كتفه نجمة ذهبية يحلق فوقها نسر ينظر يمينًا في شموخ! فبهتوا جميعًا وأطرقوا، باستثناء جمعة الذي سألهم بانكسار:

ـ وإيه المطلوب دلوقت يا بهوات؟

فأجابه محمود مندهشا بعدما أطلق ضحكة قصيرة: يعني إيه مش فاهم؟! المطلوب إن أخويا هيرجع معانا طبعًا.

ـ طب مش يمكن يخلق من الشبه أربعين؟ ممكن يكون واحد شبهه.

قالت شادية في يأس فرد عليها سليمان بصوتٍ محشرج:

ـ شبه أربعين إزاي؟ ده ابني وماتوهش عنه لو بين عشرة مليون، ماعرفش قصة الصليب والوشم اللي على دراعه ده لكن الوحمة اللي جنب حاجبه دي بتاعته. وتحبي أدي لك دليل كمان؟ فيه جرح في جنبه اليمين، جنب سرته، (استطرد موجهًا كلامه لخالد) يلا قوم بينا يابني، أمك تعبانة وبتموت عاوزة تشوفك.

كان خالد جالسًا على حافة السرير في استكانة، مطأطئًا رأسه، مستندًا براحة يديه على ركبتيه، فاغرًا فاه محاولا تذكُّر أي شيء مما قالوه، نظر في بطء لوالده وطلب منه أن يرى الصور التي على هاتفه، أخذ يرى الصورة تلو الأخرى لا يدري هل يبتسم ويفرح ويتهلل بما يراه؟ أم يعبس فيزيد حزنه حزنًا على أحزانه. لا يدري ما هو الإحساس المناسب الذي يجب أن ينتابه الآن، مشوش لا يعلم أين كان وماذا سيكون مصيره. سأل محمود الذي ينظر له مبتسمًا:

ـ طيب حضرتك دلوقت هتعملوا إيه؟

شهق محمود وانحنى يقبل رأس أخيه ويديه، الواحدة تلو الأخرى، قائلا:

ـ يا نهار أسود. إنت يا خالد بتقول لي حضرتك؟! ألف سلامة عليك يا أخويا يا حبيبي. أنا أخوك الصغير محمود. إزاي مش فاكرني

بس؟! لكن مش مشكلة كل حاجة هتتعالج وهتبقى تمام، وهترجع زي الأول وأحسن يا حبيبي.

استطرد والده مبتسمًا رغم الدموع التي تسيل من عينيه: حمد الله على سلامتك يابني.

رغم أن لقاءهما به على عكس المتوقع لديهم، حيث كانا يتوقعان أنه بمجرد أن يراهما سيرتمي في أحضانهما ويبكي، لكنهما لم يعيرا لهذا الموضوع اهتماما؟ همَّ خالد ليقف فاحتضنه والده فاحتضنهم محمود وضمهم بذراعيه، بدا خالد كشخص مسلوب الإرادة، لا يدري ماذا يقول لهم سوى:

ـ مم... ممكن تستنوني تحت نص ساعة عشان عاوز أتكلم مع الناس دي شوية؟

ـ ناس مين؟ سأله والده مستغربًا، فنهض خالد وفتح ذراعيه ليضعهم على كتفي خميس وجمعة:

ـ الناس دول، أهلي، اللي آووني وعالجوني وخلوا بالهم مني الفترة اللي فاتت. الناس دول اللي معاهم حسيت إني في أمان.

ـ إزاي في أمان وإنت متعوّر ومتبهدل بالمنظر ده؟!

ـ ده موضوع كبير يطول شرحه سعادتك. ممكن بس تنفذوا لي طلبي وتنتظروني تحت شوية وأنا هانزل لكم على طول.

أطرق والده رأسه في أسى قبل أن يقول له: سعادتك؟! طب ماتتأخرش علينا يابنى. عشان والدتك.



جلس سليمان على درجات السلم منتظرًا ابنه، أما محمود فوقف وسط الحارة مُنتصِب القامة، جذلاً مُبتهِج الملامح، اتصل بغادة ليبشرها ويؤكد لها أنهم وجدوا زوجها بالفعل وسيصحبونه إلى المنزل بعد ساعة، واتصل أيضًا بمؤمن حربي الذي تهلَّل لسماع الخبر وطلب منه رؤيته الآن وليس بعد قليل، فأخبره محمود أنه سيكون في الزمالك بعد ساعة، وطلب منه ألا يستغرب من أي رد فعل يصدر من خالد لأنه فيما يبدو فاقد للذاكرة.

في نفس الوقت الذي كان فيه خالد بالأعلى مع أهل الحارة ينظر لهم نظراتٍ لا معنى لها. بدت وجوههم شاحبة، ينظرون إليه بعيونٍ زائغة في حسرةٍ وحزنٍ دفين، يبكون، يبكون لفراقه، جرجس، أو المقدم خالد منذ تلك اللحظة لن يكون معهم، الشخص الذي كانت عيناه تلتمعان بالبراءة، بنظرات خالية من أي حقدٍ أو غل. هذا الشخص لن يبيت في كنفهم بعد اليوم.

ـ تفتكروا إني ممكن أنساكم؟ تفتكروا إني بمجرد ما أمشي مع الناس اللي تحت دي مش هاجيلكوا تاني وأودكم؟؟ لو هنتكلم على الأهل فأنا معتبركم أهلي الحقيقيين. أنا رايح لمجهول مش عارف الناس دي مين. آه أهلي. لكن أيامي الجاية هتبقى عاملة إزاي؟؟ مش عارف. هاجيلكوا تاني.

علا نشيجهم فغطى على صوته، فاستطرد بصوتٍ أعلى.

ـ هاجيلكوا تاني يا أغلى أهل في حياتي. عمري ما هانساكم حتى لو فقدت مليون ذاكرة غير ذاكرتي.

كان ذلك قبل أن يحتضنهم كلهم وبكى، فارتفع صوت بكائهم وهم

يشيّعونه. إلى أن انتهى من مصافحة آخر شخص، ونزل للذهاب مع والده وأخيه. للذهاب إلى المجهول. كما خُيِّلَ إليه.

فكر محمود أن يذهبا قبل أي شيء إلى أحد المحال الراقية بالزمالك لاستبدال هذه الملابس الرثة البالية، بملابس أخرى جديدة، حتى لا تصاب والدته بالصدمة حينما تراه هكذا. لكن هذا ليس الأمر الذي كان يشغل بال والده، فهو يحمل همَّ رد فعل خالد حينما يرى والدته، والعكس، كان يخشى ألا يحتمل قلبها فرحة عودته إليها بعد غياب، ظنًا منها أنه ميت. أو لا يتذكرها ويعاملها كغريبة ففي هذه الحالة سوف لا يحتمل قلبها أيضًا. فدعا الله أن يمر لقاؤهما على خير.

حينما ارتدى خالد الملابس الجديدة ونظر لنفسه في المرآة، ابتهج فؤاده. شعر أنه شخص غير هذا الذي كانه منذ ساعات، في الوقت الذي كان يستبدل فيه ملابسه كان محمود يتحدث إلى غادة التي اتصلت به واعتذرت عن الحضور الليلة، متحججة أنه من الأفضل أن يبيت الليلة في أحضان أسرته وبالأخص والدته. وأيضًا كي تهيئ مصطفى وداليا نفسيًا للخبر. فوافقها محمود الرأي دون الدخول في أية تفاصيل. وانشغل بعدما أغلق المكالمة بمظهر أخيه الذي خرج من غرفة «البروفة» إنسانا آخر.

أيمكن لبضعة ملابس أن تغير إنسانا من شخص إلى شخص آخر؟! أم هو شعور داخلي يعتري الإنسان فقط؟

ذهبوا بعد ذلك إلى مركز تجميل كي يحلق ذقنه ويهندم شعره، في نفس الوقت الذي خرجوا فيه من مركز التجميل اتصل مؤمن حربي بمحمود يخبره أنه في الزمالك ويسأله أين هم. فقال له أنهم أمام محطة

الوقود فكان أمامهم بعد دقيقتين. نزل من سيارته وصافحهم. وهو معلق نظره على خالد. مُحدقًا فيه، مُندهشًا لهيئته التي لم يعتد عليها، ومن رد فعله حينما رآه!

ـ خالد. خالد إنت مش فاكرني؟ أنا مؤمن حربي حبيبك وصاحبك.

ظل خالد ناظرًا له وقد شعر في قرارة نفسه أن وجهه ليس غريبًا عليه، ونبرة صوته مألوفة أيضًا. لم ينطق بكلمة فاستطرد مؤمن:

ـ أنا اللي ماسك التحقيق في قضيتك. نسيت لما إنت طلعت الأول في ضرب النار وأنا كنت التالت؟ نسيت لما...

قاطعه سليمان برفق: ماعلش يامؤمن يابني. ممكن تشرفنا بكرة في البيت نتكلم على رواقة؟ عاوزين نروح لوالدته قلبها واكلها عليه.

لم ينزل مؤمن عينيه من عليه وما زالت الدهشة مرسومة على ملامحه. لحظات وهز رأسه بأسى:

ـ هاقول إيه بس؟! فقد الذاكرة؟؟ يانهار أسود! ماشي يا جماعة أنا مش هاطوّل عليكم. وألف سلامة عليك يا خالد!

ركبوا السيارة متجهين إلى منزلهم، ظل محمود ووالده يتحدثان إليه طوال الطريق ويذكرانه بوالدته، ويعرضان عليه بهواتفهم صورًا تجمعها به. حتى وصلوا إلى البيت.

دخل محمود وأبوه أولا ونظرا وراءهما فوجدا خالد واقفًا عند عتبة الباب من الخارج ينظر إلى إطار الباب الخارجي، طلبا منه الدخول، وأمسك والده يده برفق، مبتسمًا، ليدخل، فخطا خالد أولى خطواته المترددة.

كان قلبه يدق بقوة حتى كاد ينفجر داخل صدره. بمجرد أن تخطَّى

عتبة الباب وخطا الخطوة الثانية، أدار طرفه في أنحاء المكان فشعر ببعض الطمأنينة تُغلّفه، أحسَّ أنه على مقربة من شخصٍ طالما تاقت إليه نفسه. هاجمت أنفه رائحة مميزة يعرفها جيدًا ويألفها، رائحة الأثاث؟ ربما! عبق الزمن المعلق على الجدران؟ ربما! الرائحة المنبعثة من حجرة أمه؟؟

تلك الحجرة التي التفت لها دون أن يدلّه أحدٌ إليها. بل دلَّه قلبه إلى أن داخل هذه الحجرة شخصا يتذرع شوقًا للقائه، مُتلهفًا لرؤيته. لكن من هو هذا الشخص؟! لم يكن يدري. ظل واقفًا على بعد خطواتٍ من الحجرة يرمقها، همَّ والده ليتكلَّم، لكن محمود أشار بكفه أن يسكت، ليعطيه مساحة من الوقت كي يتذكر كل شيء بمفرده. فانطبقت شفتاه على ما كان سيهمَّ بقوله.

خطا خالد نحو الحجرة بخطواتٍ مُتَّئِدة، دلف فوجد والدته نائمة، وقد بدا على جسدها الأرق والنحول بعدما أرهقه المرض. ذراعها اليمنى مُمَدَّدة بجانبها، واليسرى فوق صدرِها. سمع صوت أنفاسها المُضطربة، تشهق النفس مُتقطّعًا كأنها تبكي، فتتعاظم شهقاتها قبل أن تخرج من صدرها لتزفره بصوتٍ محشرجٍ حادٍ من حلقها. أخذ يرتعش حين شعر بألمٍ قويٍّ شجَّ رأسه فضغط على جانبيه بإصبعيه الإبهام والوسطى مُغمِضًا عينيه، فرأى في ظلمة جفونه سيدة جميلة، شقراء، ذات شعرٍ بنيّ اللون، مرفوعًا بقَّصَّة «ألاجرسون» ومربوطًا برباطٍ أبيض ستان، ترتدي ملابس رسمية، عائدة بسرعة من إحدى المحاضرات التي كانت تلقيها بكلية الآداب جامعة حلوان قسم تاريخ، وكانت قد وعدته بأن تشتري له في هذا اليوم ملابس ضابط والذهاب وهو يرتديها إلى ملاهي «السندباد».

رأى سيدة أربعينية ترتدي نظارة طبية سميكة، وقد هاجمت وجهها تجعيدتان أو ثلاث، والشعر أضحى مُرسلاً على كتفيها يتخلله بعض الشيب عند فوديها، تعطيه شرائط كاسيت لعمرو دياب ومحمد فؤاد.

رأى سيدة هَرِمة، ترتدي على رأسها «بونيه صوف»، تُقَبِّل جبينه يوم زفافه. رأى سيدة جفول، لوى الزمن يديها على عُكازٍ ذي أربعة أرجل، تستند عليه لتذهب إلى الحمَّام. سيدة، نائمة! ذراعها اليمنى مُمَدَّدة بجانبها، واليسرى فوق صدرها، تصدر شهيقًا وزفيرًا بصوتٍ بعث في قلبه نغزة قوية آلمته. فاعتصر، واهتصر.

أدرك أن تلك السيدة التي رآها وهو مُغمِض عينيه لنصف دقيقة. هي، أمه.

ما إن تذكرها حتى بكى بسبب هذه الحالة التي رآها عليها، استنبط محمود أنه تذكرها، اقترب منه هامِسًا في أذنِه:

ـ من يوم ما عرفت إنك اتقتلت وهي على الحال ده، جالها جلطة، نصها اليمين مابقاش يتحرك، ومابقتش تعرف تتكلم. وبتتعالـ...

لم يُكمِل محمود كلامه حتى طأطأ خالد رأسه فأجهشت نفسه وذرفت دموعه، بكى بصوتٍ عالٍ فأيقظها نشيجه المحزون، فتحت عينيها، رأته ماثلاً أمامها، دلَّها قلبها عليه لأول وهلة، همَّت بالنهوض مُستنِدة على كوعها الأيمن وفتحت له ذراعيها فارتمى في حضنها بلا تردد وضمَّها إلى صدره بقوة واضطرام، فربتت على ظهره بكفيها مُتمتمة بكلمات غير مفهومة لثوانٍ، شعرت أن قلبها لا يستطيع تحَمُّل الفرحة التي تعتريها، شعرت أنه كاد ينفجر من قوة ضخ الدم فيه، حتى نطقت اسمه كاملاً: خالد. خالد.

أخذ بدنه يرتجف، فبكيا لبكائهما أخوه وأبوه، خصوصًا بعدما اكتشفا أنها علاوة على النطق، استطاعت، بشكلٍ كامل، تحريك نصفها المشلول.



عودة خالد إلى حضن والديه أضفى إلى البيت بهجة كانت مفقودة، كان الكل مُبتهجًا مُستثارًا، فأصبحت الفرحة فرحتين، الأولى بعودة المفقود، والثانية باسترداد والدته صحتها لرؤيته، لم يشعر محمود بالضجر لأنه تذكر والدته دونه، بل كان متأكدًا ـ بصفته أخاه ـ أن قدرته العقلية قوية بما يكفي ليمرّ بهذه الحالة سريعًا، و ـ بصفته طبيبا نفسيًا ـ كان متأكدًا أن حالته سهلة العلاج بناء على ما تذكره حتى الآن، وانتوى في قرارة نفسه أن يعرضه على أحد أكبر أطباء المخ والأعصاب ليتابع حالته.

لم ينم أحد في هذه الليلة، أما والدته التي كان حنينها إليه حارقًا مُتقدًا في صدرها، ظلت تحتضنه بين الحين والآخر تُقبِّل يده فيسحبها بسرعة ويُقبِّل يديها وقدميها، تمسّد شعره القصير فتتحسّس بإصبعها الجرح الواضح برأسه، وتقع عيناها على الوشم المرسوم على ساعده. فتعبث بفضولها آلاف الأسئلة لكنها تؤثر الصمت. فيرتئي لها أن الوقت ليس مناسبًا لمثل تلك الأسئلة.

أذَّنَ الفجر. ذهب الأب ليتوضأ ويصلي الفجر ويشكر الله. أما محمود الذي شعر بالعناء والإرهاق مما بذله من جهدٍ في هذا اليوم

العصيب، سأله وهو يتثاءب: مش هتنام يا خالد؟

ـ لا شكرا يا أستاذ محمود، أنا قاعد هنا جنب ست الكل للصبح، ولو نمت هانام جنبها، تحت رجلها.

ازدرد محمود الجملة على مضض قبل أن يرد عليه بكمدٍ وغم:

ـ أستاذ محمود؟؟! ماشي، ماشي يا خالد!



صباح اليوم التالي.

استيقظ الوالد فأيقظ محمود الذي دخل ليوقظ والدته وخالد النائم على الأرض بجوار سريرها، مصدرًا شخيرًا ينم عن أناةٍ بعد إنهاكٍ وعناء. رأى أشياءً كثيرة في أحلامه، مشاهد عاشها قديمًا مع والديه وأخيه، حاول أن يستجمع منها شيئًا حينما استيقظ لكنه لم يستحضر سوى الفُتات. قبَّل يد أمه، ولثم مفرق شعرها. أخبرهم محمود أن الخادمة انتهت من تحضير الفطور، وأتت بصينية بها أكل خاص بوالدته لكن خالد أصرَّ أن تجلس معهم على السفرة وأمر الخادمة أن تضع الصينية على السفرة بالخارج.

أمسك يد والدته برفق فوقفت على قدمين مرتعشتين لم تتحملاها فسقطت، دلَّك نصفها الأيمن قليلا قبل أن يرفعها مرة أخرى برفقٍ فأسندت مرفقها إلى راحته ووقفت ثم خطت خطوتين، فالثالثة والرابعة. على مرأى من والده وأخيه اللذين ارتسم على محياهما البهجة والحبور لما يحدث أمامهم، إلى أن أجلسها على كرسي السفرة الممتلئة بشتى أنواع

الطعام الفاخر، والذي ذُهِلَ حينما رآه، شرد متذكرًا حينما كان يستيقظ صباحًا، يشتري ثلاثة أقراص طعمية وبجنيه باذنجان مقلي وأربعة أرغفة، يجلس في القهوة ليأكل في نهم ويشرب بعدها كوب الشاي ويبدأ يومه في العمل. انتبه لما حوله حينما سأله والده:

ـ مالك يابني سرحان في إيه؟ فيه حاجة على السفرة مش موجودة تحب نجيبها لك؟

هزَّ خالد رأسه مبتسمًا في أسى ممزوج بالاندهاش:

ـ لا يا كبير الأكل زي الفل.

ـ كبير؟! للدرجة دي ثلاث أربع شهور يمسحوك يابني؟ يمسحوا خالد؟ المقدم خالد سليمان الكحكي. رئيس المباحث اللي كان بيتهز شنبات لما يسمعوا اسمه! معقولة كل...

قاطعه محمود في عجالة:

ـ بابا. الكلام ده مالوش لازمة دلوقت. إحنا دلوقت بنفطر. هنكمل كلامنا بعد الأكل.

مدَّ محمود يديه مُلتقِطًا طبقًا فارغًا ووضع فيه قطعه جبن شيدر مطبوخ بجانبها كمية قليلة من البيض. وطبقاً آخر به مربى، وخبز. وطلب من خالد أن يبدأ في تناول الفطور لكنه كان شاردًا تمامًا، سأله عمَّا به فأجابه مبتسمًا: إنت قلت من شوية هنكمل كلامنا بعد الأكل؟

ـ آه قلت كده. أجابه مبتسمًا، مستنبطًا أنه قد تذكّر شيئًا ما. سرح خالد لثانيتين قبل أن يستطرد:

ـ بابا زمان، زمان واحنا صغيرين، كان دايمًا بيقول لنا ممنوع الكلام على الأكل، وإننا نأجل أي كلام لبعد الأكل؟

ـ آه يا حبيبي كنت باقول كده. صاح بها والده وقد كسا وجهه فرحة عارمة لا تقل عن تلك الفرحة المرسومة على وجه والدته، أشار لهما محمود بيده أن يصمتا وسأل خالد بإخاء: ها يا خالد. وإيه كمان كان بيقوله لنا؟

نظر له خالد بعينين نصف مغمضتين محاولا تذكر أي شيءٍ آخر، هزَّ محمود رأسه تشجيعًا، وحرّك سبابته دائريًا يستحثه أن يتذكر وساعده بالتقاط زجاجة مياه. ابتسم له خالد ابتسامة عذبة كابتسامة طفل صغير مُحاولاً تذكُّر ما يرمي إليه، لكنه لم يستطع، أعانه أكثر وأمسك بيده الأخرى كوب ماء، وصدمها بالزجاجة فأحدثت صوتًا عاليًا، وصبَّ الماء محدثًا صوت عال ناظرًا لأبيه الذي فطِنَ إليه ونهره مُزجِرًا:

ـ أنا قلت كام مرة يا ولد يا محمود ماتخبطش الإزازة بالكباية وماتصبش المية بالطريقة دي وتخليها تعمل صوت؟!

وقف خالد فجأة رافعًا سبابته، ونظر لأبيه صائحًا:

ـ أيوه صح يا بابا. إنت كنت بتقول لنا كده فعلا واحنا صغيرين. وكنت بتقول لنا كمان لما نقدم لحد كوباية المية...

أمسك كوب الماء من الأسفل وأعطاها لوالده مردفًا:

ـ لما نقدم لك كباية المية نمسك الكباية من تحت مش من فوق.

مدَّ والده ليأخذ منه كوب الماء وقد ارتسمت على وجهه فرحة لم يسعها قلبه، بينما صفقت له والدته بفرحةٍ عارمة، ونهض أخوه واحتضنه، في الوقت الذي رنَّ فيه هاتفه، وكان المتصل غادة! أخذ الهاتف وأشار لهم أن يكملوا فطورهم قبل أن يدخل إحدى الغرف ليتحدث معها:

ـ أيوه يا غادة.

ـ إزيك يا محمود. كنت عاوزة أسألك. إيه اللي أكد لكم إن اللي لقيتوه ده خالد مش حد تاني؟

ـ اتأكدنا من كذا حاجة. وإنتي لما تشوفيه هتتأكدي إنه هوَّ. أنا مقدَّر صدمتك. ومش عاوزك تتخضي لما تشوفيه. وماتخليهوش يحس بده. خلي بالك هو شكله متغيَّر شوية. وكمان فاقد الذاكرة.

ـ ..

ـ غادة. إنتي معايا؟؟؟

ـ آه معاك. قالتها بصوتٍ محشرج.

ـ إحنا منتظرينك. على فكرة هو مايعرفش إنه عنده أولاد، مايعرفش إنه متجوز أساسًا. عرَّفتي الأولاد إن باباهم عايش؟

ـ لا لسه. هاقول لهم في السكة.

ـ لالالا اوعي تقوليلهم. قولي لهم إنك جاية لنا بحجة إنك عاوزة تشوفينا وتتطمني علينا وكده.

ـ إيه الحكمة يعني؟!

ـ الصدمة اللي هيتصدموها لما يشوفوه، ممكن تنعكس عليه فيفتكر أي حاجة. فاهماني؟

ـ لأ.

ـ مش مشكلة، المهم تعملي زي ما قلت لك. يلا ماتضيعيش وقت. مستنيينك.

أغلق الهاتف، فورده مكالمة أخرى وكان المقدم مؤمن الذي أخبره أنه في الطريق مع أصدقائه الذين يريدون الاطمئنان على خالد، فرحب بهم، ثم عاد ليكمل فطوره معهم، جلسوا بعدها في غرفة المعيشة يتبادلون

أطراف الحديث، بمجرد دخول خالد غرفة المعيشة ورؤية التلفاز الكبير الموضوع في الواجهة أضاء في عقله مشهد آخر لقاء دار بينهما حينما كانا يوبّخانه، وسرعان ما انقطع سيل الذكريات حين سألته والدته بلسانٍ ما زال ثقيلا:

- قول لي بقى يا حبيبي إيه موضوع الوشم اللي في دراعك ده؟ رسمته إمتى وفين؟ وريهوني كده؟

مدَّ لها ذراعه فصاحت: صليب وجرجس والعذراء! يانهار أسود! إيه ده يابني مش فاهمة حاجة.

أجابها: ولا أنا يا أمي.

تدخَّل محمود: بصوا يا جماعة، موضوع الصليب والوشم ده أنا حاسس إنه موضوع كبير، لكن بمنتهى البساطة خلوني أقول لكم إن خالد اتعرض لمحاولة اغتيال غامضة، غامضة جدًا، وده هنسيبه للداخلية، وللمقدم مؤمن اللي ماسك القضية.

لم يكمل جملته حتى سمعوا طرق الباب فأسرعت الخادمة نحو الباب وأردف محمود: ده أكيد هوَّ اللي بيخبط ده. المهم يا خالد يا حبيبي هاقول لك حاجة مش عارف إنت فاكرها ولا لأ. أنا دكتور نفسي، ومش قلقان من حالتك ومتأكد إنك هتفتكر كل حاجة.

- ماهو أنا كشفت عند دكتور من يومين وطلب مني أشعة وتحاليل. والمفروض هاروح له بعد أربع أيام يشوفهم ويقول لي عندي إيه بالظبط.

- لالالا سيبك منه. إحنا هنوديك لأكبر دكتور مخ وأعصاب في مصر. هيكتب لك شوية أدوية لإنعاش الذاكرة مع شوية تمارين هتبقى زي الفل، ولو تطلب الأمر إني أبعت أجيب لك دكتور من أمريكا مش

هاتردد. حالتك ليها تلات جوانب، جانب نفسي، وده اللي هاقوم بيه، وجانب عضوي وده هيبقى مهمة دكتور المخ والأعصاب.

قاطعه مؤمن حينما دخل مع الأصدقاء: والجانب التالت يا دكتور؟

أجابه محمود وهو يصافحه وينظر إلى خالد: الجانب التالت هيبقى مهمة خالد. استجابته للعلاج واستعداده إنه يفتكر كل حاجة. وأنا متأكد إن أخويا قوي وهيعدي المحنة دي. خير إن شاء الله.

نهض خالد وصافح مؤمن بفتور لا إرادي فما زال لا يتذكره، صافح بعدها أصدقاءه الذين دهشوا حينما رأوه هكذا، خرج محمود مع والديه ليتركوا خالد معهم علَّه يتذكر المزيد من حديثهما معه. وأخبرهم مؤمن أن وزارة الداخلية نشرت خبر عودته في جريدتي الأهرام والأخبار.

طلب مؤمن من خالد أن يحكي له كل شيء حدث له من الألف إلى الياء حتى يستطيع التوصُّل إلى الجناة، فسرد له خالد قرابة الساعتين كل شيء تقريبًا إلى أن دخل محمود وطلب منه أن يتركوه الآن كي لا يرهق ذهنه أكثر من ذلك، فأومأ رأسه مجيبًا ونهض هو والزملاء ليرحلوا على أن يكمل حديثه معه منفردًا في وقت لاحق. وانصرفوا.

في نفس الوقت الذي وصلت فيه غادة مع أولادها وقابلت مؤمن عند باب المنزل، فالتقت عيناهما بنظراتٍ لا معنى لها فنزع مؤمن عينيه من عليها وانصرف مع زملائه.

دخلت غادة مع داليا ومصطفى وصافحت محمود ووالديه الذين أخبروها هامسين أن خالد داخل غرفة المعيشة، فدخلت لترى هذا الشخص الذي نبت لها من عدم، وظهر في حياتها مرة أخرى، ومعها طفلاها اللذان ليس لديهما أي فكرة عما سيشاهدانه، الآن.

دخلوا فنهض خالد ولم يلتفت قط لغادة، بل لفت انتباهه مصطفى وداليا اللذان تسمَّرا ينظران إليه غير مصدقين! ظلا هكذا لنصف دقيقة، ينظران إليه وينظر إليهم إلى أن صاحا في نفسٍ واحد:

ـ بابا. بابا.

أفلتا يديهما من يد غادة وركضا نحوه ليحتضناه وما زالا يرددان نفس الكلمة وهما يبكيان «بابا. بابا حبيبي»

لم يشعر إلا وهو ينحني راكعًا على ركبتيه، أشرع لهما ذراعيه على امتدادهما فضمهما إلى صدره وقد شعر بتيارٍ جارفٍ من الحنانِ قد غمره، أغمض عينيه فتذكَّر مواقف كثيرة حدثت له معهم، مشاهد لم تكتمل، مشاهد لم تتعد أكثر من ثانيتين تُعاد في ظلمة جفونه من تلقاء نفسها، شعر بألمٍ يدك رأسه كاد أن يفجّرها ويحولها إلى أشلاء، ظل مُغمِضاً عينيه لدقيقة تعاد المشاهد في ذاكرته، بينما تقف غادة رافعة حاجبيها في ملل تشاهد ما يحدث أمامها بعينين مرتخيتين خاليتين من أي تعبير، دون أن يصدر منها أي رد فعل يدل على أي إحساس ينتابها.

فتح عينيه وأبعدهم عن حضنه وأخذ ينظر لهم يُمَلِّي عينيه منهم، بينما الألم يزداد في رأسه، وأخذ ينخره نخرًا إلى أن سقط أمامهم على الأرض فجأة فارتطمت رأسه بقوة بالكومود. هرع إليه والده وأخوه مع أولاده ليحملوه ويضعوه على الأريكة، بدا في هذه اللحظة كقطعة قماش مُبتلّة، لا تملك من أمرها شيء. جسَّ أخوه بسبابته وإبهامه وريده فوجد أن النبض سريع نوعًا ما، وحرارته قد ارتفعت قليلا. أمر الخادمة بإحضار كمّادات، طالبًا من أولاده وزوجته أن يستريحوا بالخارج.

في الوقت الذي رنَّ فيه هاتف غادة لتجد أن المُتصل أمجد، انتحت جانبًا بالخارج لتجيبه:

ـ أيوه يا أمجد إنت إيه مابتفهمش؟ مش قلت لك ماتتصلش خالص؟ تتطمن إيه وزفت إيه ما تسمع الكلام بقى. أيوه طلع هوَّ، لأ ماماتش ولا حاجة. اوعى تتصل بيا الفترة دي خالص أنا اللي هابقى أتصل بيك. باي.

أغلقت الهاتف نهائيًا وجلست بجوار أولادها الذين أخذوا يبكون بكاء متواصلا فطلبت منهم بعصبية أن يكفّوا عن البكاء، بينما ظل محمود بالداخل يحاول إفاقة خالد ويضع كمّادات على جبهته، فاستفاق بعد عشر دقائق قائلا بلسان كسول: «داليا. مصطفى. أولادي. سامحوني». ثم نهض فجأة كأنه صُعِق، ناظرًا يمينه ويساره مُردّدًا بلهفة: «داليا. مصطفى. داليا.» فهرعا إليه واحتضناه وهما يبكيان ويقبّلانه، فأخذهما في حضنه مرة أخرى، بينما سألت غادة الواقفة عند الباب عاقدة يديها أمامها:

ـ هل بقى يا محمود الخبطة اللي اتخبطها في الكومودينو دي هترجّع له الذاكرة؟

أجابها محمود: مع إن الأفلام العربي لحست دماغ الناس. لكن ليه لأ؟

ـ طب تفسر بإيه يعني افتكر الأولاد ومافتكرنيش؟

ـ ده شيء وارد برضو، أنا باكلمك كدكتور نفسي، لكن هنعرف أكتر كل ملابسات حالته لما نروح بيه لدكتور مخ وأعصاب. المهم الفترة اللي جاية متوقف عليكي حاجات كتير.

ـ متوقف عليا أنا؟! زي إيه؟ قالتها بسخرية فأجابها محمود متغاضيًا على مضض عن سخريتها.

ـ هاقول لك، بس مش دلوقت. همس في أذنها «روحي احضنيه مع الأولاد».

نظرت له نظرة لا معنى لها ثم خرجت لتجلس في الصالة.



خرجت لتجلس في الصالة بعدما فشلت بغرفة نومها في النعاس قتلاً للوقت، تتقلب يمينًا ويسارًا في ملل، استيقظت وقت ذهابها للمستشفى لكنها لم تذهب، وهاتفت إحدى صديقاتها من الممرضات كي تحل محلَّها في نوبتها الصباحية، ظلت تفكر في هذا اليوم حالك السواد الذي جاؤوا فيه ليأخذوه منها هكذا بكل سهولة!

جاؤوا. فأخذوه!

نهضت متأففة لتحضر شيئًا تشربه فوقفت شاردة أمام موقد الغاز والمياه تغلي في البراد أمامها لكنها لم تلتفت لها إلا بعدما تبخرت تمامًا، أغلقته وفتحت الثلاجة لالتقاط... شعرت باختلاجة اعترت قلبها وجسدها.

ماذا كانت تريد أخذه من الثلاجة؟! لم تتذكر، بل لم تحاول التذكر، شردت. وشردت.

أمس، في مثل هذا الوقت كان المنزل عامرًا بأنفاسه، رائحته التي كانت تهاجم أنفها فتتنسم معها نشوة قربه، صوته الذي كان يدوي في مسامعها فيدغدغ أحاسيسها ويدق قلبها. نظرة عينيه التي كانت تشعر فيها بحنان العالم يعتريها. سألت نفسها «كيف كانت تسعى هنا وهناك

بحثًا عن أهله، وكيف ترددت في اصطحاب والده وأخيه له، لماذا كل هذا الندم الممزوج باللوعة والحزن على فراقه. هل أحبته بالفعل؟! أم مجرد شهوة؟ هل هو مسلم أم مسيحيّ؟ ترى ماذا يفعلون به الآن؟ هل..»

انتبهت من شرودها وأغلقت الثلاجة! وضعت على رأسها طرحة وصعدت إلى السطح بدون تفكير، دخلت غرفته وأغلقت عليها الباب من الداخل، نزعت كل ملابسها ووقفت أمام سريره عارية، عانقت الوسادة التي كان ساندًا رأسه عليها بالأمس، استلقت على بطنها فاشتمّت رائحته المنتشرة على السرير كله، لم تكد تمر دقيقة حتى غفت. وغطَّتْ في نومٍ عميق.

كذلك خميس وأخوه جمعة والأسطى رجب المنجد. ومريم ولوقا حتى أبو شهد الحرامي وكل أهل الحارة، شعروا منذ اليوم الأول بافتقاده والحنين إليه. بالرغم من أنه لم يولد في الحارة، ولم ينشأ معهم ويترعرع بينهم، وبالرغم من أنهم لا يعرفون عنه شيئًا سوى ما أخبرتهم به شادية، لكنهم أحبوه واعتبروه واحدًا منهم.

جلس الأسطى إبراهيم سارينة أمام القهوة طالبًا من خميس حجر معسل وكوب شاي، وقد ارتسمت ملامح الحزن على وجهه حينما تذكّر ما حدث بينهما بالأمس، وحزن أكثر حينما علم أنه غادر الحارة دون إزالة الشقاق الذي حدث بينهما.

الشيء المشترك الذي شغل بالهم جميعًا هو كونه مسلما اسمه الحقيقي «خالد». وكونه ضابط شرطة برتبة مقدم. فمن إذن الذي حاول أن يفعل فيه ما فعل؟ ولماذا؟؟

الشيء نفسه كان يشغل تفكير أخيه ووالديه، زوجته وأولاده، الذين

رحلوا دونه بناء على طلب محمود، لأن والدته لم تكن قد شبعت منه بعد، فطلب من غادة أن يقضوا الليلة معهم لكنها رفضت وآثرت الذهاب على أن يعودوا غدًا ليأخذوه.

قضى طوال اليوم بجانب والدته حتى حلَّ الليل فجلس معها في غرفتها، تبادلا خلال الليل أطراف الحديث، أخذت تذكره بمواقف كثيرة جمعتهما على مدار عمره، منها ما تذكره ومنها ما لم يتذكره فيضحك لكلامها وتعلو ضحكاتهم. إلى أن شعر بالنعاس عند الهزيع الأخير من الليل، فضمَّته إلى صدرها وربتت على ظهره، فشعر بهالةٍ من الراحة والسكينة قد انداحت في قلبه وأحاطته، بعد أن أزاحت عنه غشاء الارتعاب والفزع. فغفا هانئًا قرير العين.

حينما اختلت غادة بنفسها أغلقت الغرفة عليها ومدَّدت جسدها، استلقت لتتلقى في رأسها آلاف الأسهم المُستتِرة وراءها جيش جرَّار من علامات الاستفهام والتعجُّب، لم تجد إجابة لهم، فتولّت هاربة إلى الهاتف لتتحدث إلى أمجد بصوتٍ خافت، لم تستطع سماعه داليا الواقفة وراء الباب، ترهف السمع وتنصت بتوقدٍ وشغف، علَّها تلتقط أي كلمة. إلى أن يئست ودلفت إلى حجرتها لتجد أخاها نائمًا على سريرها يحترق من البكاء، سألته ما به فأخبرها أنه حزين لرؤية والدهم بهذه الهيئة المثيرة للشفقة، فهزت رأسها وأخبرته أنها تشعر بنفس الشيء.

رنَّ هاتفها بتلقيها عدة إشعارات من الفيس بوك، فتحت لتجد شخصا ما ضغط زر «إعجاب» على جميع صورها المنشورة على صفحتها الشخصية. ثمانية عشر إعجابًا متتاليًا لفت انتباهها، همَّت لتدخل صفحته الشخصية فأرسل لها رسالة مُفعَمة بالوله: «بقالي فترة باراقبك على

الفيس بوك وبرا الفيس بوك كمان، معجب بصورك كلها وبالبوستات اللي بتنشريها على صفحتك. ودي حاجة أول مرة تحصل لي. أنا باحبك»

التمعت عيناها وافتر ثغرها عن ابتسامة عذبة فدخلت على صفحته الشخصية مباشرة، أخذت تتصفحها وتشاهد صوره التي يظهر فيها بهيئة جسمانية مفتولة، وبعض الصور بعدة أماكن وسط معدات التصوير. وصورة شخصية عليها ألف وخمسمائة اثنان وثلاثون إعجابًا، يظهر فيها على الشاطئ بشعره الأصفر وعينيه الزرقاوين.



صباح اليوم التالي.

بعدما غادرت سارة منزل صديقتها، أخذت تتسَكَّع في الشوارع، شعرتْ أنها ورقة شجر في منحدرٍ مائيٍّ نهايته شلال ضخم سيلقي بها إلى الهاوية لا محالة. أخذت تتمشي مُتوجّسة، تتلفت يمينها ويسارها خشية أن يراها أحدٌ من عائلتها أو أقاربها. مرَّ بجوارها شاب بسيارته مُهدِئا سرعته وعرض عليها أن تركب معه فعبرت الناحية الأخرى من الشارع فوجدت شابين حاولا التحرش بها بكلماتٍ نابية فتوقفت متقززة مشمئزة من تصرفاتهما حتى ابتعدا عنها، تلفتت حولها فلاحت أمامها ساقية الصاوي، سارعت الخُطى لتصل هناك وتجلس أمام النيل تفكر.

هل ستظل هكذا للأبد؟! مطرودة؟ مُطاردة؟! لم تشعر في قرارة نفسها أنها نادمة على الخطأ الذي اقترفته، قدر ما تشعر أنها إلى أي حدّ صارت هيّنة، مُهانة. حتى تفاقمت بأعماقها الإهانة.

تراشقت في عقلها أسئلة كثيرة؛ ماذا ستفعل الآن؟ ما هو حال أهلها بعدما اكتشفوا هروبها؟ كيف سيكون مصيرها بعد ذلك؟ غامت الدنيا في عينيها ففكرت لوهلة في الانتحار لتخلَص وتتخلَّص مما هي فيه وترتاح، وليحزن من يحزن، وليفرح من يفرح. نهضتْ واقفة على حافة الرصيف المُطِلّ على النيل، هتفت في سرّها «انتحري واخلصي مستنية إيه؟!» تحدث إليها شيء بداخلها يحثها أن تنهي ذلك الأمر وتنجزه الآن، فما هي إلا ثوانٍ وتنتقل إلى عالمٍ آخر، وأيًا كانت طبيعة هذا العالم فمن المؤكّد أنه سيكون أفضل من المَأساة التي تعيشها الآن.

نظرت حولها بتوجُّس فوجدت زحامًا شديدًا بسبب إحدى الحفلات المُقامة هناك، خشيت أن تقفز الآن فيقفز وراءها أحدهم وينقذها، وعندئذٍ يعيدونها إلى أهلها مرة أخرى. ولا تدري ماذا سوف يحدث لها في هذه الحالة. أطرقت رأسها لهنيهة ثم حملت حقيبتها وعلقتها على ظهرها قبل أن تأخذ قرارها.



بعد أن بات بالأمس في حضن أمه، وقد شعر أن جبلاً من الهموم قد انزاح عن كاهله، استيقظ خالد في الصباح على صوت ضجيج أخيه مع الصحفيين الذين توافدوا إليهم في الصباح الباكر، كل منهم حاول أن يقابل خالد أو أحدا من أهله لعمل سبق صحفي، لكن حال محمود دون دخولهم ـ بناء على تعليمات مؤمن ـ وأخبرهم أنه ربما يرتب خلال يومين أو ثلاثة مؤتمرا صحفيا بنادي الشرطة يشرح فيه خالد كل

ما حدث له بالتفصيل، وسيجيب على أية أسئلة لديهم.

انصرف الصحفيون بعدما فقدوا الأمل في الحصول على أية معلومات. سأل بعدها خالد أخاه عن أولاده فأخبره أن مصطفى سيأتي مع والدته بعد ساعتين، وأن داليا اتصلت لتسأل عليه حينما كان نائمًا وستأتي بعد الانتهاء من محاضرتها بالكلية. سأله خالد: مصطفى ابني تعبان. مش كده؟

أطرق رأسه بالإيجاب، زمَّ خالد شفتيه في أسى لأن ما تذكره صحيح لكنه لا يستطيع تذكر ما به، سأل أخاه فأجابه أن لديه قصورا حادا في وظائف الكلى منذ أن كان صغيرًا، ويجري ثلاث جلسات غسيل كلى أسبوعيًا. هزَّ رأسه متفهمًا متأسيًا.

ـ طب وبعدين؟ الفترة الجاية هنعمل إيه يا محمود؟

ـ هنعمل كل خير إن شاء الله، هنروح بكرة نشيل الوشم اللي في إيدك. بعد بكرة هنروح لدكتور المخ والأعصاب اللي قلت لك عليه عشان نبدأ رحلة العلاج.

ـ خير إن شاء الله. أنا هادخل أصحي ماما عقبال ما يسرية تحضر الفطار. أنا اللي هافطر أمي بإيدي النهارده.

دخل ليوقظها لكنها أبت أن تتناول الفطور معهم هذا الصباح، أو أي صباحٍ قادم، أبت أن تستند إلى ذراعه لتذهب إلى السفرة، أبت أن تفتح عينيها، وستظل مغلقة هكذا. للأبد.



في نفس الوقت

بعدما انتهت داليا من محاضرة الكورس، ذهبت مع صديقاتها لأحد الكافيهات، فتفاجأت بعد دقائق بشابٍ مُقبِل عليهن، بهيئته الفارعة وشعره الأصفر المهندم، وعينيه الزرقاوين، مُرتديًا بذلة أنيقة، واضعًا وردة حمراء في جيبه، اقتحم جلستهم وغرس الوردة في شعرها برقة، ومدَّ يده بعلبة قطيفة حمراء اللون، ذُهلن جميعًا من هيئته ووسامته، واندهشن بما يفعله، فتح العلبة التي تحتوي على دبلة ذهبية قائلا لداليا بلباقة:

ـ بقالي أسبوعين باراقبك. ومش هالاقي أجمل وأرق وأفضل منك عشان أكمل معاها عمري. باحبك.

سبعة وتسعون بالمائة من فتيات هذا الكوكب يتمنّين حدوث هذه اللحظة لهن؛ خصوصًا لو كُنَّ يعانين من فراغٍ عاطفيّ. نهضت مذهولة واضعة يديها على فمها بعد أن تعرَّفت عليه، إنه نفس الشاب الذي أرسل لها رسالة على Facebook بالأمس، اتسعت عيناها بشدة من هول المفاجأة، تسارعت دقات قلبها والتهبت روحها بالهيامِ والشغف، رمقت ما حولها لا تدري ماذا تفعل؟ ما هو رد الفعل الطبيعي تجاه تصرف هذا الشاب الجذاب؟! شعرت لوهلة أنها «Kate Winslet» بطلة فيلم تيتانيك، وها هو «Dicaprio» أمامها، لهذا لم تندهش حينما أخبرها فيما بعد أن لقبه في الوسط الفني «هيثم ديكابريو» حيث أنه يشبهه إلى حدٍ كبير. صاحت صديقاتها مشدوهات، غير مستوعبات تلك المفاجأة، بل كل من في الكافيه وقفوا وصفقوا له على الفور. أمسك يدها اليمنى ووضع الدبلة في بنصرها، ثم قبَّل أناملها في رقة وهو ينظر لها بعينيه فأجفلت، واغرورقت عيناها بالدموع ليدق قلبها

معلنًا احتلال هيثم له، ولكل كيانها. أنشأ في غضون خمس دقائق طريقًا يسلكه لها بعد أن شقّه ورصفه وهيأه. ومن ضمن قوانينه أن في سبيل الحصول على مبتغاه من أي فتاة، كل شيءٍ مباح. الأهم أن يكتشف الباب الصحيح لكل منهن.

بعد أن وضع الدبلة في إصبعها انتحى بها في إحدى زوايا الكافيه وحكى لها عما يشعر به، وكيف أحبها. ظلا يتحدثان قرابة ساعتين، كان حديثها يشوبه بعض التوجس - رغم حُسنها وثقتها الكاملة في نفسها - لكنها استغربت ما فعله، خصوصًا أن من المفترض أنه محاط بفتيات كثيرات هم أجمل منها بكثير. سألته عن سبب حبه لها رغم أنه لا يعرف عنها شيئا. فأخبرها أنه يتابعها في الجامعة ومن خلال منشوراتها على facebook وتعليقاتها مع أصدقائها، وأن قلبه المُتيَّم بها لا يحتاج إلى معرفة أي شيء كي يحبها. كان كلامه كالسحر، نزل على قلبها الذي دقَّ بقوة فاعترته سكينة، وانتابته طمأنينة لم تشعر بها من قبل.

رغبت في أن تحكي له عن تجاربها السابقة والتي انتهت جميعها بالفشل فوضع سبابته على شفتيها قائلا لها إنه لا يريد أن يعرف أي شيء عن ماضيها الذي ولّى، والأولى لكليهما أن يتحدّثا في المستقبل الذي هو ملكهما وحدهما. حينما لامس بسبابته شفتيها، أمسكت يده وقبّلت إصبعه قبل أن يتبادلا نظرات، كل منهما يتأمل صفحة وجه الآخر. فتضرجت وجنتاها بحمرة الخجل وأطرقت. حكى لها عن حياته باقتضاب وأخبرها بما ينتوي فعله، وأنه سوف يتقدم لها رسميًا بعد ثمانية أشهر فور الانتهاء من فيلم سيقوم فيه بدورٍ كبير، وسيتزوجها بعدما تتخرج مباشرةً. كانت تسمعه مُبتسِمة فقط دون أن تتفوه بحرف،

وتنظر له بعينين ممتلئتين بحبٍ كان قد أوشك أن يجف في نهر قلبها. إلى أن رنَّ هاتفها فوجدت المتصل غادة، ردت عليها مُتذمرة.

ـ أيوه. نعم!

ـ إنتي فين؟ مش هتيجي معانا عند المحروس أبوكي؟

ـ كلمت عمو محمود وقلت له إني هاخلص الكورس وأروح لوحدي.

ـ المفروض الكورس خلصان من ساعة. إنتي فين؟

ـ كلمت عمو وقلت له إني هاخلص الكورس وأروح لوحدي. أقول تالت؟!

قالتها بجفاء فأغلقت غادة المكالمة في وجهها الذي تغيرت ملامحه وانقبضت، سألها هيثم عما ألمَّ بها:

ـ لا دي ماما بتخنق عليا. سيبك منها، المهم أنا عاوز أقول لك حاجة يا هيثم.

ـ قولي يا سارة. قولي يا حبيبتي؟

ـ أنا خايفة أحبك بالشكل ده. أنا فعلا شكلي كده ووالله أعلم حبيتك. وده مش مُبشر، أنا كنت مقررة أقفل قلبي للأبد، بس إنت جيت في ثواني فتحته. إزاي؟؟! مش عارفة. بس اللي أنا عارفاه كويس إني خايفة تكون بتلعب بيا.

ـ داليا. أنا اختارتك من وسط بنات كتير جدًا، عشان فيكي كل الحاجات اللي باحبها، هافضل أحبك لآخر يوم في عمري وهاكمل معاكي حياتي وهننجح مع بعض ونفضل عايشين مع بعض لحد ما شعرنا يبيض وأموت بعده...

شهقت واتسعت عيناها عن آخرها قائلة بلهفة: بعد الشر عليك. ممممم ماشي يا هيثم أنا هاحاول أصدقك.

أطرق رأسه مبتسمًا ابتسامة يتوارى وراءها غبن وخبث، متخيلا جسدها الغض البض وهي تتلوى تحته وتشهق وتصرخ من نشوة ممارسة الجنس معه. سألته: أنا هامشي دلوقت علشان هنروح نشوف بابا عند جدو.

سألها مُستفهِمًا: ليه هو ماله؟

ـ لأ مافيش حاجة. موضوع كبير هابقى أقول لك عليه بعدين. هات رقمك عشان أرن عليك. وهاكلمك بالليل لما أروح.

رحلت داليا متوجهة إلى بيت جدها لتسمع عند الباب نحيب والدها وجدها وعمها، فأدركت أن جدتها قد وافتها المنية. بينما وصل هيثم شقته انتظارًا للفتاة التي كانت معه في الإعلان الأخير. لم يلق أي صعوبة في طلبه منها أن تأتي لمنزله، بل حينما طلب منها وافقت على الفور، وذهبت له. واضعة في حقيبتها قميص نوم لم ترتده سوى دقيقة وثلاث وعشرين ثانية قبل أن ينزعه ويمارس معها الجنس مرتين.

بعدما انتهى من المرة الثانية، جلس بجوارها وأشعل سيجارة بينما نهضت هي ترتدي ملابسها في عجالة لترحل. بعدما انتهت انحنت وقبّلته قبلة ساخنة قبل أن تهُم بالرحيل، فطلب منها الجلوس ليخبرها بشيء مهم فطلبت منه أن يتكلم في عجالة لأن وراءها عدة مشاوير، فقال لها بهدوء وتريث وهو ينفث دخان سيجارته:

ـ ماكنتش أعرف إنك مش بنت..

ـ ؟!

اندهش وهزَّ رأسه بعصبية مُستفهِمًا: يعني إيه سكوتِك ده؟
ـ إيه مشكلتك يعني بنت ولا مش بنت؟ ربعوميت جنيه وأرجع زي ما كنت وأبقى مية فل وأربعتاشر. وبعدين ده يهمك في إيه؟ هو إنت عاوز تفهمني إنك بتحبني وهنتجوز؟
ـ عارفة أحسن حاجة فيكي إيه؟ إن إنتي صريحة ومتصالحة مع نفسك. المهم. مش ده موضوعنا.
ـ تمام. ادخل في الموضوع بقى يا حبيبي لإني ورايا كذا مشوار وخايفة أتأخر!
ابتسم ابتسامة ماكرة بجانب فمه قائلا:
ـ كل اللي حصل بيننا متصوّر. بتلات كاميرات من زوايا مختلفة. (أشار بسبابته وهو ينظر لها لمكان الثلاث كاميرات ثم أردف) كله كان متسجل صوت وصورة. صمتت هنيهة ثم قالت له وقد انطلقت منها ضحكة ساخرة:
ـ تمام. إيه مشكلتك برضو دلوقت؟!
ـ لا خاااااالص أنا ماعنديش أي مشكلة. كل الموضوع إني محتاج الآيفون اللي معاكي ده، وألفين جنيه، والسلسلة.
ـ ده بالعافية يعني؟!
ـ اعتبريه بالعافية. قالها وهو يهزّ رأسه واثقًا.
ـ ولو ماديتلكش الموبايل والفلوس والسلسلة؟! هتعمل إيه؟ هتنزل الفيديوهات على النت؟
ـ بالظبط. طب ما إنتي ذكية أهو ومش متعبة.
التقطت حقيبة يدها وأخرجت منها «فلاش ميموري» وأعطتها له بهدوء قائلة:

ـ حط الفيديوهات اللي معاك كلها في الفلاشة دي. وأوعدك بعد ما أخلص مشاويري بالليل، أنا اللي هانزلهم على النت وهاقول على الملأ إني نمت معاك.

ـ !!

ـ إيه ساكت ليه؟ مش مصدق؟ تحب أرفعهم لك بإيدي على اليوتيوب دلوقت؟ ما ترد. (قالتها بصوتٍ عالٍ، فارتجف رجفة حاول ألا يظهرها لها، أردفت بنبرة أحَدّ) حُطّ الفيديوهات دلوقت يلا. (اقتربت بوجهها منه ولعقت شفتيه بلسانها قبل أن تهمس) يلا.

ازدرد ريقه بصعوبة وهو يغالب ارتباكه الذي خانه وطفح على وجهه:

ـ لأ، هاحطها أنا بمعرفتي، إنتي فاكراني عبيط أطلع وشي في الفيديو؟؟ ده لسه هيتعمل لّه مونتاج يا حبيبتي.

ـ خايف تطلَّع وشك في الفيديو ليه؟! كنت مكشّر لما كنت نايم معايا ولا شعرك ماكانش مظبوط؟ على العموم مافيش مشكلة. هاقول إنك إنت اللي كنت معايا برضو. وموجود ألف دليل على كده. أولهم إن الفيديو متصور في شقتك، واللي مش هيصدقني هاجيبه رحلة لشقتك عشان يعرف.

بدا مُندهِشًا من ردودها غير المتوقعة قال لها قبل أن يفغر فاه: مش فاهم.

ـ الموضوع بسيط يا هيثوم يا حبيبي. هو أنا في ديك الساعة اللي الناس تعرف فيها إني نمت معاك؟

كرر نفس الجملة بنفس تعبيرات الاندهاش المرسومة على وجهه والتي لم تتغير: مش فاهم.

ـ إيه يا عم إنت علَّقت ولا إيه؟

وضعت يدها على رقبته وقبلته قبلة ساخنة ثم أخذت السيجارة التي في يده ولم يتبق فيها سوى عدة أنفاس، نفثتهم الواحد تلو الآخر، وكلما تخرج نفسًا تنفثه في وجهه الذي ما زال يحمل نفس تعبيرات الذهول، لا يجد ما يقوله. إلى أن خرجت ملتقطة في طريقها للباب قطعة كريستال موضوعة على المنضدة، صاح قائلا أنها بخمسمائة جنيه، فردت عليه بدلال ممزوج بتهكم:

ـ إيه يعني ٥٠٠ جنيه يا حبيبي، هتغلى عليا يعني؟ اعتبرها مقابل الوقت الجميل اللي كان بيننا من شوية. أو اعتبرها زكاة. مواااه. باي.

فتحت الباب فهلعت حينما رأت سارة واقفة تمد يدها نحو الجرس فهلعت هي الأخرى قبل أن تدخل لتجد هيثم واقفًا عبوسًا، يحك ذقنه بأصابعه، بمجرد أن رأى سارة تهلّل وجهه فرحًا، وأقبل عليها ناسيًا ما حدث من ابنة الشياطين التي كانت معه. حضنها بعدما أغلق الباب، لم تبد أي اعتراض وكان وجهها مُرهقًا لا يخلو من شحوب واسمرار تحت عينيها، بدت مَكدودة، واهِنة، مُتهدِلة.

أجلسها هيثم وجلس قبالتها، أشعل سيجارة قائلا:

ـ كنت عارف إني مش حاهون عليكي، أكيد جبتي الفلوس اللي قلت لك عليها، مش كده؟

أجابته بعينين مرتخيتين منطفئتين: لأ.

نهض وقد تحولت تعبيرات وجهه مائة وثمانين درجة صائحًا في وجهها:

ـ أمال جاية عاوزة إيه يا روح أمك؟

ـ أنا هربت من البيت، وماليش أي مكان أو ملجأ غيرك. فكرت إني أنتحر لكن ماقدرتش. كان قدامي طريقين؛ أسلم نفسي لكلاب السكك في الشوارع، يا إما أجيلك.

ـ طب ليه اختارتي تجيلي يعني؟!

ـ كده. على الأقل كلب أعرفه أحسن من عشر كلاب ماعرفهمش.

ـ إنتي كده بتهينيني في كرامتي وأنا لم ولن أسمح بهذه الإهانة. (وضع يده على قلبه في محاولة لاستخفاف دمه مردفًا) قلبي، قلبي.

نظرت له متقززة ولم تضحك، بل بدت حزينة منكسرة. قال لها:

ـ طب قومي اعملي حاجة نشربها وبعدين نتكلم، جسمك وحشني جدًا. من هنا ورايح اعتبري البيت بيتك. يا مزتي.



بعد مرور أسبوع.

كل العذاب الذي رآه خالد في حياته لم يمثل واحدا بالمائة من الذي عاناه خلال هذا الأسبوع، توفيت والدته؟!

بعدما عاد من قبرِها مع عائلته وأقاربه، دلف إلى حجرتها التي لم تعد دافئة، كاد يموت كمدًا حينما علّق نظره على فراشها الذي كان مُستأنسًا بعبقها بالأمس، والآن خاويًا إلا من ملابسها التي كانت ترتديها، أيضًا بالأمس! كاد التفكير أن يفجر رأسه.

ألهذا الحد مقتنيات الإنسان يمكنها العيش أكثر منه؟! وما بين لحظة وأخرى ينتقل من الحياة الدنيا إلى العالم الآخر. تعجّب من تحمّله الساعات

التي مرّت عليه بعدما عَلِمَ بوفاتِها، بوفاةِ الشخص الوحيد الذي تذكّره قبل حتى أن يراه، كيف استطاع حملها والذهاب بها إلى المسجد ليضعوها أمامهم ويصلوا عليها تمهيدًا لنقلها إلى مدافن العائلة، ليضعوها في مثواها الأخير بكل سهولة ويعودوا أدراجهم دون فعل أي شيءٍ آخر؟!

طوال هذا الأسبوع، كان كلما ينفرد بنفسه، أو يجلس مع عائلته، يظل هكذا شاردًا في والدته، يتذكر كل موقف جمعهما ومرَّ به، منذ أن كان صغيرًا إلى أن تخرج من كلية الشرطة وتزوج وأنجب. تذكر حينما هلّلت فرحًا بأولاده، وحينما اختارت أسماءهم ووافق على الفور. تذكّر أدق التفاصيل. وما أقسى تذكُّرها! فالتفكير في الأموات الأعزاء علينا قد يمرّ تاركًا بعض الألم والشجو. غير أن تذكُّر أدق أدق التفاصيل الصغيرة بحياتهم، واستدعاء الذاكرة لصغائر تصرفاتهم وأفعالهم. هذا هو العذاب بحق. ولا يوجد شيء مؤلم موجع يضاهيه.

هل سيراها ثانية؟ هل سيلمس يديها مرة أخرى؟!

متى؟! وأين؟! وماذا عن رائحتها التي ما زالت تسكن أنفه إلى الآن؟ وماذا عن صوتها الذي ما زال يتردد على مسامعه دون توقُّف؟

هل هذه الأسئلة لها إجابة عند باقي الناس وهو الوحيد الذي لا يعلمها لأنه فاقد للذاكرة؟؟ سأل والده وأخاه عن هذه الأسئلة التي تعيث إرهاقًا وتدميرًا في دواخله بداخله. فحثّوه على الصبرِ والاستغفار لله كي لا يكفر. فاستغفر!

لم يكن هذا الحال حاله وحده، بل كان أيضاً حال والده وأقاربه وأخيه الذي يستعد للسفر قريبًا عائدًا إلى زوجته. كان يشد من أزر

خالد ووالده طوال هذا الأسبوع، وكثيرًا ما كان يتحدث إليهم بكلام يدخل قلبهم ويهدئ النار التي تضمر بداخلهم.

بعد مرور أسبوع طلب من خالد أن يستعد للذهاب معه إلى طبيب المخ والأعصاب غدًا، لأن الإهمال في حالته والتأخر في علاجها ليس في صالحهم، وأنه كلما بَكَّرَ في ذهابه للطبيب سيكون فرصته في العلاج أكبر.

كان موعدهم معه في السادسة مساء اليوم، د. حسين الألفي؛ أحد أكبر أطباء المخ والأعصاب في مصر، اصطحبه محمود بعد أن أجرى له عدة أشعات وفحوصات كان الطبيب قد طلبها منه مسبقًا. اطَّلع عليها جيدًا وهو يسأله:

ـ إيه الأخبار يا حضرة المقدم؟

ـ الحمد لله بخير يا دكتور

ـ البقاء لله، ربنا يجعل مثواها الجنة إن شاء الله.

ـ آمين يارب. قالها خالد مبتسمًا في شجن.

ـ وفاتها كان صدمة بالنسبة لك، وبتقعد تفتكر حاجات حصلت بينكم؟

ـ مافيش حاجة باعملها غير كده طول اليوم يا دكتور.

ـ ده شيء كويس. فيه صدمات معينة بتكون مفيدة لحالتك، قول لي. بتفتكر حاجات معينة لما بتتعاد مشاهدها قدامك؟

ـ غالبًا يا دكتور. بس ساعتها باحس إن دماغي هتتفرتك من الصداع و..

قاطعه مبتسمًا: أيوه عارف. وبتحس إن الدنيا بتلف بيك وعاوز ترجَّع.

رفع الطبيب ساعده نحو ضوء اللمبة النيون مُمسكًا بالأشعة المقطعية قبل أن يردف: أهم حاجة ماتاخدش أي أقراص للصداع لما تيجي لك الحالة دي، هتفتكر كل حاجة لوحدك، المسألة مسألة وقت، حالتك مش صعبة. لكن برضو مش سهلة. قول لي. قدرت تفتكر أي حاجة حصلت لك قبل الحادثة دي مباشرةً؟

ـ لأ يا دكتور، باحاول أفتكر لكن بالاقي حيطة سد قدامي، هاتجنن!

ـ لالالا. ماتحاولش تتحايل على الذاكرة، لأنك لو تحايلت عليها هتعند معاك. خلي الأمور تمشي بشكل طبيعي. أهم حاجة لازم تقرأ جرايد كتير، بالذات جرايد بتاعة الفترة اللي سبقت الحادثة بتاعتك.

نظر الطبيب إلى محمود مُوجهًا كلامه له بالإنجليزية، سأله محمود هل بإمكان أخيه معرفة ما يتحدثون عنه بالإنجليزية باعتباره كان يجيدها قبل الحادث، فأجابه الطبيب أن اللغة في حالته سقطت عنه:

ـ شوف يا دكتور محمود، إنت طبعًا سيد العارفين إن استعادة الذاكرة محتاجة تكاتف بينكم كلكم، أنا من ناحيتي هاكتب له كذا دوا يمشي عليه، الأدوية دي قوية، مستوردة. هتساعد ذاكرته على الانتعاش، بس إنت طبعًا عارف إن بالتوازي مع الأدوية لازم تدربوه على شوية حاجات.

ـ المفروض في حالته دي يا دكتور نخليه يتكلم كتير معانا، ونكلّمه عن مواقف حصلت زمان، ونكررها قدامه؟

ـ بالظبط.

ـ وكمان هنعلمه يكتب على الكيبورد من أول وجديد ونخليه يستخدمه كتير، الموضوع ده هيساعده جدًا في استعادة الذاكرة تدريجيًا.

ـ ده شيء رائع جدًا، كنت أتمنى تستثمر علمك وخبرتك في مصر هنا يا دكتور. (أطرق محمود رأسه مبتسمًا، فأردف الطبيب) وماتنساش تخليه يقرأ قرآن كتير، وأحاديث نبوية. ده هيفيده.

أكمل كلامه باللغة الإنجليزية أن يحاول بأسرع ما يمكن أن يمسح الوشم الذي على ذراعه، ويعيد هيئته التي كانت عليه قبل الحادث، فهز محمود رأسه متفهمًا ومستوعبًا. بعدما انتهوا من الجلسة صافحهم وأخبرهم بميعاد الجلسة القادمة.

خرج محمود مع أخيه من عيادة الطبيب قاصدًا مركزا بمدينة نصر لعمل الوشم، طلب منهم أن يمسحوه تمامًا دون أن يتركوا أي أثر له، ما هي إلا ساعتان حتى انتهى، نظر بعدها خالد إلى ساعده فانطلقت منه نصف ضحكة اندهاشًا. خرجا قاصدين مركزا للتجميل كي يجروا له عملية لإزالة مكان الجرح الذي في صدغه، بمجرد أن خرجا فوجئا بفتاةٍ تناديهم وتستنجد بهم:

ـ لو سمحتوا ممكن بس تشوفوا العربية بتاعتي مش عاوزة تدور ليه؟

ـ آسفين جدًا مش فاضيين. قالها محمود بلا مبالاة مُلوّحًا بيده، فألحَّت:

ـ أرجوك. إنت أكيد مايخلصكش تشوف بنت محتاجة مساعدة وتتخلى عنها. كل اللي محتاجاه بس إن حضرتك تدوّر مفتاح الكونتاكت وأنا هاقف عند الموتور عشان أعرف العطل فين.

نظر محمود لساعته ثم إلى خالد الذي هزَّ كتفيه رافعًا حاجبيه، فأومأ رأسه على مضض، عبرا الشارع حيث تقف سيارتها، جلس خلف المقود ليدير مفتاح «الكونتاكت».

«مش هينفع تركب عربيتك. عربيتك مُفخخة.»

قالتها الفتاة بصوتٍ جادٍ رخيم بعد أن جلست بجواره، فالتفت لها مُندهشًا مما قالته، فأكملت بحدة وهي تنظر أمامها بترقُّب:

ـ خلي أخوك يركب ورا وسوق بينا لآخر الشارع، لحد ما أقول لك اقف. (ما زال محمود مُعلّقًا نظره باندهاش فكررت كلامها بطريقة أكثر حدة) باقول لك عربيتك مفخخة ولازم نبعد حالا. نادي على أخوك خليه يركب عشان أقول لك على التفاصيل.

كان ذلك حينها لاحظ خالد بالخارج خطبًا ما فانحنى مستفسرًا، طلب منه أخوه الركوب دون التفوّه بأي كلمة، ففعل. وانطلق مُسرعًا إلى نهاية الشارع فطلبت منه الفتاة أن يتوقف ويستبدلا الأماكن، نزل وجلس مكانها فجلست خلف عجلة القيادة، بدا على وجه محمود وخالد الحيرة الممتزجة باندهاش، سألها محمود بحدة مستفسرًا:

ـ إنتي مين؟؟ وإيه اللي بتعمليه ده؟!

كان الشارع هادئًا، خاليًا تمامًا إلا من سيدة مع صغارها، اشرأبت لترى هل من شخص يتبعها أم لا فلم تجد، رمقت بتوجس الثلاث مرايا، اليمنى واليسرى والوسطى كي تتأكد أنه لا يوجد أحدٌ يراقب سيارتها، فاطمأنت، زفرت أنفاسًا كانت محبوسة لنصف دقيقة قائلة:

ـ زينة طلحة، زينة مجدي طلحة؛ صحفية بجريدة روزاليوسف.

ـ ومين اللي قال لك إن العربية مفخخة؟ وإزاي عرفتي؟ وليه كنتي...

قاطعته قائلة برجفة:

ـ أول ما دخلتوا سنتر الوشم لقيت حد وقف جنب العربية وقعد يحوم حواليها، بعد كده راح وقف بينها وبين الحيطة ونزل تحتها، حط حاجة ماعرفش إيه هيَّ وقام مشي.

ـ اللي بتقوليه ده كلام فارغ. تفتكري هيكون كده فخخها وحط قنبلة يعني؟؟!

ـ أمال يعني كان بيغيَّر لها زيت؟!

قال لها بأنفاس متسارعة: طب أصدق كلامك ده منين؟ وبعدين أنا شفتك قبل كده مش فاكر فين؟ وليه...

قاطعته: إنت شفتني كذا مرة، جيت لك من شهرين ونص تقريبًا لما تم اغتيال خالد (نظرت لخالد فاستدركت) آسفة «محاولة» اغتيال المقدم خالد، وحضرتك رفضت تدلي بأي معلومات، وجيت لك من أسبوع مع صحفيين من جرايد تانية وبرضو طردتنا وقلت لنا إنكم هتعملوا مؤتمر صحفي في نادي الشرطة، حاولت أسألك سؤال صغير زقتني في كتفي وكنت هاقع على...

صاح قائلًا: آآآآآه. آه آه افتكرتك. أنا آسف جدًا يا أستاذة زينب.

ـ زينة.

ـ زينب؟

ـ زيييييـ.. ـنة.. زينة. قالتها وهي ترسم بأناملها حرف التاء المربوطة.

ـ أنا آسف جدًا يا أستاذة زينة، بس والله ماكانش قصدي أزقك إنتي بالذات شخصيًا، كل الموضوع إن الداخلية نبّهت علينا مانتكلمش مع صحفيين، وحذرتنا من الإدلاء بأي كلمة ليكم.

ـ كان حضرتك ممكن تقول لنا كده بشكل مباشر بدون ما تعاملنا كإننا كلاب، وبالأخص أنا. حضرتك أنا مانمتش يومها أقسم بالله، ده غير إني لو كنت خدت معلومات، ولو معلومة صغيرة، كان هيبقى سبق صحفي وكنت هاترقى.

ظل خالد يراقب كلامهما في صمتٍ بالغ، إلى أن تدخل قائلا:

ـ يعني ترقيتك واقفة علينا يا أستاذة؟

التفتت له: المقدم خالد بيقول لي يا «أستاذة»! ربنا يحمي حضرتك يارب. بصراحة آه، أنا مش عاوزة أكتر من تصريح أو اتنين أنشره قبل الجرايد التانية. وده السبب اللي خلاني أراقبكم من الصبح، وكنت هاعمل كذا حادثة وأنا ماشية وراكوا ودوختوني لحد ما وصلت هنا، لسه هانزل من عربيتي عشان أدخل وراكوا السنتر. لقيت الراجل اللي قلت لكم عليه كان بيحوم حوالين العربية.

لم يجد خالد ما يقوله، بينما كان محمود مُعلّقًا نظره يتفرّس ملامح وجهها قائلا: وريني بطاقتك لو سمحتي، بطاقتك وكارنيه الجريدة.

ـ مش فاهمة. ليه؟؟ قالتها وهي تهزّ رأسها مُستفهِمة، فصاح محمود فيها مكررًا طلبه، أخرجت بطاقتها وكارنيه الجريدة وأضافت عليهما كارنيه نقابة الصحفيين، أخذهم منها وتفحَّصهم قائلا:

ـ بصي يا أ. زينة. أنا هاطلب الداخلية دلوقت. وهابلغهم باللي قلتيه، بس لو مالقيتش حاجة (رفع سبابته مُهددًا) واكتشفت إنك عملتي التمثيلية دي كلها عشان تصريحات وزفت. هاحبسك.

ـ ...

ـ آه والله هاحبسك. هالبّسك تهمة، وهاضيع مستقبلك وأخليكي تترفدي من النقابة. ومن الجريدة كمان.

ـ بس برضو لو لقيوا تفجيرات ماتقولش إني أنا اللي قلت لكم عشان مادخلش في سين وجيم. أنا ماعرفش مين الناس اللي بتتربص بالمقدم خالد وممكن يعملوا فيا إيه لو عرفوا إني أنا اللي بلغت!

ـ تمام. اتفقنا. البطايق والكارنيهات هيفضلوا معايا.

ـ طب خلي معاك البطاقة وكارنيه الجريدة واديني كارنيه النقابة عشان هاروح أغطي مؤتمر بوزارة الثقافة.

أعطاها كارنيه النقابة وتبادلا أرقام الهواتف وغادرت، اتصل بعدها بمؤمن حربي يبلّغه بالواقعة، فأجرى اتصالات بالقسم التابع بالمنطقة وأرسلوا فريق تفجيرات إلى مكان السيارة وفحصوها فلم يجدوا شيئًا! لكنهم لاحظوا وجود بقعة زيت كبيرة تحت السيارة، واكتشفوا أنه زيت الفرامل. ما يعني أن هذا الشخص بالفعل كان يريد التخلص منهما، فالتبس على الصحفية الأمر. وظنَّت أنه فخَّخ السيارة. استعان فريق البحث بالكاميرا المثبتة عند باب أحد المطاعم المجاورة لمركز الوشم، وكاميرا أخرى داخل المركز لكنها تغطي جزءًا من السيارة. راجعوا الفيديو فوجدوا شخصًا كان يحوم بتوجس حول السيارة مرتين، ثم نظر يمينه ويساره ونزل تحتها لأربع دقائق كاملة ثم رحل بهدوء. حاولوا تقريب الصورة قدر الإمكان لكاناالتعرف عليه لكن الكاميرات لم تستطع إظهاره بشكل واضح.

أدرك محمود وخالد كم كانا سيئي الظن بالفتاة، وقررا أن يعطياها مبلغًا من المال، مكافأة منهم على ما فعلته.

في الليل.

تحدث إلى أولاده لساعتين كاملتين، ظل مصطفى يذكره بمواقف حدثت من قبل، وحاولت داليا أن تجعله يكتب على الكيبورد في حاسوبها، علَّمته تدريجيًا وطلبت منه ـ بناء على نصيحة عَمَّها ـ أن يكتب على صفحة word كل ما يخطر بباله. كتب أشياء كثيرة، كان يكتب ببطء

بالغ لكنه بالتدريج بدأ يستوعب حتى كتب صفحتين كاملتين. شعر بعدها بالإرهاق فدلف إلى غرفة النوم، أخذ الدواء وخلد إلى النوم بعد يومٍ مرهق.

وجد غادة تغط في النوم بقميص نوم مثير لم يلفت انتباهه طرفة عين، مدد جسده بجوارها مُتذكّرًا ما حدث في نهار ذلك اليوم، سأل نفسه في حيرة، ما السبب الذي يجعل حياته مُستهدفة بهذا الشكل، ومن ذلك الشخص الذي يُصرّ بإلحاح أن ينهي حياته؟! ما هو شكل ماضيه وملامحه؟ نظر يمينه صوب غادة مُتسائلا: ما سبب معاملة هذه المرأة له؟ ولما كل هذا الجفاء؟ هل السبب هو ما أخبروه به أولاده منذ قليل عن معاملته لها في السابق؟ ولكن هذا ليس مبررًا لما تفعله الآن؟! مبررًا لعدم فرحتها بعودته!

بدأت ذاكرته البكر - التي تشبه صفحة بيضاء إلا من سطرين مكتوبين بقلمٍ رصاص - في لفظ كل ما تحتويه دفعة واحدة. ابتسم حينما تذكر ما حدث مع الصحفية التي تدعى زينة، تذكر حينما كانت تتحدث لأخيه وحانت منها التفاتة مُباغِتة حينما استدركت خطأها قائلة «*محاولة اغتيال المقدم خالد*».

تذكَّر - مرة أخرى - عينيها السوداوين الواسعتين الساحرتين، واللتين تزينهما أهداب ساحرة رغم أنها غير كحلاء، وشعرها الغجريّ المموج فاحم السواد، تذكَّر، كان باستطاعتها عدم تبليغهم والرحيل بسلام، ولولا أنها فعلت ذلك لكانا الآن في عداد الموتى، أو على أقل تقدير في المستشفى مصابين.

انتوى في قرارة نفسه أن يعتذر لها بطريقته الخاصة عما بَدَرَ من أخيه

تجاهها حينما دفعها، رغم أنه معذور، ولكن فتاة بهذه الرقة لا يجب أن تُعامَل هكذا. اختلجت عيناه وسأل نفسه.

ـ إنت حبيتها ولا إيه يا جرجس. يا خالد!

افتر ثغره عن ابتسامة هادئة وهو يستدعي مرة ثالثة التفاتتها نحوه، وتلاقي عينيه بعينيها التي لمح في زواياها لهفة وتوقا لم يغادرا مُخيّلته، كيف لم يستدركها حينها (سأل نفسه). ولماذا يفكر فيها الآن؟ تذكر بعدها مؤخرة شادية غنيم فانطلقت منه ضحكة عفوية، مريم جبرائيل، شجاره مع إبراهيم سارينة، خميس وبصقه في كوب الشاي، جمعة والتوك توك المسروق، والدته وآخر ابتسامة رآها مرسومة على صفحة وجهها. تذكر الحديث الذي دار بينهما في الليلة السابقة لوفاتها. شعر بالنعاس يثقل جفنيه فسافر مُستسلِمًا له، غارقًا في غياهب أحلامه.



في نفس الوقت.

أغلقت داليا غرفتها من الداخل لتتحدث عبر «الفيس بوك» مع هيثم الذي ظل يلح عليها إلحاحًا أن تخلع البادي الذي ترتديه.

ـ يخرب بيت جنانك، يابني مش هينفع، هههههههه إنت بقالك يومين بتطلب طلبات غريبة، افتحي الكاميرا، اقلعي، ابعتي صورة بالملابس الداخلية، أجيلك البيت!

ـ إيه المشكلة يا حبيبتي؟ أمال أطلب من مين الحاجات دي؟ أعتقد إنه من حقي إني أطلب منك أي حاجة.

ـ تمام ماقلناش حاجة مانا إمبارح بعت لك صورة بالملابس الداخلية. ومسحتها من موبايلي لإني اتكسفت أبص عليها وماعرفش عملت كده إزاي، بس عشان ماتنامش وانت زعلان مني.

ـ طب طالما خايفة على زعلي اقلعي قدامي دلوقتي.

ـ ههههه لا إنت فعلا مجنون. ازعل أحسن. أنا ماقدرش أعمل كده.

ـ .....

انتظرته يرد لكنه لم يفعل، وانشغل بالتحدث مع فتاة أخرى، ظلت ترسل إليه رسائل دون إجابة منه فظنت أنه نام متضايقًا منها، وأحسَّت أنها يجب عليها أن ترضيه، فوقفت أمام مرآة التسريحة والتقطت لنفسها صورة تظهر نصفها العلوي عاريًا وأرسلتها إليه فاستقبلها على الفور طالبًا منها أن تلتقط صورة أخرى بنصفها السفلي، رفضت، ألح عليها أكثر متهمًا إياها أنها لا تستأمنه، رفضت. استمر في إلحاحه مؤكدًا لها أنه سيحذف الصور بعد لحظات، فصدَّقته ووافقت على مضض. وأرسلت له صورة لكامل جسدها عاريًا.



بعدما استفاق من حلمٍ رأى فيه مواقف كثيرة حدثت له في الماضي، مشاهد مُتداخِلة بين مأمورياته التي قام بها، وحياته في حارة السرجة، ومع أسرته وزوجته. استيقظ وظل يتذكر ما رآه فتذكر بعضهم بالفعل، خرج بعدها من الغرفة ليجد غادة مرتدية «بادي» و«هوت شورت»، تعبث في هاتفها، واضعة قدميها على المنضدة أمامها، سال لعابه حينها

رأى ساقيها المتقنتين وفخذيها الشمعيين الممتلئين، سألها بعد أن ازدرد ريقه متظاهرًا باللامبالاة: مين اللي خرج ده؟

فزعت غادة وأنزلت قدميها من على المنضدة وأجابته بطريقة فجة:

ـ فيه إيه خضتني؟ داليا اللي نزلت راحت الجامعة.

ـ يعني إيه خضيتك؟ هو إنتي قاعدة في بيت أشباح؟!

ـ لا مش بيت أشباح بس صوتك خضني. كنت سرحانة.

جلس قبالتها مباشرةً وظل مُعلقًا نظرات شاخصة نحوها، فارتعدت فرائصها وغمغمت: إنت بتبص لي كده ليه؟

ـ إنتي اللي بتكلميني بقرف كده ليه؟ أنا عرفت إني قبل الحادثة كنت باهينك وباضربك. لكن أكيد كان فيه سبب.

أطرقت رأسها ولم تنبس بحرفٍ واحد، فاستطرد:

ـ ماهو ماتقنعينيش إنك ملاك وأنا الشيطان اللي منغص عليكي حياتك. أكيد فيه حاجة مش طبيعية.

ـ ...

ـ على العموم مسيري هافتكر كل حاجة لوحدي. طالما مش عاوزة تتكلمي. (أطرق رأسه هو الآخر لثوان قبل أن يستطرد). اكتبي لي في ورقة مكان المستشفى اللي مصطفى بيغسل كلى فيها.

وردته مكالمة من والده يخبره أنه في الطريق إليه مع أخيه، وسيصل بعد عشر دقائق، فنهضت غادة لتدلف إلى غرفة النوم وتكتب له اسم المستشفى وعنوانها ومواعيد جلسات مصطفى في ورقة وأعطته إياها. إلى أن حضر والده فأغلقت غادة باب الغرفة بعد أن خرج خالد ليستقبلهما، ويجلسهما في الصالون. سألاه عن أخباره وحالته الآن فأخبرهم أنه

بخير ويشعر تدريجيًا أنه يتذكر الأشياء. وأن داليا تعلّمه الكتابة على الحاسوب، وتعرض عليه بعض الأخبار التي سبقت الحادثة. حثه أخوه ألا ينسى مواعيد الدواء وأن يعتني بنفسه في الفترة المُقبِلة:

ـ برغم كل اللي حصل، لكن أنا مبسوط يا خالد. مبسوط لإني كنت في مصر ساعة ما لقيناك، مبسوط إني كنت موجود ساعة موت أمنا. لو كانت ماتت وأنا برا مصر كنت ممكن أموت هناك.

ـ بعد الشر عليك يا أخويا.

سأله والده بقلبٍ مضطرب: أخبارك مع مراتك وولادك إيه يابني؟

ـ الحمد لله يا بابا. ماتحملش هم كل شيء ماشي تمام. (سأل أخاه). هتسافر إمتى يا محمود؟

ـ بكرة أو بعده. حضرت لك شوية جرايد برضو اقعد بص فيهم واقرا قرآن. وخلي بالك من نفسك ماتخليـنيش أقلق عليك يا خالد.

ـ خير إن شاء الله. هات الكارنيهات بتاعة الصحفية اللي شفناها إمبارح، ورقم تليفونها عشان هاقابلها النهارده أديهم لها، وبالمرة أعمل معاها حوار صحفي عشان تترقى.

ـ لأ. ماتعملش معاها أي حوار. إنت نسيت تحذير مؤمن؟ قابلها اديها قرشين واشكرها وخلاص. أو ممكن أبقى أقابلها أنا النهارده آخر النهار.

قاطعه مُتلهِّفًا: لالالا سيبنى أقابلها أنا عشان لازم أشكرها بنفسي، وماتقلقش مش هاعمل معاها حوار خلاص.

زم محمود شفتيه وهو يعطيه الكارنيهات ورقمها قائلا: أمري لله. خلي بالك من نفسك جدًا ماتخليـنيش أكون برا مصر قلقان عليك. أديك

شفت اللي حصل إمبارح. وعمومًا لو قابلتك أي مشكلة اتصل بمؤمن.
ـ ماتقلقش يا حودة.

نظر محمود لأبيه: يلا يا بابا عشان نسيبه يستريح. أشوف وشك بخير يا خالد. هاسلم عليك هنا عشان احتمال ماخليش حد يوصلني المطار. لإني مش باحب لحظات الوداع زي ما إنتوا عارفين.

احتضنا بعضهما البعض ورحلا. فدخل الشرفة يشيعهما من أعلى قبل أن يهاتف زينة ويخبرها أنه سيذهب إليها.

ـ معقولة؟! المقدم خالد ذات نفسه! إزيك يا حضرة الظابط، كنت لسه هاكلم دكتور محمود. هو ده رقم حضرتك ولا رقم تاني له؟

ـ لا رقمي، كنت عاوز أقول لك إن الكارنيهات معايا وعاوز أديهالك، فقلت أتصل بيكي أعرف إنتي فين عشان أجيبهم لك.

ـ العفو العفو مايصحش والله. أنا اللي هاجي لحد حضرتك.

ـ لأ أنا اللي هاجيلك، الموضوع مافيهوش نقاش. قولي لي إنتي فين؟

ـ أنا هنا في الجرنال. جريدة روزاليوسف. عارف مكانها؟

ـ آه. لأ. آه آه. بصي أنا هاركب تاكسي وأسأل. وهاكون عندك كمان ساعة.

ـ حلو. هتلاقيني في قسم التحقيقات في الدور الرابع، أو اتصل بيا أنزل لك.



بينما كانت راقدة في سلام، فوجئت بهيثم يوقظها:

ـ سارة. يا سارة. اصحي. إيييييه إنتي هتفضلي نايمة لحد الضهر؟

ـ حاضر يا بابي هاصحى أهو.

بعد حلمٍ جميل رأت فيه أنها وسط عائلتها، تجلس في الصالون على كرسيها المفضل بجوار مكتبتها الكبيرة، تأكل شيكولاتة وتقرأ رواية «الواجهة» ليوسف عز الدين عيسى. فتحت عينيها لتجد نفسها في مستنقع الواقع المرير. نهضت عاقدة ساقيها وأطرقت في اغتمام بعدما هاجم رأسها بغتة صداع شديد، ولَّت وجهها صوب اللا شيء لثوانٍ قبل أن تنظر لهيثم مرة أخرى قائلة له بانفعال:

ـ إنت عارف إن أسود يوم في حياتي يوم ما شفت حيوان زيك؟

تحولت ابتسامته البلهاء المرسومة على وجهه إلى عبوس قائلا:

ـ تصدقي إنتي بنت ستين كلب وخسارة فيكي إني مقعدك معايا في شقتي يابنت الـ ـ؟! أنا غلطان إني ماطردتكيش في الشارع. وطبعًا لو حد من أهلك شافك هيتلِف أمل أمك.

ـ ربنا ياخدني يا هيثم عشان أريحك واستريح منك.

ـ آمين يارب. بس مش قبل الساعة ٢.

قطبت جبينها ونظرت له مستفسرة، فاستطرد: عارفة سامر عبد الودود اللي كان في مسلسل (...)؟

ـ ماله؟

ـ هييجي هو وواحد تاني صاحبي سيناريست. عاوزك تبقى لطيفة معاهم ومايزعلوش منك. عشان ربنا يكرمني وياخدوني معاهم في مسلسلهم الجديد، ونتجوز بعدها.

ـ نتجوز؟ إنت مصدق اللي بتقوله ده؟! طب لو مصدق، هل إنت راضي على نفسك إنك تكون اريال!

قاطعها حانقًا ببصقة على وجهها، مسك ذراعها بقوة: كده إحنا خالصين ده أولا، ثانيًا، بصي بقى يا بت، هتقلي أدبك أقسم بالله هاشوهك وأطردك، وماخليكيش نافعة لا هنا ولا أي مكان تاني. استهدي بالله وقومي اعملي لنا فطار عشان لما أصحابي ييجوا هاسيبهم هنا معاكي وأنزل عشان ورايا مشوار بعد نص ساعة. (ترك ذراعها) قومي يا روح أمك وماتنسيش تاخدي دش وتظبطي نفسك.

رمقته بنظرة احتقار فأردف بسخرية وابتسامة بلهاء ارتسمت على وجهه مرة أخرى: إيه؟؟! مافيش حلاوة من غير نار. عشان كده جبت لك إمبارح واحدة جاهزة من الصيدلية.

تلفتت يمينًا ويسارًا باحثة عن أي شيء تلقيه به فلم تجد سوى الوسادة عطنة الرائحة، همَّت لتلتقطها وألقتها في وجهه فتفاداها، دلف الغرفة الأخرى وصاح قائلا: مافيش حلاوة من غير نااااار.

دفنت رأسها مرة أخرى تحت الوسادة وأخذت تسترجع في مُخيِّلتها ما كانت تحلم به وتنتحب على ما هي فيه الآن.



بعدما أغلق خالد مكالمته مع زينة، دلف غرفة النوم مُلتقطًا قميصا وبنطلونا ارتداهما في عجالة، نظر لصورته في المرآة، مسح بأصابعه فوق حاجبيه ومسد فوديه وهو يرمق بعينيه في أسى عدة شعرات بيضاء، نظر

لغادة عبر المرآة فوجدها تنظر له بعينين متجمّدتين، سألها هل رأسه قبل الحادث كان به شعر أبيض فأجابته ببرود: «ماعرفش!» التفت لها قائلا أنه سيذهب للقاء بعض أصدقائه وسيأتي بعد ساعتين ليأخذ مصطفى إلى جلسة غسيل الكلى.



تاكسي. الشيخ زايد يا سطى؟

توقَّف التاكسي فأفلتت يدها من يده بدلال وابتعدت عنه، اعتذر هيثم لسائق التاكسي وعاد حاثًا الخطى نحو داليا قائلا بحنق:

ـ طول ما إنتي مش واثقة فيا هيفضل الجدار العالي اللي بيننا موجود، وبيعلى أكتر!

ـ هو عشان نهد الجدار ده لازم آجي معاك الشقة؟ إنت اتجننت يا هيثم؟

سألته وقد أمالت رأسها ووضعت يديها على خصرها، فضرب كفًا بكف:

ـ الله يخرب بيت أم الأفلام اللي خلت البنات تخاف. يا بنتي مش هاسقيكي حاجة صفرا وأضيع عذريتك والكلام الفارغ ده!

ـ ههههههه ومين اللي مثل الأفلام دي؟ مش إنتوا برضو؟

انساب الصمت للحظات وهو ينظر لها وانفرجت أساريره قائلا:

ـ بس اللي بيني وبينك مش تمثيل يا حبيبة قلبي. أنا باحبك بجد.

أمسك يديها فأصابتها قشعريرة ليردف:

ـ أنا بحبك يا داليا، وعلى استعداد إني أعمل أي حاجة عشانك، كل هدفي إننا نعيش قصة حبنا بطريقتنا، أمسك إيدك، أرقص معاكي سلو، ألتهم شفايفك، أحضنك من غير هدوم. نعيش لحظاتنا الخاصة بينا لوحدنا وبس. كده كده هنتجوز. بس العمر قصير، خايف أموت قبل ما أعيش لحظتنا الخاصة دي يا حبي..

اتسعت عيناها وشهقت قائلة بلهفة: بعد الشر يا حبيبي ماتقولش كده تاني! أطرقت بعد أن احمرَّ وجهها خجلا قائلة: سبني أفكر طيب.

ـ مافيش تفكير، أنا هادخل الحمام جوا الكافيه ده، وجايلك كمان دقيقة.

عبر الشارع ودخل حمام الكافيه ليخرج من جيبه هاتفه ويتصل بسارة المُسجاة على الأرض تبكي بحرقة.

ـ مالك يا حزينة بتعيطي ليه؟!

ـ أصحابك طلعوا عين اللي خلفوني. أنا مابقتش بنت يا جزمة يابن الـ...

ـ يا نهار أسود. يخرب بيت أبوهم ده أنا منبّه عليهم! آه يا غُشْمْ يا متخلفين يا ولاد الكلب! ماعلش يا حبيبتي أنا هاعوّضك عن اليوم الأسود ده. المهم أنا جاي مع أربعة أصحابي كمان نص ساعة، ولو شافوكي مش هيسيبوكي. عاوزك تنزلي تقعدي في أي كافيه وترجعي الساعة ٩ بالليل.

ـ أروح فين باقول لك أنا باموت ومش قادرة. إنت ماعندكش د...

قاطعها مُزمجِرًا: ماهو هتنزلي بمزاجك أحسن ما تنزلي غصب عن أمك. باقول لك معايا أربعة أصحابي ومش عاوزهم ييجوا جنبك.

تحت المروحة هتلاقي ١٦٠ جنيه، خدي الستين وسيبي المية. وأقعدي في أي داهية وماشوفش وشك قبل الساعة تسعة، ويا ريت ماشوفش وشك خالص.

أغلق المكالمة وخرج لداليا بوجهٍ آخر غير الذي كانه تمامًا منذ دقائق!

ـ الواحد لما يبقى مزنوق ويفك زنقته بيحس إنه بقى في عالم تاني. يلا يا حبيبتي.

نظرت له بعينين تحملان تعبيرات الحيرة والتردد فأمسك يدها وقبَّلها وقد افتر ثغره عن ابتسامة عذبة «ماحدش في الدنيا دي بيخاف عليكي وهيحافظ عليكي قدي» قبل أن يرى تاكسي قادم نحوه مستطردًا: تاااااااااكس!



كل مكان يمرّ به التاكسي، وكل مبنى. كان يثير شيئًا ما في مخيلة خالد، كمن يلقي حجرًا في بركة ذاكرته فتطفو معلومة راكدة في القاع فيتهلَّل وجهه فرحًا بأقل شيء يتذكره، لذا فقد حرص أن ينظر إلى أي مكان بعينينٍ مُتفَحِّصَتين. مرَّ التاكسي بكوبري الأزهر فرأى باب زويلة وشارع المُعِز، تذكّر أشياء طفيفة لم يستطع تجميعها، حقيبة سوداء، دهليز، حارس، مكان مُظلِم، شيشة وقهوة بلدي، أشخاص يرتدون ملابس سوداء يركضون، طلقات رصاص ودماء منثورة، طبيب مخ وأعصاب، شادية، ومؤخرتها الممتلئة العظيمة.

ضغط على رأسه بيديه درءًا لألم الصداع القاتل الذي هاجمه إلى أن

سأله السائق: عند الجريدة نفسها يا بشمهندز ولا مكان جنبها؟

ـ جريدة إيه؟!

ـ روزاليوسف، إيه يا هندزة إنت نايم ولا إيه؟

ـ آه، لالالا لا مؤاخذة، أيوه الجريدة نفسها.

سلك التاكسي شارع قصر النيل من بدايته كي يستطيع الوصول بسهولة إلى الجريدة، اتصلت به لتطمئن عليه فعرفت منه أنه على وشك الوصول فاستقبلته عند باب الجريدة. بينما كان أخوه ووالده يراقبانه بالسيارة من بعيد كي لا يشعراه أنهما يحاصرانه.

تغيرت ملامح وجهه تمامًا حينما استشرق نور وجهها أمامه، وشعرها الأسود المسترسل بجرأة فوق كتفيها، وعيناها السوداوان الجريئتان.

ـ أنا مش مصدقة، المقدم خالد ذات نفسه جاي لحد هنا؟ بادرت بالحديث وهي مُقبِلة عليه. رد عليها:

ـ المقدم خالد مبسوط إنه شافك النهارده. المقدم خالد مديون ليكي بعمره.

أطرقت لثانيتين وقد اشتعلت وجنتاها بحمرة الخجل فقالت:

ـ طب ممكن بقى أعزمك على فنجان قهوة؟

ـ أنا اللي هاعزمك.

ـ مش هتفرق. يلا بينا.

سارا بضعة أمتار تجاه السيارة، دسَّتْ يدها في حقيبتها فاكتسى وجهها بالضيق: يانهار أبيض! نسيت المفاتيح فوق، والموبايل كمان، تعالى نطلع نجيبهم من فوق وننزل على طول.

ـ مافيش مشكلة مش لازم أطلع معاكي، هانتظرك هنا.

ـ ماعلش عشان أكون متطمنة عليك.

صعد معها مبنى الجريدة، ولم ينزع عينيه منها طوال الوقت، كان يراقب شفتيها وهي تتحدث مع هذا وذاك، وتداعب عامل النظافة حينما مرت بجواره، ابتسم حينما رأى المكتب المنظم بعناية وفوقه كوب به وردة، فتحت الدرج والتقطت هاتفها ومفاتيحها، ونزلا.

اعتذرت له على التأخير فأومأ رأسه مُتفهمًا. أخذته إلى مطعم بباخرة تطل على النيل بالقرب من الزمالك.

جلسا لدقائق ينظر لها متأملا صفحة وجهها لتشتعل وجنتاها حياءً، فتطرق تارة، وتهرب بعينيها إلى النيل تارة أخرى، جاذبها الحديث مبادرًا بصوتٍ حييٍّ:

ـ أولا أنا أشكر حضرتك جدًا جدًا على اللي عملتيه و...

قاطعته: أولا بلاش كلمة حضرتك أرجوك يا سيادة المقدم. ثانيًا ماتشكرنيش على حاجة زي دي. أنا ماعملتش حاجة.

ابتسم وهو يخرج من جيبه بطاقتها وكارنيه الجريدة، أعطاهم لها فلمست أناملها يديه لتسري في جسده قشعريرة، تمنى أن يمسك يدها في هذه اللحظة لولا عدم علمه برد فعلها، وإن شعر لوهلة ـ من نظرة عينيها ـ أنها لن تمانع. قالت له بصرامة وحزم بعد أن تبددت الابتسامة من ثغرها:

ـ كنت عاوزة أتكلم مع حضرتك في موضوع مهم.

ـ إنتي كمان ماتقوليش «حضرتك» ولا «سيادة المقدم». قولي لى خالد على طول.

ـ مممممم حاضر. هاحاول.

ـ إيه بقى الموضوع المهم؟ قالها مبتسمًا.

ـ طبعاً زي ما حضرتك عارف... (قطب جبينه مُداعبًا فاستدركت واعتذرت مبتسمة) طبعًا زي ما إنت عارف «يا خالد» إن ترقيتي كانت متوقفة على حوار صحفي مع حضرتك ـ سوري ـ حوار صحفي معاك، لكن الحوار الصحفي ممكن يبقى مش في صالحك، مش ممكن ده أكيد. بعد اللي حصل في عربية أخوك مانضمنش إيه تاني ممكن يحصل. ومش هاكون مبسوطة لو حصل لك حاجة بسببي.

عقد أصابعه وداري بهما ابتسامته الهادئة، وما زال متطلعًا إليها وقد اكتسى وجهه ببهجة وحبور، فاختلجت عيناها وهي تردف.

ـ أو حتى مش بسببي.

ـ ..

ـ بس. فأنا مش حابة أتعامل معاك على إنك مجرد مصدر هاخد منه اللي أنا عاوزاه ولو على حساب حياته. خصوصًا إن حضرتك من الضباط اللي الكل يشهد لهم بالكفاءة. ورغم كل الحاقدين عليك ماكنتش بتهتم بكلامهم.

ـ عرفتي منين الكلام ده؟

ـ الصحفي لا يُسأل عن مصادره يا سيادة المقدم. قالتها بغنج فاستطرد:

ـ عارفة إني مش فاكر أي حاجة من اللي بتقوليها دي خالص؟

ـ سمعت إنك فاقد الذاكرة، أو حاجة زي كده.

أومأ رأسه في أسى وأغمض عينيه لهنيهة قبل أن ينظر إلى النيل، سألته:

ـ تحب نروح لدكتور يشوفك أو يكشف عليك يشوف عندك إيه بالظبط...

ـ رحت أنا وأخويا إمبارح قبل موضوع العربية، كتب لي على دوا وهابدأ أخده من النهارده. لعل وعسى.

ـ تفتكر مين اللي ممكن يكون مصلحته أذيتك؟

ـ بصي. أنا هاقول لك على حاجة م الآخر كده. أنا دماغي جواها عشرة مليون سؤال مالهمش إجابة، أنا واحد مايعرفش أي حاجة نهائي، الحاجة الوحيدة اللي أعرفها إني قاعد مع واحدة خايفة عليا، في الوقت اللي فقدت فيه أكتر واحدة بتخاف عليا، أمي. (التفت مرة أخرى للنيل في ضيق لثوانٍ قليلة ثم أردف) حتى اللي المفروض تكون خايفة عليا دلوقت أنا ماعرفش عنها حاجة وبتعاملني كإني جوز أمها. عارفة الإنسان المشتت؟؟؟ أنا حاسس إني كباية مكسورة لمليون حتة.

أسندت ذقنها إلى راحة يدها اليسرى وهي تبتسم، غير أنها لم تنبس بكلمة، شعرت أنه يريد التحدث والبوح بأشياءٍ كثيرة، فأعطته مساحته من الوقت، هزَّت بعدها رأسها هزة خفيفة قائلة: كمل. سامعاك.

ـ إنتي عرفتي منين إني عاوز أتكلم؟

ـ مش قلنا الصحفي مايتسئلش أبدًا؟ الصحفي بيسأل بس.

ضحك وضحكت معه، أخذ يحكي لها قرابة الساعة ونصف الساعة عن كل شيء يشغل باله، كل شيء يريد السؤال عنه، شعر أنه كلما تحدث أكثر يرتاح أكثر وأكثر، كلما ينظر إلي عينيها يشعر بالأمان والطمأنينة يتسربان إلى غشاء قلبه ويغلّفانه، فيحكي بلا خجل. بكى مرتين، الأولى خلال حديثه عن والدته، والثانية حينما تحدث عن أولاده وما كان يفعله بهم. حكت له بعدها عن حياتها العملية الزائدة عن الحد، وعن عمرها الذي ضاع في انتظار أول الشهر للحصول على راتب بالكاد

يكفيها، ويوم عطلة غير محدد، وسَبق صحفي قد لا يحدث إلا كل شهرين، وترقية تأخرت كثيرًا، تحدثت معه عن لقاءاتها التي أجرتها، والمؤتمرات التي غطَّتها، ثم عن حياتها الشخصية، ضغط أهلها عليها لتتزوج، ضيقها وتأففها من أقاربها الذين كلما يصادفونها يسألونها السؤال السمج المعتاد «مش هنفرح بيكي بقى يا بنتي؟؟»، «مش هنشوفك في بيت عدلك بقى؟»

ـ عَدَلْ إيه يا ولاد الـ... إلهي تتعدلوا على خازوق طويل. قالتها بسخرية.

انطلقت منه ضحكة كان قد ظن أنها لن تصدر منه قط. نظرت في ساعتها فصاحت: يا خبر! الساعة ٥. معقولة إحنا قعدنا ٣ ساعات؟!

ـ معقولة يا زينة؟ أنا حاسس إنهم كانوا ٥ دقايق.

ـ أنا بقى حاسة إنهم كانوا دقيقة واحدة. يا خالد.

ـ ممكن تقولي «خالد» تاني؟

ـ ليه يا خالد؟ قالتها وهي تبتسم ابتسامة جعلته يشعر أنه ليس جالسًا على كرسيّ، بل يطير في الفضاء. فأردفت:

ـ إنت عارف إني مبسوطة قوي إني شفتك؟

ـ أكيد مش أكتر مني، ماتتصوريش مبسوط قد إيه وأنا معاكي، وحامل هم اللحظة اللي هاسيبك فيها وأرجع للمشاكل والخوف والقلق. (نظر في ساعته) يلا عشان ماتتأخريش وأنا كمان هاروح أودي ابني المستشفى.

ـ ألف سلامة عليه. ليه ماله؟!

ـ ابني عنده فشل كلوي، وبيعمل جلسة غسيل كلى ٣ مرات في الأسبوع.

ـ تحب آجي معاك؟

ـ عارفة إن أمه مقالتليش الكلمة دي؟ قالها وقد اكتسى وجهه بمسحة حزن مفاجئ.

ـ طب يلا بينا، ويا ريت بلاش أشوف على وشك نظرة الحزن دي تاني. ممكن يا خالد؟

ـ ممكن. أنا أسعد واحد في الدنيا دي يا زينة. إنتي عارفة إني حاسس إن ربنا عوضني عن فقدان أمي. (أطرق وصمت لثانيتين قبل أن يكمل في أسى) وعن حاجات تانية.

أشار إلى النادل ليحضر الشيك، دفع قيمته ورحلا بسيارتها إلى منزله، اتصل في طريقه بابنه وطلب منه أن يجهّز نفسه لأنه سيأتي بعد ربع ساعة ليأخذه إلى المستشفى، فرح كثيرًا وتهلل وجهه بالتغيير الذي طرأ على والده.

حينما وصل خالد مع زينة بسيارتها وجد ابنه واقفًا ينتظره، وغادة تتصل به تخبره أنها ستذهب لمقابلة صديقاتها في النادي فرفض رفضًا قاطعًا:

ـ مافيش نزول من البيت من هنا ورايح لحد ما أشوف قصتك معايا إيه بالظبط.

ردت غادة مقتضبة: أوكي. مش هانزل.

أغلقت المكالمة معه واتصلت في نفس الوقت بأمجد:

ـ أمجد أنا مش هاجيلك.

صاح فيها قائلا: نعم؟؟! ده أنا حضرت كل حاجة! مش هتيجي ليه؟!

ـ عشان إنت اللي هتجيلي. الشقة عندي فاضية. قدامك نص ساعة وألاقيك هنا. وماتجيش بعربيتك طبعًا. تعالى بتاكسي.



ركب مصطفى سيارة زينة، أخبره والده أنها صديقة قديمة وعرَّفه بها، صافحها مصطفى فصافحته وحضنته، وأخذت تداعبه طوال الطريق وتخبره بمشاهير الشخصيات الناجحة والذين كانوا مرضى بأمراضٍ أكثر خطورة من مرضه، وأخذت تحثه على النجاح والإصرار وترك كل ما يهد عزيمته، سألته عن دراسته والمواد التي يدرسها. بينما كان خالد يراقب حديثهما في صمتٍ لا يخلو من بهجة ملأت صدره، إلى أن وصلوا المستشفى. جلس ابنه على السرير وجاءت الممرضة لتوصل قسطرته بالجهاز بعد أن جهزته للعمل، وطلبت من والده أن يحضر لها بعض حقن الحديد والأدوية التي ستضخها في الأنابيب خلال الجلسة. فأخذت زينة أسماء الأدوية وذهبت هي لإحضارها بعد أن جسَّت براحة يدها على جبين مصطفى ومسحت بتحنان العرق الذي يقطر على جبينه. لم تكد تمر ثلث ساعة حتى عادت ومعها الأدوية المطلوبة وسبعة عشر كتابًا للدكتور مصطفى محمود.

ـ أهو د. مصطفى محمود ده، واحد من عظماء التاريخ، مش في مصر بس، لا ده في العالم. وسنك ده هو السن المناسب لقراءة بعض أعماله، عاوزاك في كل جلسة تمسك كتاب من دول تقراه وتخلصه.

يادوب الساعتين ونص بتوع الجلسة يا مصطفى يا حبيبي. ولما تخلصهم هاجيب لك غيرهم.

نظر لها مصطفى نظرة امتنان قبل أن تنهض وتستأذن من خالد الذي أوصلها إلى الخارج وشكرها من كل قلبه، رحلت بعد أن صافحته فاحتضن يدها، همَّت لتسحبها فتمسَّك بها للحظة ثم تركها، أرسلت له نظرة تحمل معاني كثيرة، معاني إيجابية طمأنته على أية حال.

ما إن دخل خالد المنزل مع مصطفى الذي يحمل في وجهه فرحة عارمة، وجد غادة جالسة على الكرسي مرتدية بشكيرًا بالكاد قابضًا على نصف صدرها السفلي، ممسكة بـ «سيشوار» تجفف به شعرها، طلب خالد من ابنه أن يدخل ليخلّد إلى النوم، ويستيقظ مبكرًا ليذاكر، فأومأ رأسه بالموافقة راضيًا وقبَّل رأسه قبل أن يدخل غرفته. دلف خالد إلى غرفة داليا فلم يجدها، سأل غادة عنها فأجابته بلا مبالاة أنها ما زالت بالخارج إلى الآن.

- يعني إيه لسه برا؟! ماتصلتيش بيها؟

- أنا لسه صاحية من النوم، اتصل بيها إنت، مش إنت أبوها؟!

- ردودك مش عاجباني على فكرة وشكلي هاقل أدبي عليكي. ما تتكلمي عدل يا هانم؟

نهضت غادة وأعطته هاتفها بعصبية قائلة وهي تهز قدمها المرتكزة على الأرض: بنتك مابقتش ترد على تليفوني. خد كلمها من عندي هتلاقيها مش بترد. كلمها بعدها من تليفونك هتلاقيها ردت عليك.

- ومش بترد عليكي ليه؟ هاتي.

أخذ منها الهاتف فلم تجب بالفعل، فاتصل بها من هاتفه فأجابته،

سألها أين هي فقالت له أنها في المصعد. كان في استقبالها حينها فتحت الباب وسألها عن سبب تأخيرها كل هذا الوقت فقالت له إن آخر محاضرة اليوم في الجامعة تنتهي الساعة التاسعة مساءً، وإنها حريصة أن تحصل هذا العام على تقدير عام امتياز، فأخبرها خالد أنه يثق بها. وطلب منها أن تعامل والدتها بطريقة أفضل. فنظرت لها ولم تتفوه بكلمة، قبلت والدها ودخلت غرفتها.

خلعت ملابسها وأخذت تفكر في الساعة التي قضتها في منزل حبيبها الذي امتلك قلبها مؤخرا، هيثم.



أخذ خالد حمامًا أزال خلاله كل تعب وإرهاق اليوم الطويل المليء بالأحداث، دلف بعدها إلى غرفة داليا ليجدها سافرت في نوم عميقٍ، ومصطفى كذلك. أما غادة فكانت في غرفة نومها جالسة علىٰ كرسيّ التسريحة تقلّم أظافرها واضعة في أذنيها «هاند فري» موصَّل بهاتفها، منفصلة عن العالم سارحة فيما تفعله، حتى رمقت خالد في مرآة التسريحة شاخصًا خلفها ففزعت:

ـ إيه موضوع الخضة اللي بتتخضيها كل شوية ده؟؟ إنتي مش قاعدة لوحدك!

نزعت الهاند فري من أذنيها قائلة بحدة: المفترض إني أعمل إيه وأنا سرحانة وفجأة ألاقيك قدامي؟

جلس على حافة السرير، وأخذ يجول بنظره على جسدها والوشم

المرسوم على ظهرها، والذي كان عبارة عن نسر فارد جناحيه وطرفاه عند آخر كتفيها، لاحظت غادة نظراته فنهضت وارتدت «الروب» المعلّق على الشمّاعة وجلست مرة أخرى. سألها بغتة: فيه حاجة مخبياها عني؟

استدارت قائلة: هاكون إيه اللي مخبياه عنك يعني؟!

- ماعرفش. أنا باسألك. أو خليني أسألك سؤال مباشر. إنتي بتعامليني كده ليه؟

- وإنت يهمك قوي تعرف؟ إنت عمرك ما همّك أي حاجة تخصني!

- ماتستفزنيش وتكلميني عن ماضي أنا مش فاكر منه حاجة، كلميني عن دلوقت.

- يااااه؟! كده بمنتهى السهولة؟ مش معنى إن حظك حلو وماضيك اتمسح من مخك يبقى تأثيره اتمسح. وخصوصًا لو كان تأثيره ده خلاني كرهت نفسي وكنت باتمنى الموت كل لحظة!

حكَّ ذقنه بأصابعه ونظر إلى السقف في ملل ثم نظر لها مرة أخرى وسألها عن ماضيه معها، علّه يجد إجابة شافية لأسئلته ومُبرّر لما تفعله. فأجابته:

- إنت عارف إنت نمت مع كام واحدة من صاحباتي؟ طب فاكر إنك اتجوزت أعز واحدة فيهم عرفي؟ وبالرغم من إني كنت ساكتة كنت بتعاملني زي أوسخ حرامي عندك في القسم.

نكس رأسه فأردفت: الست مهما غابت عن بيتها، بتعرف تميّز ريحة أي ست تانية نامت على سريرها. (نهضت وأشارت بسبابتها على السرير الذي يجلس عليه). السرير ده يا حضرة الظابط إنت نمت عليه مع واحدة مُسجَّلة آداب، خرجتها من قضية مقابل إنك تنام معاها، رشوة

جنسية يعني، ونمت عليه مع عايدة، العجوزة الوسخة اللي في الدور السادس، ومع بنتها.

أشار لها بيده أن تسكت وشرد قليلا، أغمض عينيه ثم قال بعد ثوانٍ:

ـ أنا فاكر البت المُسجَّلة دي، بس مش فاكر شكلها. البت دي قطّعت لها المحضر وخرجتها قبل ما تروح النيابة. (نهض وأردف مُتلعثِمًا مُرتبِكًا) بس حتى لو عملت كده. تفتكري ليه؟! أكيد فيه سبب. كنتي فين في الفترة دي؟ أكيد عدم اهتمامك بيا خلاني أعمل كده.

ـ في الفترة دي كنت غضبانة عند أهلي وخدت ولادي معايا. طردتنا عشان وقفت قصادك لّما ضربت الأولاد وعوّرت مصطفى يوم ما شافك في شارع محمد محمود. (أطرقت للحظات محاولة منع دموعها من أن تنهمر ثم أردفت) الست اللي تكره جوزها اللي خانها مع خمسين ست من بينهم أعز صاحباتها. استحالة تحبه تاني، ولا يجيلها نفس تشم ريحته على جسمها يا خالد. ولو كنا عايشين مع بعض فعلشان الأولاد وبس.

خرجت مسرعة قبل أن يرى دموعها. كان ذلك في الوقت الذي رنَّ فيه هاتفه:

ـ آلو. مين معايا.

ـ خالد حبيبي. أنا مؤمن حربي.

ـ ... مؤمن حربي مين سعادتك؟!

ـ مؤمن حربي زميلك وصاحبك يا عم. المقدم مؤمن يا خالد.

ـ آآآه آه إزيك يا مؤمن.

ـ الحمد لله زي الفل. باقول لك. بكرة حضّر نفسك هاخدك معايا القسم أعرفك من جديد على الناس ونتكلم شوية.

ـ ماشي يا مؤمن. نتقابل على خير.

أغلق خالد الهاتف فتفاجأ برسالة وردت إليه منذ نصف ساعة، فتحها.

«إنت عارف إنك وحشتني؟ أنا عن نفسي مش عارفة إزاي بتوحشني كده. بس مبسوطة.. زينة»

قبَّل شاشة الهاتف والابتسامة مرسومة على وجهه، متذكرًا صوتها الساحر ووقعه في نفسه. أخذ الدواء قبل أن يدلف إلى غرفة داليا وينام جوارها، نومة رجل صعد جبلا شاهقًا وسقط من عليه.

رأى في أحلامه مشهد قبضه على السيدة المنتقبة التي كانت تحمل طفلا ميتًا بداخله هيروين، رآه بالتفصيل متداخلا مع مشهد مشاجرته مع إبراهيم سارينة، تبعه مشاهد لأحداث مرَّ بها في قسم الشرطة، والمقهى الذي كان يجلس عليه في شارع المعز، تلاه مشهد لزينة بوجهها الملائكي وبعينيها الأخَّاذة تتلفت يمينها ويسارها بلهفة كالتي تبحث عن شيء، مرتدية فستانا أبيض يظهر كتفيها الأبيضين، ينسدل عليه شعرها الأسود الذي يعلوه إكليل من الغار كعذراء يونانية خادمة لمعبد أثينا، التفتت له وأخذت بيده إلى بوابة كبيرة مهيبة تعلوها لافتة مكتوب عليها كلمة بلغةٍ لا يعرفها، سألها ما المكتوب فقالت له «*الحقيقة*». سألها هل ستساعده، فابتسمت له واحتضنت رأسه بيديها وقبلت جبينه وأومأت له مبتسمة أن «*نعم، سأساعدك*». أمسكت يده ليدخلا من الباب فلاحت له من بعيد شاشات عملاقة معروض عليها مشاهد مع أخيه وأبيه عاشها معهما في الصغر وفي فترة شبابه، حتى جاء مؤمن حربي وشدَّه بقوة فانفلتت يده من يد زينة، جاء بعده والده يبتسم له

فمسك خالد يده وقبَّلها، حتى ظهر من ورائه فجأة إبراهيم سارينة مُمسِكًا مطواة غرزها في جانبه ليستيقظ صارخًا بصوتٍ هزَّ أرجاء المنزل واخترق صمت القبور الذي يغطيه، فاستيقظت ابنته التي تفاجأت بأنه جوارها، أحضرت له كوب ماء، شرب منه قليلا وسألها عن الساعة فنظرت لهاتفها فقفزت من مكانها:

ـ ياهوي. دي الساعة ٩ الصبح. أنا لازم أروح الكلية دلوقت عندي محاضرة كمان ساعة.

طبعت قبلة على خده وذهبت لترتدي ملابسها وتذهب إلى منزل هيثم الذي تفاجأ بحضورها، فأدخلها غرفة المعيشة ودخل بسرعة لغرفة النوم حيث تنام سارة، كتم فمَها براحة يده وهمس في أذنها مهددًا ألا تصدر صوتًا مطلقًا لأن والدته حضرت وتجلس بالخارج في غرفة المعيشة، فهزَّت رأسها أن حسنًا، فخرج بعد أن التقط ملابسه من الشماعة وارتداها في غرفة المعيشة، سألته داليا باندهاش لماذا يرتدي ملابسه، فكتم فمَها براحة يده وهمس ألا تصدر صوتًا مطلقًا لأن والدته تنام بالداخل في غرفة النوم، فأومأت أن حسنًا!

بعد أن ارتدى ملابسه في عجالة التقط هاتفه وسألها بصوتٍ مُنخفِض:

ـ معاكي فلوس؟؟ هزَّت رأسها بالإيجاب. ففتح باب الشقة بعد أن قال لها: «صباح القشطة يا قشطة».

في نفس الوقت الذي كان يتناول فيه خالد فطوره مع ابنه، أخذ الدواء بعد ذلك وأخذ ينقر على لوحة مفاتيح اللابتوب وابنه يتابعه ويعلمه بتروٍ وتؤدة. حتى اتصل به مؤمن ليخبره أنه ينتظره بسيارته في الشارع، فارتدى ملابسه ونزل له.

ـ تحب نروح القسم على طول يا خالد ولا نقعد في المكان بتاعنا نشرب حاجة الأول؟ سأله مؤمن.

ـ فين المكان بتاعنا ده؟

ـ في المهندسين. بص تعالى نلف شوية بالعربية أفكرك بالأماكن، وبعدين نروح نقعد في الكافيه نص ساعة وبعدين ع القسم.

كان مؤمن يزداد اندهاشًا فوق اندهاشه كلما ينظر إلى خالد، ويلحظ ردود أفعاله وأسئلته العفوية كطفلٍ صغير، فيهزّ رأسه وتصدر منه ابتسامة تغالب دهشته كلما يعقد في ذهنه مقارنة بين المقدم خالد سليمان الكحكي وهذا الشخص الذي أمامه. وإن كان الشخصان هما في الأصل شخص واحد.

هل الإنسان ليس إلا مجموعة من الذكريات والأفعال التي يفعلها أو تحدث له طوال حياته؟!

جحظت عينا خالد ورفع حاجبيه مُشيرًا بسبَّابةٍ مُرتعِشة حينما لاح أمامه المطعم الذي كان يعمل فيه بتوصية من مريم، تذكر اللحوم الفاسدة التي كانوا يستخدمونها وما فعلوه به وطردهم له شر طردة، سأله مؤمن عن سبب رد فعله هذا، فأجابه مبتسمًا أن لهذا المكان ذكرى محببة إلى قلبه! حتى وصلا إلى الكافيه، دخلاه فرحب بهم النادل الذي فرح لرؤية خالد:

ـ حمد الله على سلامتك يا خالد باشا. وحشتنا والله. فابتسم له خالد.

ـ إحنا حققنا مع كل اللي في حارة السرجة على فكرة. قالها مؤمن وهو يخرج سيجارة من علبته، أشعلها وزفر نفسًا مضطربًا ثم أردف:

ـ دلوقت يا خالد إحنا هدفنا مُحدَّد. عاوزين نتوصل للي حاول يقتلك،

ونعرف دوافعه، وسبب موضوع الوشم وجرجس والتمثيلية دي.

ـ أنا أدفع نص عمري وأعرف إجابات الأسئلة دي. قالها مُضيّقًا عينيه راميًا بصره إلى البعيد.

ـ ليك حق تدفعه، ما إنت مش فاكره. (قالها مؤمن مبتسمًا). الموضوع صعب مش سهل، إنت ليك أعداء كتير. سواء بسبب إخلاصك لشغلك، أو بسبب الحاجات اللي كنت بتعملها من تحت الترابيزة.

ـ مش فاهم. قالها مستغربًا.

ـ لما نروح القسم هتعرف. أهم حاجة أي شيء تفتكره تقولهولي حتى لو الساعة أربعة الفجر.

ـ حاضر.

ـ إحنا بعتنا للأهرام والأخبار والجمهورية وكذا جريدة تانية، تجيب لنا أعداد من جرايدها في الفترة اللي قبل الحادثة. هاديهالك تبص عليها. أخوك قال إنها هتساعدك في استرجاع الذاكرة، وزي ما قلت لك، كل حاجة تفتكرها تقول لي عليها.

ـ أنا عندي في البيت شوية جرايد قديمة برضو.

أخذ مؤمن يتحدث معه في أمور كثيرة تشغل باله، تتعلق بمأمورياته وأنشطته المشبوهة قبل الحادث. فأخبره أنه لا يتذكر منها أي شيء إطلاقًا. إلى أن اتصل به محمود:

ـ خالد. عامل إيه يا حبيبي يارب تكون بخير.

ـ الحمد لله يا حودة. أنا قاعد مع مؤمن على فكرة.

ـ آه مانا عارف ماحنا كنا بنتكلم مع بعض إمبارح. أنا في المطار يا خالد. خلي بالك من أبوك. وأسرتك. والأهم نفسك.

ـ إنت هتسافر من غير ما أشوفك؟ ينفع كده؟

ـ ما إنت عارف يا خالد إني ماباحبش لحظات الوداع. أشوف وشك بخير يا حبيبي.

توجها بعدها إلى القسم الذي لم يكد يخطو خطواته الأولى حتى أغدقت ذاكرته عليه بمواقف لا حصر لها أخذت تنهمر عليه دون هوادة.

هل الأقراص التي يأخذها لها الفضل في تنشيط ذاكرته؟ أم وطء قدميه كل مكان قد وطأه قبل الحادثة وتكرار ما كان يفعله؟ أم الاثنان معًا؟ إجابة هذه الأسئلة التي أخذت تعبث برأسه ليست مهمة له الآن، فالأهم أنه بدأ يشعر أن ذاكرته تجود عليه بما يطلبه وهذا كافٍ في الوقت الحالي.

صعد المبنى مع مؤمن، مرَّ جوار الطرقة التي يوجد في نهايتها المكتب الذي كان معلقًا على بابه يوم ما لافتة تحمل اسمه، أخذته قدماه إلى هذه الغرفة فوجد اللافتة تحمل اسمًا آخر، قطب جبينه فلاحظ مؤمن:

ـ المقدم علي الحسيني كان زميلنا برضو مش غريب. بس سيبك أنت أنا مبسوط إنك افتكرت مكان مكتبك.

شدَّ يده برفق ودلفا إلى غرفة الأرشيف، عرض عليه عدة محاضر وحكى له عن مواقف كثيرة حدثت له من قبل، ثم أخرج ملفه وعرضه عليه، سرد له كل حرف داخل هذا الملف الذي يحتوي على كل المأموريات التي قام بها، والأشخاص الذين قبض عليهم، والمشتبه فيهم بمحاولة اغتياله، عرض عليه بعدها عدة صور لأشخاص، ربما يتذكر صورة لأحدهم بأنه هو من حاول قتله يوم الحادثة، عرض بعدها عدة فيديوهات من زوايا مختلفة لما حدث يوم أحداث ماسبيرو.

ـ البت اللي اسمها شادية حققنا معاها، قالت إنها لقيتك يومها بالليل على الساعة ٨ تحت عمارة دار المعارف. والمنطقة دي مش متغطية بكاميرات. حتى الكاميرات المثبتة فوق مبنى ماسبيرو ماقدرتش تجيبها. بس حاول تشوف الفيديوهات دي يمكن تفتكر حاجة.

شاهد خالد الفيديوهات عدة مرات، أغمض عينيه وضغط بيديه على رأسه ليستجمع تفكيره محاولا تذكر أي شيء لكنه فشل. سأله مؤمن:

ـ ماتقدرش تفتكر اعتقلت حد أيام مأمورياتك في شارع الشيخ ريحان والتحرير ولا لأ؟

هز رأسه بالسلب وما زال مغمضًا عينيه. فاستطرد مؤمن:

ـ داليا بنتك كانت بتتردد على ميدان التحرير، وكانت على علاقة بواد متطرف دينيًا (نظر له خالد وقد صُرَّ ما بين حاجبيه. فلحقه مؤمن) علاقة بريئة. علاقة حب عادية يعني. الواد ده قبضنا عليه من فترة وكان في بيته مولتوف ونضارة بحر وحاطط صورتك في درج مكتبه.

نكس خالد رأسه وضغط عليها بقوة أكبر لتخفيف تأثير سهام الألم التي تتراشق عليه من كل صوب. ذهب مؤمن وعاد بعد دقيقة ومعه صورة أحمد الذي كان على علاقة بداليا.

ـ شوف كده يا خالد. دي صورة الواد.

نظر لها خالد ثم نهض فجأة، وحكَّ ذقنه بسبابته وإبهامه قائلًا بعصبية:

ـ أنا مش فاكر أي حاجة نهائي. (زمَّ شفتيه وضم قبضة يده بقوة حتى كادت عروقه تنفجر) هاموت وأفتكر النص ساعة اللي قبل ما شادية تلاقيني مرمي في الشارع. هاموت وأعرف حصل إيه في النص ساعة دي!

رفع رأسه ناظرًا للسقف لثوانٍ، نظر بعدها لمؤمن قائلًا وهو يلوح بيده باستغراب:

ـ وموضوع الصليب. واسم جرجس والحاجات اللي كانت مرسومة فيه. ضرب بقبضة يده بقوة على المكتب الذي أمامه فهدأ مؤمن من روعه وهو يربت على كتفه:

اقعد طيب واهدا. كل حاجة هتفتكرها في وقتها. إحنا مش مستعجلين.

ـ طب يلا نمشي بقى لإن دماغي هتتفرتك من الصداع. محتاج أروح البيت أرتاح شوية.



في نفس الوقت. أحد كافيهات المهندسين.

ـ يعني إيه؟! إنتي مدركة حجم المصيبة اللي إحنا فيها؟!

ـ بص يا أمجد أنا هاطق لوحدي. طول الليل مابانامش من كتر التفكير.

قالتها غادة وسندت بمرفقيها على المنضدة أمامها ودفنت رأسها بين كفيها، همَّ أمجد ليستكمل ما يفكر فيه، فتفاجأ بصوتٍ عالٍ لفتاة، يأتي من منضدة على مقربة منهم.

ـ ها ها ها. إنت مجنوووون. إزاي يعني أتصور لك دلوقت؟ أنا قاعدة لوحدي مفيش حد يصورني. تعالى أسهل. هههههه أصور لك نفسي إزاي. لا صعب طبعًا. خلاص خلاص هاحاول. ماشي يا حبيبي. مووووواااه. باي.

لم تكن هذه الفتاة سوى «زينة» التي تجلس على منضدة جوارهم، مدت يدها الممسكة بهاتفها وتظاهرت أنها تلتقط بالكاميرا الأمامية صورة «سيلفي» لها، لكنها في الحقيقة كانت تستخدم الكاميرا الخلفية لتلتقط لهم صورة بعد أن لفتت انتباههم، ومن حسن حظها كان الاثنان ينظران للكاميرا، فالتقطت لهم صورة رائعة تنقصها ابتسامتهم.

تابع أمجد:

ـ والأولاد! أنا مش مصدق إنهم بيتعاملوا معاه عادي، أنا افتكرت هيفضلوا كارهينه!

ـ تخيَّل؟؟! لأ وكمان دلوقت البيه بياخد مصطفى بيوديه هو بنفسه يغسل كلى، ماهو خلاص بقى فاضي ماوراهوش حاجة!

نظر أمجد إلى الشارع عبر الزجاج، يبحث ـ عبثًا ـ عن كلام يرد به، فأردفت غادة وهي تنهض وتلتقط حقيبة يدها:

ـ يلا نمشي، وأرجوووك أرجوك يا أمجد ماتتصلش بيا. لإنه بيحاول يفتكر إيه اللي كان بيحصل قبل يوم ماسبيرو، وهو ما شاء الله على أمه كل حاجة بيحب يفتكرها بيفتكرها. يا ريت نهدا شوية ونبطل هيجان وماتتصلش بيا. على الأقل في الفترة دي.

تداخل معهم صوت زينة العالي:

ـ عجبتك الصورة يا بيبي؟ ها ها ها. أي خدمة عِدّ الجمايل. حاضر أول ما أروح البيت هاكلمك. موووااه باي يا بيبي.

نظرت لها غادة ثم قالت لأمجد ساخرة:

ـ هيء. يلا نمشي يا بيبي!

بمجرد أن رحلا، أخرجت زينة رقم خالد من الهاتف لتتصل به فتفاجأت به يتصل. أجابت: خالد.

- زينة. إنتي وحشتيني قوي؟

- إحم. وإنت كمان. إنت فين كده؟

- أنا كنت في القسم مع واحد صاحبي لسه سايبه من شوية وراجع البيت. إنتي اللي فين. عاوز أشوفك دلوقت. اتصرفي.

- أنا في شغل مهم جدًا وكمان ساعة هاكون في مول العرب.

- خلاص هاكون هناك كمان ساعة أنا كمان.

- هتلاقيني عند النافورة أول ما تروح اتصل بيا، وعلى فكرة، معايا ليك مفاجأة.

دخل خالد منزله بعد نصف ساعة فوجده خاليًا إلا من غادة، لم يعرها اهتمامه ودخل ليأخذ حمامًا وهو يفكر في كل حرف دار بينه وبين مؤمن حربي، ارتدى بعدها ملابس أخرى غير التي كان يرتديها في الصباح. أخرج الصور التي أخذها من مؤمن وأخذ ينظر لها مبتسمًا، من بين هذه الصور كانت صورة له بملابس الشرطة مُمسِكًا بطبنجة ميري يصوب بها نحو هدف ما. انتابه انتشاء غريب حينها، تذكر هذه الصورة جيدًا، وتذكر أنه أخذ في هذا اليوم المركز الأول في الرماية، شعر في قرارة نفسه أنه بدأ تدريجيًا يسترد المقدم خالد سليمان الكحكي.



مول العرب ـ الساعة ٤:٥٦ مساءً

شعر أنه من فرطِ فرحته طائر في سماءِ النشوةِ والهناء، لكنه استبطأ التاكسي رغم اقتراب مؤشر عداد السرعة من المائة. ومرَّ الوقت عليه ثقيلاً مُتباطِئًا كالسائرِ في كثبانٍ رمليةٍ على قدمين مربوطتين بأثقالٍ حديدية. رغم أن الوقت لم يكن سوى ثلاثين دقيقة! غير أنّ دقيقة العاشق الولِه لها بُعد زمنيّ آخر يختلف تمامًا عن الدقيقة لدى أيّ شخص آخر، فكانت تمرّ عليه كعقود. وقلبه يُلدَغ مراتٍ ومرات من عقارب الساعة التي يرمقها كل ثانية. فالمُتيَّم الهائم له زمنه الخاص به وحده، والذي لم يشعر بماهيته وكنهه أحدٌ سواه.

وصل أخيرًا ودلف بوابة رقم ٢ ومنها إلى البوابة الداخلية المُطِلَّة على الساحة الكبيرة التي تتوسطها النافورة.

رغم الزحام، كانت هي أول شيء يلفت انتباهه، وجدها واقفة على مقربة من النافورة المُتراقِصة بانسيابية على أنغام مقطوعة موسيقيّة لـ «يانّي»، عاقِدة يديها أمام صدرِها، بلغَ وجيبُ قلبه مداه حينما رآها، لاحظ أن كل مرّة يراها فيها تبدو أجمل من المرّة التي تسبقها. خطا نحوها باسِمًا، طلوقًا مُبتسِمًا، حتى دنا منها وأصبح خلفها مباشرةً، هاجم أنفه شذا عطرها فترنّح وهو يتنسم الهواء المُقبِل عليه مارًا بين خصلاتِ شعرها المُنفلِت كجدائل مفكوكة، مُحمَّلا بأريجِ عطرِها، فتفجَّرت براكين الحب الخامِدة بداخله، وسكنت سويداء قلبه، احتلته وأوقدت النيران فيه. أغمض عينيه وارتفع صدره مع ارتفاع مياه النافورة، فاشتعل شعور اللذة في جوانحه كاشتعال النارِ في الهشيم. مسح عبيرها كل ما استرجعه من ذاكرة في الفترة السابقة بعقله واختزنه. ولم يعُد شيء

يحتويه سواها. انتهت المقطوعة الموسيقية فخمدت النافورة، غير أن النار المُضرمة بداخلِه لم تُخمَد، بل زادت اتقادًا يعلوه اتقاد.

التفتت.

التفتت في الوقت الذي فتح فيه عينيه، فجحظتا حينما تلاقت مع عينيها الكحلاء، شهق من هول انبهاره بصفحة وجهها الصبوح، وقسماته المرسومة بدقةٍ وإتقان، وشفتيها الممتلئتين ورديتي اللون، وبشرتها البرونزية التي تحمل إغراء غير مُصطنع، والشامة التي على خدها الأيمن. قال لها كلامًا كثيرًا دون أن ينطق لسانه بحرف. ابتدرت بالحديث مبتسمة:

ـ كنت فاكراك هتتأخر.

لم ينبس. ظل ناظرًا لها لم يجبها فاشتعلت وجنتاها خجلا وأطرقت وهي تعض شفتيها غريزيًا فانصهر مكانه. أردفت وما زالت مُطرِقة:

ـ هتفضل باصص لي كتير كده يا خالد؟

ملأ صدره برحيق أنفاسها قبل أن يردف: حد يكون قدامه الوش الجميل ده ومايبصش عليه؟ ده يبقى يا إما مجنون أو كفيف.

ـ أو فاقد الذاكرة.

ضحك ملء شدقيه فلاحت من ثغرها ابتسامة أخاذة أشرقت بها شمس وجهها، فازداد بقلبه لها شغفًا فوق شغفٍ. سألها أين تحب أن تجلس، فقالت له أي مكان تستطيع أن تتحدث فيه بأريحية.

جال بنظره على الكافيهات المتراصّة حول النافورة حتى وجد أحدها لا يجلس فيه أحد سوى سيدتين، انزويا إلى منضدة في ركنٍ بعيدٍ وبادر بالكلام:

ـ زينة. إنتي كنتي تعرفيني قبل الحادثة؟ اتكلمنا مع بعض قبل كده؟

أطرقت رأسها مبتسمة فاسترسلت خصلات من شعرها فتوارى وراءها جزء من عينيها، وضع إبهامه وسبابته عند ذقنها الدقيق رافعًا رأسها فأجابته:

ـ عارف إني ما زلت مش مقتنعة إني قاعدة معاك دلوقت؟ مش قادرة أصدق. أنا قاعدة عادي كده مع خالد الكحكي اللي اقتحم وكر مخدرات البساتين وكل اللي معاه قوة من أربع عساكر بس. وقعد يتبادل معاهم إطلاق نار ساعتين وقبض عليهم في الآخر.

كان يستمع لها مبتسمًا رغم أنه لا يتذكر شيئًا مما تقوله، حانت منها التفاتة إلى الفضاء من حولها، ابتسمت واسترسلت:

ـ خالد الكحكي اللي جري ورا رجل من دوران شبرا لحد الخلفاوي، وبرغم الطعنة اللي خدتها في جنبك فضلت مكلبش فيه، ومن خلاله قبضت على أكبر عصابة بتتاجر في الأطفال والمخدرات. خالد الكحكي اللي وصل شارع الشيخ ريحان وأخلاها من المتظاهرين الأوباش في ربع ساعة وبَعِّدهُمْ عن مبنى وزارة الداخلية بمنتهى الشجاعة.

ـ إيه ده إيه ده؟! ده إنتي كنتي مراقباني بقى.

ـ طبيعة عملي كصحفية تحقيقات في جرنال كبير مخليني على صلة بمعظم ظباط الداخلية، لكن من بين كل دول أنا كنت مُعجَبة بشجاعتك وتفانيك في العمل. رغم كل اللي اتقال عنك واللي شككوا في نزاهتك و...

قاطعها: طب بمناسبة الموضوع ده بقى. إنتي سمعتي عن مأمورية في باب زويلة؟

ـ آه. دي واحدة من المأموريات اللي اتقال فيها إن فيها ثغرة مش مفهومة.

ـ مش فاهم. إيه الثغرة دي؟

ـ شوف. تأكد إن اللي بيشكك في نزاهتك ده واحد كاره لنجاحك وبيحاول يعمل أي حاجة تشوه سمعتك.

ـ معقولة يكون مؤمن حربي؟ (شرد قليلا ثم أكمل.) مؤمن ده بيقول إنه كان صاحبي وزميلي. الموضوع ده فتحناه النهارده أنا وهو، كدبت عليه وقلت له إني مش فاكر حاجة. لكن وهو بيحكي لي أنا افتكرت جزء كبير من اللي حصل يومها. المشكلة إن فيه حاجات في اليوم ده واقعة مني مش فاكرها.

ـ كل حاجة مع الوقت هتفتكرها، أهم حاجة تواظب على الدوا، عشان نوصل للحقيقة.

ـ حقيقة إيه؟

ـ مين اللي غرضه يقتلك ويخليك تندفن تحت هوية شخص مسيحي؟ أنا عارفة إن كان ليك أعداء كتير، بحكم شغلك، لكن كنت شاكة في كذا حد والنهارده بس قدرت أوصل للإجابة تقريبًا. وهي دي المفاجأة اللي قلت لك عليها النهارده.

ـ إيه بقى؟! قولي لي بسرعة أنا في عرضك هاموت وأعرف مين اللي عمل كده. قالها وقد تغير وجهه تمامًا وجزَّ على أسنانه وقبض بيديه على الفنجان حتى كاد ينكسر، فشهقتِ زينة «بعد الشر عليك يا خالد». لم يستطع أن يبتسم لها لكنه لمح خوفها عليه ولهفتها، وحركة يدها اللا إرادية التي لمست يديه القابضة على الفنجان. أردفت:

ـ إيه طبيعة علاقتك بمراتك بعد رجوعك ليهم؟ من كلامك عنها حسيت إنها متضايقة.

ـ مش كده وبس دي مش طايقاني. مش عارف ليه وهاتجنن وأعرف.

ـ مممممممم طيب شوف بقى. ٨٠٪ تكون هي اللي عملت فيك كل ده.

ـ مانكرش إن ده اللي فكرت فيه برضو، لكن إزاي هتعرف تعمل كل الكلام ده؟

ـ بمساعدة ضلفة الباب ده. قالتها له وهي تناوله هاتفها وتعرض عليه الصورة التي التقطتها لغادة وأمجد.

أمسك بالهاتف وظل يرمق الصورة، انتفض عرق بمنتصف جبهته التي اقتطبت فجأة وعبس وجهه لدقيقةٍ كاملة، هزَّ رأسه لها بحركة عصبية مستفسرًا، فشرحت له ما كانت تفكر فيه، وأن غادة لها يد فيما حدث له فراقبتها صباح اليوم، وسمعت من حديثهما شذرات، وأنهما يفكران في التخلص منه مرة أخرى.

سرح مع كلامها، وتذكر ما حدث بينه وبين زوجته وآخر حديث دار بينهما قبل الحادثة. «إنتي بقى، فيه حاجة مش متأكد منها، هاتأكد منها في الأيام اللي جاية، بس لو طِلعِت صح، عليا الطلاق هيبقى آخر يوم في عمرك. عارفة هاعمل فيكي إيه؟ زي ما باعمل في أوسخ حرامي في القسم. هاحطك جوا شوال مع قطتين واقفل عليكي من فوق، وأدور فيكوا الضرب بكرباج لحد ما حد فيكوا يموت»

انتفض من مكانه وصاح: «آه آه. أنا فاكر الواد اللي معاها ده. آه يا ولاد الـ...»

نهضت ووضعت يدها على كتفه وأخرى على فمه، أجلسته مرة أخرى قبل أن تستطرد:

ـ أهم حاجة دلوقت نتأكد مية في المية. إحنا مسكنا طرف الخيط، وقريب جدًا هنوصل للحقيقة. أهم حاجة اوعى تبيّن لها إنك عرفت حاجة.

قاطعها وقال لها بوجه يفضحه نية الانتقام وعينين زائغتين تحولتا للون الأحمر القاني: أبيِّن إيه، أنا هاقتلهم الاتنين، هاقتلهم ولاد الـ...

قاطعته بصوتٍ خافت لكنه حاد: غلط. إحنا الأول لازم نتأكد مليون في المية.

ـ هو فيه أكتر من كده حقيقة؟؟ أنا فاكر الواد ده على فكرة ودلوقت اتأكدت إن هو اللي عمل كده. إيه تاني هاستناه؟

ـ استنى عليا يومين بس وهاحاول أجيب لك أدلة تانية. وبعدين القتل مش هو الحل. يعني إيه تقتلهم يا خالد؟

ـ أمال عاوزاني أبلغ عنهم ويتسجنوا وتبقى قضية وكده؟ طب شكلي قدام الناس هيبقى إيه؟ مراتي وعشيقها حاولوا يقتلوني؟! فاتسعت عيناها وهمست بصوت خافت: بس. بس هتفضحنا ياعم الحاج بالراحة. يلا نمشي من هنا.

طلب الشيك ودفع قيمته وتمشيا حول النافورة، أكملت كلامها بينما كان مُحدِّقًا إلى اللا شيء، وما زالت علامات الانتقام مرسومة على وجهه.

ـ لما تروح البيت عاملها عادي جدًا. اوعى تبين لها أي حاجة. وسيبني يومين. فيه حاجة هاتأكد منها. وإنت من ناحيتك اهتم بنفسك وخلي بالك جدًا الفترة اللي جاية. واهدا. اهدا. اهدا والنبي.

نظر لها دون أن يتكلم وسرح لحظات ثم صاح: ومش بعيد يكون هو اللي قطع سلك الفرامل يومها. قالها ببطء وهو يفكر بشرود فربتت بيدها الرقيقة على ظهره فالتفت لها ووقف أمامها وجهًا لوجه: إنتي بتعملي معايا كل ده ليه يا زينة؟

غمغمت وابتسمت وبدا على وجهها الارتباك من سؤاله المباشر وهيئته الماثلة أمامها وطوله الفارع الذي يُظهِر ضآلة جسدها بالنسبة له، أصدرت من يديها حركات لا إرادية علَّها تساعدها على قول ما لم تستطع عليه قولا، لكن الكلام حُشِرَ في حلقها فآثرت الصمت. أمسك يدها وقبَّلها فهبت نسمة هواء عليلة لينة، جعلت خصلات شعرها تتطاير وتتعلق على وجهها، فأزاحها بيده الأخرى ونظر إلى عينيها التي هربت من عينيه لهنيهة ثم عادت لتلتقيها مرة أخرى فاهتزت دواخله ونبض قلبه بقوة قائلا:

ـ خوفك عليا اللي باشوفه في عينيكي ده يا زينة مخليني أسعد إنسان في الكون. مش عارف لو ماكنتش لحد دلوقت شفتك كان هيحصل إيه. زينة. أنا.

«يا حبيييييي!»

قالتها أم كلثوم حين صدح صوتها بهذا المقطع من أغنية «ألف ليلة وليلة» في الباحة الكبيرة، لتتراقص على موسيقاها النافورة، فولَّيا وجهيهما شطرها، والقمر المُكتمِل فضي اللون مُعلَّق فوقهما. ضم كفها بكفه وهما يراقبان حركاتها المتزامنة المتناغمة مع الإيقاع، دقيقتين وترك يدها ووضع يده اليسرى على كتفها اليسرى وضمَّها إليه في حنو، فنظرت له مبتسمة ووضعت يدها اليمنى على ظهره، ونظرت مرة أخرى إلى

النافورة حتى انتهت المقطوعة. نظر لها قائلا:

ـ أنا باحبك يا زينة. ومش هاقدر أعيش ثانية بعيد عنك.

ألقاها في وجهها قبل أن يشعر بأن المكان قد خلا تمامًا من كل شيء إلا من حبيبين مُلتاعين بالعشقِ، وظلّهما الذي ألقاه القمر أمامهما. تطاير شعرها مرة أخرى فلفَّت بيدِين مرتبكتين خصلاته خلف أذنيها، وبالكاد ازدردت ريقها، زمَّت شفتيها فبدا بعض الضيق على وجهها، سألها ما بها فأجابته:

ـ خايفة من بكرة يا خالد، مش عارفة إيه اللي ممكن يحصل في المستقبل. بعد ما ترجع لك الذاكرة وترجع لحبايبك ولشغلك من جديد ممكن تنساني وأبقى في حياتك مجرد واحدة عرفتها يومين وخلاص.

ـ استحالة يا زينة ده يحـ...

وضعت أناملها الرقيقة على فمه وأكملت: اسمعني أرجوك يا خالد. (أكملت مُطرقة). أنا شفت أسوَد أيام ممكن حد يشوفها، نفسي اتكسرت بما فيه الكفاية، اتهزمت، عشت أسوأ سنة في حياتي، بعد ما واحد خد من حياتي كل حاجة وأولهم عمري، اتخلى عني، ماسابليش غير خنجر مغروس في قلبي. سنة بحالها ماكنتش باعمل فيها أي حاجة غير إني باعيط. سنة بحالها ماكنتش عايشة فيها لحد ما قررت إني أقوم أقف على رجلي وأتحدى الكون كله. وحطيت كل همّي في الشغل، وكل ما أحب أتقدم وأطور من نفسي أفكر في الأيام دي عشان تكون دافع قوي ليا إني أتقدم. لحد ما نسيت تقريبًا.

ـ نسيتي اللي خانك؟

ردت عليه وقد ارتسم على وجهها ابتسامة مُنكسِرة: لأ، نسيت نفسي. أطرقت وكادت عيناها أن تذرف دموعًا فأمسك كتفيها وقبض

عليهما بتحنانٍ فأكملت بصوتٍ مُنتحِب: عشان تتغلب على خوفك من شيء حصل لك زمان، لازم تفتكره وماتنساهوش، وتستدعيه في ذاكرتك لو غاب عن مخيلتك لحظة. يمكن عشان كده حابة أساعدك برغم إني باحسدك أصلا على فقدانك الذاكرة؟ لكن في نفس الوقت مُشفِقة عليك.

ـ الأيام هتثبت لك يا زينة إني فعلا باحبك بجد. ده حتى عيب على سني. قالها وهو يضحك ضحكة بائسة تحمل بين طياتها هموما فوق همه. نظر بعدها إلى النافورة والناس المصطافين حولها فسألته عن سِنّه واندهشت حينما قال لها ثلاثة وأربعون عامًا وقالت له ساخرة:

ـ اللي يشوفك يديلك بالكتير قوي خمسة وتلاتين. قدي بالظبط.

ـ إنتي عندك خمسة وتلاتين سنة بجد؟؟!

ـ حسابيًا آه، لكن لو عاوز تعرف عمري الحقيقي ضيف عليهم خمستاشر سنة، من اللي شفته في حياتي يا خالد.

ـ كل الحاجات الوحشة اللي شفتيها في حياتك هانسّيها لك يا زينة، مش عشان إنتي بتحاولي تساعديني والله، لأ، أنا أعجبت بيكي من أول يوم شفتك فيه، وقعدت يومها أفكر فيكي وفي عينيكي الجميلة دي. قولي لي صحيح، باباكي ومامتك عاملين إيه؟

ـ آهو، كويسين، من غيرهم كنت ممكن أنتحر من زمان و..

رنَّ هاتفه فوجد المتصل غادة، زفر بشدة قبل أن يرد عليها ليجدها تصرخ وتخبره أن ابنه فاقد الوعي وأصيب بغثيان وضربات قلبه سريعة جدًا وبالكاد يستطيع التنفس. طلب منها رقم المستشفى التي يجري فيها جلسات غسيل الكلى، فاتصل بهم وطلب سيارة إسعاف طوارئ،

سألته زينة التي امتقع وجهها عما حدث فأخبرها بما أخبرته به غادة وأنه سيذهب الآن، طلبت منه أن تذهب معه إلى المستشفى لكنه رفض خشية أن يحدث مشاكل أو مواجهة مع زوجته، فأصرت وأخبرته أنها ستسبقه إلى المستشفى وتراقبه من بعيد كي تطمئن عليه وعلى مصطفى، فأومأ برأسه قبل أن ينطلق مُسرِعًا ليأخذ تاكسي قاصدًا بيته بأقصى سرعة.

وصلت سيارة الإسعاف بالتزامن مع وصوله المنزل، نقل المسعفون ابنه في غضون عشر دقائق وكان في حالة مُزرية. بمجرد دخولهم المستشفى تم نقل الابن إلى غرفة الطوارئ وتعليق المحاليل وأخذ عينات من دمه استعدادًا لعمل جلسة غسيل كلى طوارئ.

بينما كان ينتظر خالد وغادة نتيجة التحاليل وردت له رسالة، وجد الراسل زينة، فتحها.

«أنا شايفاك من ورا الإزاز اللي قدامك، هادعي لك وهادعي لمصطفى».

رفع رأسه ونظر من خلال الزجاج فوجدها واقفة تلوح له بيديها، تظاهر أنه سيذهب إلى الحمام، ووقف عند آخر الردهة وأشار لها أن تأتي قبل أن ينتحي يسارًا فجاءته وسألته عن مصطفى فأخبرها أنه ينتظر نتيجة التحاليل، وطلب منها بإصرار أن ترحل كي لا تتأخر عن البيت، وسوف يخبرها بما ستؤول إليه الأمور. فوافقت أن ترحل على مضض. ورحلت بعد أن ألقت فجأة على مسامعه كلمة هَزَّتْ ـ رغم كل شيء ـ عرش قلبه وقلبته رأسًا على عقب.

.... باحبك.



ـ وأنا كمان باحبك. ومش أي حب. إنت خليتني أشوف الدنيا بشكل تاني. خليتني أعمل حاجات مجنونة أول مرة أعملها في حياتي، وأول حاجة في الحاجات دي إني معاك دلوقت وفي حضنك من الصبح لحد بالليل. ومش ندمانة إني مابقيتش virgin. ولو اليوم ده اتعاد ألف مرة مش هاعترض ولا مرة في إنك تعمل كده.

قالتها داليا بهمسٍ وهي تداعب شعره وتنظر إلى عينيه بلهفة.

ـ وإنتي كمان يا داليا. أنا وصلت بحبي ليكي لدرجة إني باعبدك.

ـ وأنا كمان باعبدك. ربنا يخليك ليا يا حبيبي يا جوزي وكل حاجة في دنيتي. دخلني في حضنك قوي يا هيثم وضمّني جامد. مش عاوزة أخرج منه أبدًا.

تكوّرت بجسدها العاري تمامًا داخل حضنه وأغمضت عينيها، فضمّها إليه برفق، ولثم رقبتها وهو يرمق بعيني ذئب الكاميرا المخبأة في النجفة، مبتسمًا ابتسامة خبيثة، بينما كانت سارة منحنية خلف الباب تنظر لهما من خلال ثقب المفتاح، ثم عادت بحرصٍ شديدٍ مشيًا على أطراف قدميها إلى الغرفة الأخرى كي لا يكتشف هيثم أنها خرجت منها.

نفس الحوار الذي دار بينهما في يومٍ من الأيام، رغم أن هذا اليوم ليس بعيد. شتان الفارق بين حالها الآن وحالها منذ أسابيع قليلة، انطفأت وامتقعت وأصبحت كغصنٍ يابسٍ قُدَّ من شجرةٍ فرعاء طارحة. خِرْقَة بالية مُلقاة بجوار أسطوانة غاز كتلك التي في المطبخ الذي تقضي فيه معظم الوقت كخادمة، لا تملك من أمرها شيئا سوى أنفاسها، رغم أن حتى أنفاسها كانت مُرتهنة لديه! تصنع له طعاما وقهوة ونسكافيه، تقدمه له بيدٍ مرتعشة فيشدها إليه بسادية ليفعل بها ما يريد، مُمتهِنًا كرامتها

وكبرياءها. أخذت تبكي وتئن في صمتٍ حتى كادت أن يغشى عليها.

ترى؟! كيف حال والدها ووالدتها الآن؟ (سألت نفسها) شعرت أنها تريد أن تصرخ بأقصى درجة ليسمعها كل سكان الكوكب. تمنَّت أن تلتقط من المطبخ سكينًا حادة، أو بالأحرى ثلمة؛ فتقتحم عليهما الغرفة وتقطعهما إربًا، أو تفك أسطوانة الغاز وتضمر فيهما النار فيحترقا وتهرب. ألهذه الدرجة يمكن لتجربة ما يمر بها إنسان فتحيله من النقيض إلى النقيض؟! ألهذه الدرجة يمكن لتجربة مرت بها أن تحيلها من فتاة منيرة مستنيرة مثقفة طموحة إلى فتاة تفكر في طريقة قتل وحشية؟!

عادت إلى نفسها من شرودها لتسألها بحيادية: وما ذنب تلك الفتاة المخدوعة فيه كما كانت هي منذ فترة وجيزة، من المؤكد أنها ستكون مثلها في يومٍ من الأيام، بل هذا اليوم قريب جدًا، فهيثم لا يضيع وقتًا كبيرًا مع أي فتاة، وبمجرد أن يأخذ منها ما يريد سيواجهها بما تخبئه نفسه القذرة في غضون أيام، مسكينة، ربما لا تحتمل هذه الصدمة فتواجه مصيرًا مظلمًا هي الأخرى، مثلها ومثل باقي الفتيات اللائي وقعن في شراكه من قبل. ترى ما مصير كل فتاة حدث لها ذلك؟؟ تمنَّت أن تلتقيهن جميعًا وتتفق معهن على تمزيق هذا الحقير. استفاقت من شرودها وانتبهت لما تفكر فيه. اكتشفت أن كل فكرة تومض بداخلها تنتهي حتمًا بالقتل بوحشية.

نهضَتْ بعد أن نحَّت أفكارها جانبًا حينما سمعت صوتهما ينهضان، ارتدت ملابسها التي تحتوي على عدة بقع من بقايا مَنيه، ونزلت الشارع.



بعد انتظار أكثر من ساعتين كان يجلس فيهما خالد ليس على كرسي، بل على مقعد من نار مشتعلة فاشتعلت في قلبه احتراقًا على ابنه المسجى بالداخل، يتحرق حزنًا حينما يرى طبيبا يدخل وآخر يخرج مهرولاً في لهفة، وممرضة تدخل بمحلول فتعلقه. مرَّ أمام ناظريه صور ولقطات مبعثرة عن حياته السابقة؛ أو بمعنى أدق فتات حياته الأولى، وحياته الثانية التي قضاها في حارة السرجة واكتشف بأسى أنها بدأت تتلاشى من ذاكرته، وبالكاد يتذكر منها الفتات هي الأخرى! أدرك أنه كلما تذكر شيئًا من حياته الأولى، ينسى بدلا منها شيئًا من حياته الثانية، وما يتذكره هنا أو ينساه هناك هو ما يترتب عليه ويصنعه في حياته الثالثة التي يعيشها الآن!

حاول وضع تعريف أو كلمة واحدة أو حتى جملة لهذه الحياة الثالثة. فلم يجد سوى ثلاث كلمات. زينة، والده، وأولاده. سند رأسه على الحائط وراءه كالثكلى، دعا الله أن يخرج ابنه بالسلامة، ويطيل في عمر والده، وينوِّله زينة ليعيش معها باقي حياته، ويرى داليا في أعلى المراكز. داليا؟!

أخرج هاتفه من جيبه واتصل بها ليطمئن عليها، سألها أين هي فأجابته ـ بينما كانت في حضن هيثم ـ أنها بالبيت فأخبرها أنهم في المستشفى مع مصطفى وسيتأخرون قليلا. كان ذلك في نفس الوقت الذي يقبل عليه الطبيب بالتحاليل، نهض خالد وغادة في لهفة، سألهم الطبيب عدة أسئلة عن غذاء ابنهم وعن نمط حياته وما يفعله من مجهود. فأجابوه على كل أسئلته، وأخبرهم أن التحاليل لم تبين شيئًا واضحًا الآن، وسيبقى معهم تحت الملاحظة الفترة القادمة. وربما يدخل العناية المركزة اليوم وغدًا. سقط خالد على الكرسي الذي وراءه، سأل

الطبيب إن كان يخفي عنهم شيئا فأقسم له الطبيب نافيًا. وأكدَّ له أن حالة مصطفى بسيطة وسيعود مثل ما كان وأفضل.



ارتدت داليا ملابسها بسرعة لتذهب إلى البيت قبل أن يحضر والداها إلى البيت بمدة كافية، تفاجأت بفتاة عند آخر الشارع تنادي عليها بصوتٍ خافت «بسسس. لو سمحتي. لو سمحتي تعالي عاوزاكي في حاجة». أقبلت عليها داليا وهي تدسّ يدها في حقيبتها ربما تكون متعثرة في شيءٍ ما أو فقدت نقودها فتعطيها ما تجود به عليها وتمنعها من حرج التصريح بحاجتها للمال. لكن سارة أمسكت يدها وبالكاد تلتقط أنفاسها وهي تخبرها أنها ليست كذلك. بل كل ما تريده أن توعّيها وتعرّفها بحقيقة الشاب الذي كانت في حضنه منذ قليل. أخبرتها أنه يخبئ ثلاث كاميرات في أرجاء الغرفة وسيبتزها قريبًا جدًا بما يخبئه عنده. وحكت لها حكايتها معه باقتضاب وأنها تقيم عنده وكانت تسترق النظر عليهما كل هنيهة عبر ثقب مفتاح الباب.

وقفت داليا كتمثالٍ متجمّدٍ، لم يتحرك فيها شيء سوى عينين ترتعشان وتذرفان، ذُهِلَتْ مما تسمعه، فكان وقع الصدمة قويًا عليها، شردت بعيدًا لتفكر - من عدة زوايا - في كل شيء حدث بينهما. لم تمر ثوانٍ حتى صاحت «يانهار أسود! ده أنا مابقيتش بنت!» أطرقت سارة فأمسكتها داليا من كتفيها وأخذت تهزها وهي تبكي وتسألها بصوتٍ منخفضٍ

مرتجفٍ. «طب أعمل إيه دلوقت؟ إنتي ليه ماقلتيليش الكلام ده إمبارح أو أول امبارح؟ جاية تقوليه دلوقت؟؟»

نظرت لها نظرة شاخصة: هو إنتي فاكرة إن المصيبة في إنك مابقيتيش بنت؟!

ـ أمال؟

ـ باقول لك هيبتزك وكل شوية هيطلب منك فلوس مقابل إنه ماينشرش على الفيس واليوتيوب فيديوهاتك وإنتي قالعة ونايمة معاه. وهيبعت الكلام ده أكيد لأهلك. نفس اللي حصل معايا بالظبط..

وضعت يدها على رأسها كالمشيعة جنازة، شعرت أن الدنيا تلف بها وتدور. سألتها وهي على وشك البكاء:

ـ طب والعمل يا سارة! هنعمل إيه في ابن الكلب ده؟!

نظرت سارة بطرف عينيها إلى المجهول بوجهٍ يحمل احتقانا وغلّا دفينا.



بعد عدة ساعات عاد خالد وغادة إلى المنزل بعد أن دخل ابنهما غرفة العناية المركزة وأوضح لهما الطبيب أن حالته في طريقها للاستقرار ووجودهما لا فائدة منه.

دخل غرفة داليا فوجدها منزوية في غرفتها، جالسة على سريرها منكمشة، دافنة رأسها بين ركبتيها وشعرها منسدل ليغطي ملامحها،

ألقى السلام عليها فلم تجب، اقترب منها بحذر وتوجس، لكزها على ظهرها فرفعت رأسها في بطءٍ شديد ليفاجأ بشحوب وجهها وذبول عينيها سألها مُتلهِفًا عما أصابها وعن سبب بكائها فلم تجب. وضع يده تحت ذقنها ورفع رأسها، تلاقت عيناهما لجزء من الثانية ثم هربت بعينيها، نظر إلى وجهها بنظرةٍ فاحصة وهو يكرر عليها سؤاله متوجسًا فهزت رأسها وهي تحاول أن تمنع دموعها من الانهيار، تلاقت عيناهما مرة أخرى فانهارت فجأة في البكاء وسال شلال من الدموع ثم تحول بكاؤها تدريجيًا إلى انتحاب وعويل.

أطرقت مرة أخرى فشرد بتفكيره قليلا ثم سألها: «حد ضحك عليكي؟». انفجرت أكثر وأكثر في البكاء، خرَّ فجأة على ركبتيه كمبنى عالٍ انهار. استند بمرفقيه على سريرها وأخذ يفكر في تلك الغوائل والمصائب التي ولَّت عليه دفعةً واحدة.

نهض وظل واقفًا ناظرًا لأعلى متمتمًا ببعض الكلمات غير المفهومة، جحظ عيناه وانحنى فجأة ملتقطًا شعرها وجذبها فسقطت على الأرض وأخذت تصرخ، رفعها بكلتا يديه وظل ينظر لها بعينٍ شاخصة. نظرة أدخلت الخوف والرعب بداخلها، لم تكد تدخل في حالة هستيرية حتى تأكد له شكَّه.

رأى أمام عينيه في تلك اللحظة أشياء كانت راكدة في بئر ذاكرته العميقة، مشاهد كثيرة رآها بوضوح، مشاهد ترجمت عدة مشاهد أخرى رآها من قبل ولم يكن حينها قادرًا على تفسيرها؛ خالد سليمان الكحكي. هذا الاسم الذي كان يرتعش كل من يسمعه. ابنته تم خداعها من قبل شاب وانتزع منها أغلى شيء تمتلكه الفتاة! (قال ذلك في نفسه).

انتبه من شروده على توسلاتها إليه أن يتركها وألا يضربها. لكنه انهال عليها ضربًا مُبرحًا، أكثر من خمس عشرة صفعة على وجهها ولكمات على جسدها، حتى غابت تمامًا وسقطت على الأرض مغشيًا عليها. فتركها ودلف إلى غرفة النوم فوجد غادة التي تهادى إلى مسامعها صوتهما لكنها لم تتدخل خشية أن تتفوه داليا في هذه الحالة بأي كلام يمكن أن يثير الشك الراقد بداخل خالد تجاهها. فآثرت الصمت والجلوس مكانها، مولية ظهرها للباب، نام بجوارها وأدرك من مرآة الدولاب أنها مستيقظة وليست نائمة. سألها:

ـ طبعًا سمعتي كل اللي حصل.

ـ ...

ـ إيه. ماعندكيش أي تعليق؟!

التفتت له وعدلت من وضعيتها: هاقول لك إيه طيب؟ ماهي لو كانت متربية على الصراحة من الأول ماكانتش تعمل كده. لكن إنت ربيتها على الخوف من صغرها سواء هي أو أخوها.

ـ طب وإنتي. إنتي دورك إيه في حياتها؟ أنا دايمًا السبب في كل حاجة؟؟

ولّت ظهرها له كما كانت، وقالت له بلا مبالاة: ماعرفش بقى، اسأل نفسك.

استشاط غضبًا وأخذ يفكر في رد فعل قاسٍ ليفعله الآن، هل ينهال عليها ضربًا حتى يغشى عليها هي الأخرى، أم يقتلها دون التفكير في عواقب ذلك؟ أم...

كان ذلك حينما رنَّ هاتفه باستقبال رسالة، فتحها ليجد زينة تذكره

بموعد تناول العشاء والدواء، افتر ثغره عن ابتسامة تشف مكانتها التي صنعتها لنفسها بداخله، وتشي بدقات قلبه الملتاع فيها، فتحولت ملامح وجهه من النقيض إلى النقيض تمامًا. اعتاد أن يهاتفها مساء كل يوم حتى أضحى صوتها شيئًا أساسيًا قبل النوم، كأس خمر يحتسيه ويسرف في تعاطيه، لتسري في عروقه جذلاً، ونشوة. دخل الشرفة ليتصل بها:

ـ زينة. وحشتيني.

ـ وإنت كمان يا خالد. مالك؟ حاسة إن صوتك مخنوق.

ـ مافيش حاجة يا زينة. هاشوفك بكرة؟

ـ ماشي، بس طمني عملت إيه مع مصطفى.

ـ هنتكلم في كل الكلام ده لما أشوفك بكرة. سلام دلوقت.

أغلق الهاتف وذهب لغرفة النوم، لم يكد يلقي جسده على السرير حتى سافر في سباتٍ عميق. بينما ما زالت غادة مستيقظة، معلقة نظرها عليه بينما أخذت الأفكار تجوس بعقلها.



أخذت الأفكار تجوس بعقلها وتتجول بلا هوادة منذ الظهيرة حتى الآن بمنتصف الليل، شعرت بجرحٍ أصاب كرامتها حينما انهال هيثم عليها باللكم والصفعات حينما اكتشف أنها كانت خارج المنزل، سألها عن السبب فقالت له أنها ذهبت لتشتري فوطا صحية فلم يصدقها وهمَّ ليلقي ملابسها في الشارع ويطردها ككلبة ضالة، فأخذت تتوسل له ألا يفعل ذلك، وانحنت على قدميه تقبلها كي يتركها في بيته، فوافق

على مضض أن تقضي الليلة فقط، على أن تغادر في الصباح الباكر.

دخلت غرفتها وألقت بجسدها على السرير وأخذت تبكي وتفكر فيما ستفعل بعد ذلك، شردت فجأة ورفعت رأسها، جحظت عيناها حينما تذكرت أنها أخبرته ـ كذبًا ـ أنها كانت تشتري فوطا صحية، وانتبهت أن موعد دورتها الشهرية كان منذ أسبوع، ولم تأتِ.

في نفس الوقت

لم تزل داليا مستيقظة لم تنم حتى الآن، تفكر فيما ستفعله لهيثم؟ هل تواجهه بما أخبرتها به سارة؟ أم تتريث حتى يظهر أمامها بوجهه الحقيقي. وإذا واجهته، ماذا سيكون رد فعله؟ أم تـ...

قطع شرودها وتفكيرها اتصاله، نهضت بتؤدة وأجابته «هيثم. ثواني خليك معايا يا حبيبي». خطت بضع خطوات نحو الباب، مدَّت عنقها لترى هل أحد من والديها بالخارج ويسمعها أم لا. فاطمأنت أنهم بالغرفة فأغلقت على نفسها الباب من الداخل، قائلة لهيثم بدموعٍ جاهدت لتكبحها:

ـ أيوه يا هيثم، معاك يا حبيبي.

ـ وحشتيني قوي يا دودي. كنت عاوز أعرفك حاجة كنت المفروض أقول لك عليها من يومين.

ما إن أخبرها بما يضمره، حتى انهارت في البكاء وأضرم الحريق داخل صدرها.



كانت الحرائق في كل مكان، تلتهم ما يقابلها بلا هوادة أو رحمة. وكان في المنتصف واقفًا لا يدري ماذا يفعل! إلى أن رآها تركض إليه من بعيد فابتهلت أساريره كطفل وجد أمه. أطفأت ما حوله من حرائق بلمسةٍ واحدة، كلما تلامس بأناملها نارًا تُطفأ في الحال. ثم أحالت ما حوله بلمسة أخرى إلى حدائقَ غنَّاء. مَثُل أمامها، لامست شعره براحة كفها فأطرق راكعًا، خاشعًا، خاضعًا، وقد بدا عليه الوهن والضعف، أمسكت يديه فنهض، جذبته نحوها ليستقرّ في حضنها ليهدأ بكاؤه وارتجاف بدنه. وعلى مقربة منه يقف مؤمن حربي عاقدًا يديه خلف ظهره، ينظر له نظرة ليس لها معنى. وبجواره غادة بنفس النظرة. حتى لاحت أمّه من بعيد، بنفس ابتسامتها الساحرة، تفتح له ذراعيها.

نهض من سباته فجأة، بأنفاسٍ لاهثة وذهنٍ مزدحمٍ بعشرات الصور والمشاهد التي تقافزت في أحلامه، أخذ يرتبها علّه يصنع منها ما يجعله يتذكر شيئًا محددًا، داهمته أفكار كثيرة. زينة. هل هي مجرد حالة مؤقتة وسينساها يومًا ما بمجرد أن يستعيد ذاكرته وعافيته كما أخبرته؟ أم سيكمل معها ما تبقى له من العمر؟ هي الآن أكثر شخص وجد معها الأمان المنشود بالنسبة له. يهرب من نفسه إليها، يجد لديها ما تبقى منه. فعبق أنفاسها وعيناها، وأشياء أخرى، عزاؤه الوحيد لكل ما يحدث حوله. وكثيرًا ما تستبد به رغبة جامحة في قضاء عمره في جنتها، ليحتسي كل دقيقة كأسًا من خمر جنة شفتيها فيظمأ بعدها لكأسٍ أخرى بعد هنيهة. فهي الملجأ، المأوى، المسكن والمُستقر. رمق بتقزز زوجته النائمة جواره ثم عاد بنظره إلى السقف ليتذكر والدته التي توخّاها حِمام الموت دون أن يعير شغفها له أي اهتمام!

لا شك أن الموت هو الحقيقة المؤكّدة التي يتفق عليها كل الناس، لكن أمّه لم تكن مستعدة له (قال ذلك في قرارة نفسه) فأسعد الموتى هم المستعدون له ويستقبلونه بشيء من البهجة والرضا. بعض الناس يشعرون أنهم على بعد أيام من الموت رغم أنهم أصحّاء، وآخرون يمرضون فيشعرون أنهم حقًا مُقبِلون على النهاية، وهؤلاء يقضون أجزاء من الليل يفكرون فيه ويهيّئون نفسهم له، لهذا العالم الغامض، والتجربة الجديدة والوحيدة التي لن تتكرر.

والبعض الآخر يمرض لكنهم يحاولون جاهدين الهروب من الموت لأنهم يخشونه، فيبذلون كل أموالهم وقصارى جهدهم في معالجة أجسادهم، وحينما يختلون بأنفسهم في الليل ويتساءلون «*لماذا؟!*» لماذا يبذلون كل هذا الجهد من أجل العيش والبقاء؟ ماذا في الحياة ما يجعلهم مُتَمَسّكين بها إلى هذا الحد؟! هل جسد الإنسان الذي ـ حتما ـ سيفنى؛ يستحق كل هذا العناء للاعتناء به طوال العمر؟ لماذا إذن؟!

جسد الإنسان فانٍ. فانٍ فان.

وما هو سوى وعاء جلديّ يحتوي على لحم وعظام، بجوار أجهزة ودم وأكسجين، سيتوقفون جميعًا يومًا ما، وما سيتبقى في النهاية، هو الذكريات التي يشترك فيها صاحب هذا الجسد مع من حوله. فالذكريات هي أكثر شيء يستحق الاعتناء، وليس الجسد، فالملابس التي تستره أخلد بكثير، وكم من ملابس مات من كان بداخلها يومًا ما، واستبدل بها كفن بعد قليل! يهيلون عليه التراب، مُخلّفًا وراءه كل ما جمعه في حياته، ماله وبنيه وأوراقه؛ شهادات دراسته، ميلاده، تعاملاته وهويّته. كل هذه الأوراق يمكن للإنسان رؤيتها جميعًا، ما عدا ورقةٍ واحدة.

ألا وهي شهادة وفاته. فهذه هي الورقة الوحيدة التي لا يراها صاحبها. ويظل الموت، كما هو، ليس إلا حروفا وكلمات مُبهمة، منقوشة بحبرٍ أسود. على صفحاتٍ سوداء.

ويظل دومًا هو الخط القاطع لفضول الإنسان لما هو آت!

نالته الدهشة لما يفكر فيه، ولماذا يفكر فيه؟ هل هو مقبل على الموت؟ أم القتل؟ هل كان يفكر في مثل هذه الأمور قبل فقدانه للذاكرة؟! نفض رأسه من تلك الأفكار ونهض. دلف إلى المطبخ وتناول قطعة كيك وكوب عصير كي يستطيع تناول الدواء، دلف بعد ذلك إلى غرفة داليا التي انهال عليها ضربًا وتركها مغشيًا عليها، شعر ببعض الذنب وتأنيب الضمير، راقب علو صدرها وهبوطه فتأكد أنها ما زالت حيَّة. فتنفَّس الصُّعَدَاء. واقترب منها بقلب أب حنون ومسد شعرها وأعاد خصلة على وجهها إلى مكانها. أخذ مجموعة من جرائد الفترة التي سبقت فقدانه الذاكرة ليتصفحها، يقرأ أخبارًا كثيرة فيتذكر أشياء، وأشياء أخرى لم يدر عنها شيئا. إلى أن اتصل به والده يخبره أنه في الطريق ومعه من يريدون رؤيته. فقال له متأففًا:

ـ ياااااه بقىع العكننةع الصبح يا بابا. أنا لا طايق أشوف مؤمن ولا أي حد من الظباط اللي أنا أساسًا مش فاكرهم.

ـ هاهاها، لا مش دول اللي معايا يا حبيبي. خمس دقايق وهنكون عندك.

أغلق خالد الهاتف وظل يخمّن من هؤلاء الذين يريدون رؤيته؟! هز رأسه ودلف إلى غرفة النوم ليرتدي ما سيقابلهم به، فوجد غادة ترتدي ملابسها، سألها مندهشًا أين ستذهب فأجابته ممتعضة:

ـ رايحة المستشفى أتطمن على مصطفى، بعدها هاقابل منى وفايزة في النادي، ودكتورة سوسن. هاسألها على موضوع عملية غشاء البكارة ده عشان نخرج من المصيبة بتاعة داليا.

لم يتفوه بكلمة، انتهت من ارتداء ملابسها، طرق والده الباب ففتح لتجحظ عيناه حينما رآه ومعه...

أهل حارة السرجة.

شادية، خميس، جمعة، مريم. ابتهج كثيرًا لرؤيتهم وبالأخصّ خميس وأخاه وقابلهم بشوق لا يقل عن لهفتهم له. اندهش من مجيء الأسطى إبراهيم سارينة معهم، والذي قابله بحضنٍ حار يشف عن انمحاء الحقد من قلبه، وينم عن نسيانه أيّ شقاق كان بينهم يومًا ما. قابلتهم غادة عند باب الشقة، فنظرت لهم بابتسامة ساخرة ورحلت، حاول خالد أن يشوش على موقفها السخيف واستكمل مصافحتهم واصطحبهم في غرفة الصالون.

أخذوا ينظرون لبعضهم البعض وهم يغالبون دهشتهم، غير مصدّقين أن الذي أمامهم الآن هو «جرجس»! كلما ناداه أحدٌ منهم بهذا الاسم يضحكون فتتعالى ضحكاتهم، تبادلوا أطراف الحديث قرابة ساعتين، استيقظت داليا بسعالٍ شديدٍ تناهى إلى مسامع خالد، فاستأذنهم دقيقة ليدلف إلى غرفتها، قبَّل جبينها واعتذر لها عما بدر منه بالأمس، محاولاً زحزحة صخرة الحزن والابتئاس الجاثمة فوق صدرها. ابتدرت عيناها. مسح على شعرها وطلب منها بتحنانٍ أن تحكي له كل شيء حدث لها بعد انصراف الضيوف، فهزت رأسها إيجابًا قبل أن يقبّلها مرة أخرى ويطلب منها الخروج لاستقبال ضيوفه ليعرفها عليهم. فمسحت دموعها وخرجت معه.

ـ بسم الله ما شاء الله. ياختي كميلة إيه القمر ده بدر منوَّر الله أكبر. تعالي في حضني يا حبيبتي.

قالت ذلك شادية وهي تجذب داليا إلى صدرها فغاصت بداخله وأخذت تقبلها وتعتصرها حتى كادت ضلوعها تختلف فيما بينها، أجلسَتْها بجوارها وأخذت تتحدث معها وتحكي لها باقتضاب عن الفترة التي قضاها والدها بينهم، استملحتها داليا وشعرت من طريقة كلامها أنها طيبة القلب ولطيفة المعشر. كان ذلك حينما نهض إبراهيم سارينة ليقبل رأس خالد اعتذارًا عما بدر منه فأشاح خالد برأسه قائلا له أنه نسي كل ما حدث بينهم، فشهقت مريم وقالت ساخرة:

ـ نسيت! يا نهار أسود هو إنت ناقص نسيان؟؟!

ضحك الجميع وقضوا وقتًا ممتعًا قبل أن ينهض والد خالد قائلا:

ـ يلا بقى نسيبك يا حبيبي عشان ترتاح. يلا يا جماعة.

نهضوا جميعًا وصافحوه، سألهم وهو يشيعهم إلى الباب إن كان أي منهم يحتاج إلى شيء فأخبروه أن كل ما يريدوه هو أن يكون بخير وعافية. ورحلوا.

التقط هاتفه ليتصل بزينة: حبيبتي اللي بتوحشني جدًا.

ـ حبيبتك قلقانة عليك من الصبح واتصلت بيك وانت ماردتش.

ـ ماعلش يا حبيبتي كان عندي ضيوف ماسمعتش التليفون، ها، قولي لي بقى هاشوفك فين وإمتى؟

ـ أنا باغطي اجتماع الأحزاب في وسط البلد وهاخلص كمان ساعتين. ممكن نتقابل بعدها في المهندسين.

ـ زي الفل. أنا هاروح أتطمن على ابني في المستشفى وأجيلك بعدها.

ـ استنى أما آجي معاك عشان أتطمن عليه أنا كمان.

ـ لالالا مش هينفع عشان غادة هتكون هناك. هاخلص وآجيلك. مع السلامة.

بعدما انتهى من المكالمة التفت يمينه ليجد داليا ما زالت جالسة بنفس جلستها، تأسَّى لشحوب وجهها وذبول عينيها، جلس بجوارها وضمها إليه بتحنانٍ: قولي لي بقى يا داليا إيه موضوع الواد اللي ضحك عليكي ده؟

حكت له عن الأشياء التي يمكن أن تُحكى فقط، وترجته ألا يقرر أي قرار بشأنه الآن كي لا يحدث ما لا يُحمَد عقباه وينشر فيديوهاتها على الإنترنت. شعر في قرارة نفسه بالانكسار، شاب أرعن يفعل به ذلك؟! مسد شعرها وأخبرها أنه لن يتخذ أي خطوة دون الرجوع لها أولا، وطمأنها أن كل شيء سيكون على ما يرام. أسدلت رأسها إلى صدرها وأخذت تئن فيرتجف جسدها.

ـ أنا آسفة يا بابا والله ما كان قصدي أورطكوا الورطة دي. غصب عني.

ـ ماتتأسفيش يا حبيبتي. اللي حصل حصل، وماتقلقيش كل شيء هيتصلح. قالها وهو يربت على كتفها إلى أن هدأت، قبلته ثم دلفت إلى غرفتها. بينما شرع هو في ارتداء ملابسه.



استفاقت على لمسة حانية على رقبتها، مدد جسده بجوارها وأخذ يتحسّس جسدها ويلثمه بقبلات شهوانية جائعة، لم تكد تفيق بشكلٍ كامل حتى نزع ملابسها وفرج بين قدميها وأخذ يضاجعها دون أنّ يأبه لبكائها الحار. ما إن انتهى بعد دقائق وخمدت شهوته حتى تحوَّل فجأة ووقف منتصبًا كتمثال، رمقها بنظراتٍ حاقدة كريهة قبل أن يجذبها من شعرها بقوة فسقطت من السرير: قدامك ربع ساعة يا بنت الكلب مالقاكيش هنا.

أمسكت قدميه ولثمتهما وهي تتوسله أن يبقيها في بيته فليس لها أي ملجأ ومأوى آخر، سحب قدميه وركلها في وجهها فسال الدم من أنفها، صاح بها أن تغادر المنزل حالا.

ـ هادخل آخد دش. أطلع مالقاكيش. لو لقيتك ماتزعليش من اللي هاعمله في أمك.

تركها مُسجاة على الأرض ودلف إلى الحمام، رفعت رأسها فوجدت هاتفه على الكرسي، بحثت بين الأرقام لتأخذ رقم داليا قبل أن تحزم حقيبتها المحتوية على لا شيء تقريبًا. وغادرت، منكسرة، مطرودة، ومدحورة.

سارت بخطوات وئيدة منكسة رأسها لا تدري أين تذهب ولمن تلجأ، جلست على الرصيف دافنة رأسها بين ركبتيها تنتحب في حرقة قبل أن تخرج هاتفها من جيبها لتتصل بداليا الجالسة في غرفتها تدفن سيجارتها الخامسة بشرود، تفكر في عدة خطط للانتقام من هيثم. لكنها كانت تضع والدها باعتبارها في كل خطة، فهو كل ما يهمّها ويشغل بالها الآن. ولن تحتمل أن يحلَّ عليه الخزي والهوان ضيفًا بسببها.

رنَّ هاتفها فأجابت: آلو..

ـ آلو أيوه يا داليا الحقيني. الحقيني يا داليا أنا في عرضك. قالتها بأنفاسٍ متقطعة وهي تنتحب.

ـ مالك يا بنتي اهدي اهدي. فيه إيه؟

ـ عاوزة أقابلك حالا، هاكون في قهوة البستان بوسط البلد بعد نص ساعة.

ـ تمام. هاجيلك حالا. باي.

حينما وصلت سارة إلى ميدان طلعت حرب في طريقها إلى مقهى البستان، شعرت بنغزة في قلبها وألم حينما تذكرت هذا المكان الذي كانت تتردد عليه يوميا لتبتاع كتبا من إحدى المكتبات، أو لتحضر ندوة في إحدى الأماكن الأدبية، أو حفل توقيع لكاتبٍ انتهت للتو من قراءة روايته. تذكرت حينما كانت هي هي، حينما كان وجهها وَضَّاء مُشرِقًا مملوءًا بالحيوية والحياة، وعيناها تلتمع بالهمَّة والحماس، وعقلها ينير بالمعرفة. تذكرت تلك الفتاة التي كانتها، ولم تعد كذلك الآن.

جلست في مقهى البستان منتظرة داليا التي لم تكد تصل إلى ميدان التحرير حتى اختلجت غمًا وأحسَّت بغصة في حلقها حينما تذكرت أيام الثورة التي شاركت في معظمها دون علم أبيها، تذكرت تلك الأيام والليالي وما حدث لها فيها. تذكرت حينما كانت فتاة على الرغم من جمالها ورقتها لكنها كانت تشع قوة وصلابة. تذكرت أحمد الذي كان يحتل كل كيانها وتوهَّمت أنه الشخص المناسب لها حتى اكتشفت أنه ما هو إلا شخص متطرف فاشل. اقتربت من مقهى البستان فمسحت دموعها في عجالة.

ـ أيوه يا سارة فيه إيه خضتيني.

ـ هيثم طردني.

ـ الكلب ابن الكلب.

ـ مش دي المشكلة دلوقت. المشكلة إن البيريود بقالها أسبوع ماجاتليش وخايفة قوي يكون اللي في بالي حصل.

قالتها وقد اكتسى وجهها بمسحة حزن بالغ، فذُهِلَتْ داليا.

ـ يا نهار أسود. معقولة تكوني حامل؟!

أطرقت رأسها وانهمرت في البكاء فأردفت داليا: طب عاوزين نتأكد. هنعمل إيه؟

ـ .....

ـ تعالي قومي بينا نعمل تحليل حمل ونشوف.

ذهبتا إلى معمل تحاليل متواضع المستوى. أخذوا منها عينة دم وأجروا عليها تحليل حمل. وبعد نصف ساعة ظهرت النتيجة بأنها إيجابية وتأكد شكها. وقع الخبر عليها كان كصخرة قدت من جبل، فسقطت مغشيًا عليها ولم تفلح داليا في اللحاق بها قبل أن تسقط، ساعدها طبيب المعمل في حملها ووضعها على شيزلونج وعلق لها محلول جلوكوز، في هذه الأثناء أجرت داليا التحليل هي الأخرى فجاءت نتيجة تحليلها سلبية، أو بالأحرى سلبية «إلى الآن». استفاقت سارة بعد نصف ساعة فبكت حينما فتحت عينيها وطافت بنظرها في أرجاء الغرفة لتجد نفسها أنها في نفس الواقع لم يتغيّر وأنها لم تكن في حلم كما رأت أثناء إغمائها. حاولت النهوض في عصبية ونزع الأنبوب المُوَصّل لعروقها يضخ فيه المحلول، فنهضت داليا محاولة تهدئتها، وضعت راحة يدها على جبينها

لتمسح عرقها. إلى أن هدأت قليلا، فدخل طبيب المعمل وطلب منهم الرحيل في هدوء لأنهما ليستا في مستشفى أو عيادة! خصوصًا أنه ـ تلقائيًا ـ أدرك أنها حامل سِفاحًا.

رحلتا من المعمل ولم تزل سارة تبكي، ولم تزل داليا تحاول تهدئتها وأقسمت لها أنها لم ولن تتركها قط.

ـ أنا خلاص انتهيت يا داليا. هاروح فين دلوقت؟ لو رجعت لهيثم تاني مش هيخليني أبات عنده. أنا خلاص انتهيت.

ـ ماتقوليش كده. إنتي هتقعدي عندي، لحد ما نشوف هنعمل إيه في المصيبة دي. ثواني.

دخلت داليا سوبر ماركت لشراء كارت شحن.



وقف أمام الشباك الزجاجي الفاصل بينه وبين ابنه الراقد داخل غرفة العناية المركزة مُعَلِقًا نظره إلى السقف بعينين مرتخيتين لم يكد يفتحهما حتى ينغلقا لا إراديًا، ظل واقفًا يرمقه من بعيد، بقلبٍ يتقطع على فلذة كبده، زرفت عيناه الدموع وهو يشاهد الخطوط المتعرجة على شاشة جهاز القلب. لم تمر عشر دقائق حتى أغمض ابنه عينيه طويلا. وما زالت الخطوط متعرجة فأدرك أنه نام.

تحدث قليلا مع الطبيب الذي أكد له أنه سيكون بخير قريبًا، وسط كلامه مع الطبيب فطن إلى أن غادة لم تحضر لزيارته، بالرغم أنها أكدت له على الهاتف منذ قليل أنها ذهبت له واطمأنت عليه. لم يأبه لذلك،

بل كل ما كان يفكر فيه هو الصورة التي التقطتها زينة لها مع عشيقها.
إلى أن اتصلت زينة لتخبره بالمكان الذي ستكون فيه بعد نصف ساعة، فاستقل تاكسي متجهًا لها:

حينما وصل شعر أن قلبه استعاد الحياة مرة أخرى حينما رآها. سألته في لهفة عما حدث له في الليلة الحالكة السابقة، استند بمرفقيه إلى المنضدة أمامه ولم ينطق بكلمة، رمقت زينة صدره وهو يعلو ويهبط باضطراب فمدت يديها لتحتوي يده وحضنتهما، انسال الصمت بينهما قليلا قبل أن ينفجر ليخبرها بما حدث لابنه، ولابنته.

ـ أنا حاسس إن كل حاجة حواليا بتتهد. كل ما بابص لحاجة لازم أفقدها أو قلبي يتحرق عليها. أمي ماتت، بنتي فيه كلب ضحك عليها وانتهى مستقبلها، ابني بيموت بالبطيء، مراتي بتخونني، ماضي مجهول، حاضر مخيف ومستقبل مش عارف ملامح أمه. إيه اللي عملته في حياتي عشان كل ده يحصل؟ هاتجنن يا زينة!

قالها بصوتٍ عالٍ فمسدت شعره بأناملها الرقيقة محاولة تهدئته فسرت قشعريرة وخدر في جسده، أمسك يدها وقبلها لكنه سرعان ما تركها وداري بكفيه وجهًا يحمل جبالا من الهموم بما لا يطيق ويحتمل. نظرت له زينة في حنوٍّ وهي تنزع يديه من وجهه برقة:

ـ خالد حبيبي. أنا اتعودت عليك قوي وشجاع. مش حابة أشوفك منكسر كده!

نظر لها بعينين حمراوين لكنهما يشيان بحبٍ جارف اجتاحه بمجرد سماع كلمة «حبيبي» وهي تخرج من شفتيها كترياقٍ أنساه ـ ولو قليلا ـ ما يحيط به.

ـ أنا إنسان مُحَطَّمْ يا زينة، وإنتي رقيقة ماتستاهليش إنك تعرفي واحد زيي ماضيه أسود والحاضر بتاعه أسوَد. فبالتالي مستقبله هيكون...

قاطعته بوضع أناملها الرقيقة على فمه:

ـ بص يا خالد. أنا قاومت نفسي إني أحبك. لكن خلاص حبيتك واللي حصل حصل. ووعدتك قبل كده إني عمري ما هاسيبك. وهافضل جنبك أشوف إيه الحاجة اللي مزعلاك وأحاول أشيلها. أشوف إيه المشكلة اللي ممكن تأرق عليك حياتك وهاعالجها لك.

أطرق رأسه ودفنها مرة أخرى بين كفيه فأردفت بجديّة وصوتٍ رخيم:

ـ ممكن بقى نبقى عمليين ونحلل مشاكلك ونشوف هنحلها إزاي؟

ـ ماشي يا زينة، ربنا يخليكي ليا يا حبيبتي أنا مش عارف من غيرك كنت هاعمل إيه بصراحة؟

ـ يا حبيبي ماتفترضش احتمالات. أنا واقع في حياتك خلاص. وأمري لله بقى. اتكتب لي وجع القلب معاك. قالتها بضيقٍ مصطنع، وإن كانت التماعة عينيها أخبرته بعكس ذلك وهي تستطرد:

ـ موضوع غادة سيبك منه دلوقت، فيه حاجة باعملها ويارب تجيب نتيجة. إحنا لازم نتابع حالة مصطفى لحد ما ربنا يشفيه ويقوّمه بالسلامة إن شاء الله. أنا هاتابع حالته معاك.

قال لها وهو ينظر لها مبتسمًا: ماشي. ده بالنسبة لمصطفى. طب وموضوع داليا اللي..

رنَّ هاتفه ليجد أن المتصل هي داليا.

ـ أيوه يا داليا. إيه الصوت اللي حواليكي ده؟! بتعملي إيه في الشارع

يا بنت الكلب يا شر... (أشارت له زينة بيدها ألا يوبخها أو يعاملها بقسوة فأعاد خالد سؤاله بصيغة أخرى على مضض) بتعملي إيه في الشارع ومع مين؟

أجابته بصوتٍ منكسر أنها مع إحدى صديقاتها التي وقعت هي الأخرى في شرك نفس الشاب، وأنها هاربة من منزلها وليس لها ملجأ غيرها، واستأذنته أن تستضيفها ببيتها هذه الأيام إلى أن يحدث الله بعد ذلك أمرًا، ويدبروا مكيدة للإيقاع به. فرك جبهته يفكر في الأمر فوافق على مضض. سألها عن اسمه وعنوانه كي يستعين بمؤمن في القبض عليه، فتوسلت له ألا يؤذيه الآن حتى لا ينشر الفيديو انتقامًا. سكت لهنيهة ثم أخبرها أنه سوف يفكر في الأمر حينما يعود. وأمرها أن تذهب مع صديقتها إلى البيت الآن.

أغلق الهاتف قبل أن يشعل سيجارة زفر دخانها في ضيق فسألته زينة:

ـ تفتكر العافية هي الحل؟

ـ أمال إيه الحل؟ إنتي هتعملي زيها؟ أنا لازم أجيبه وأشرَّح أمه ابن الكلاب؟

ـ مش حل يا خالد، إحنا الأول نخليه يتجوز البنت ويطلقها تاني يوم عشان موضوع عذريتها. بعدها نبقى نعمل معاه أي حاجة إحنا عاوزينها.

شرد بنظره قليلا يفكر في كلامها فوجده متفقًا مع كلام ابنته، وفي كل الأحوال فهو لا يريد حدوث فضيحة. فأومأ رأسه بالموافقة قائلا:

ـ كلامك جميل. بس برضو ده مايمنعش إنه لازم في الأول ياخد علقة حلوة ويتأدب.

داعبته مبتسمة: الظابط اللي جواك مالوش علاقة خالص بفقدان الذاكرة أو رجوعها.

فانطلقت منه ضحكة عفوية: آه مانا خدت بالي، وبيطلع في الأوقات المناسبة. أمسك يدها وحضنها بكفيه مردفًا:

ـ بس الظابط ده بيختفي لما باكون معاكي. ربنا يخليكي ليا يا زينة. زينة إحنا لازم نتجوز أنا مابقيتش قادر أعيش من غيرك.

ـ هنتجوز، بس إنت لسه ماتعرفش عني أي حاجة، ده أولا. ثانيا إنت لسه عندك مشاكل، لازم نحلها الأول قبل أي حاجة.

ـ بالنسبة للمشاكل هتتحل طالما إنتي معايا، وبعدين مين اللي قال إني ماعرفش عنك حاجة؟ كفاية إنك ملجئي وأماني ودنيتي كلها. إيه تاني هاكون محتاج أعرفه عنك؟

أطرقت رأسها وزمت شفتيها قائلة:

ـ خالد أنا حكيت لك قبل كده عن جزء من الماضي بتاعي. بس مش بالتفصيل. أنا مش آنسة.

سُرَّ ما بين حاجبيه: مش فاهم.

ـ أنا مُطلَّقة. بس ما زلت بنت. من سنتين اتجوزت واحد كان زميلي في الجرنال، يوم الدخلة مالقاش حاجة حصلت. بص لي بنظرات شك. سألته بخوف بتبص لي كده ليه وحسيت إنه بيشك فيا. ضربني وأهانني. وصمم إننا تاني يوم نروح للدكتورة تشوفني وتكشف عليا. فالدكتورة قالت له إن غشائي مطاطي ومش هيتفض غير بعملية. ماصدقش وشدّني من شعري بس بابا وماما وجوز بنت عمتي تدخلوا، وطلقوني منه، فاشترط إني أتنازل عن كل حاجة في الشقة. وافقت طبعًا. (نكست

رأسها إلى صدرها وحاولت حبس بركان دموعها واستطردت) عشت بعدها أسوأ وأسود سنة في حياتي زي ما قلت لك قبل كده. لا أكل ولا شرب ولا أي حاجة. لحد ما انتفضت فجأة وبقيت باطلع كل همومي في الشغل. وقفلت قلبي من ساعتها. بعد ما اتخدعت في الشخص اللي كنت فاكراه محترم ومثقف. دلوقت كل ما باشوفه في الجرنال بازداد إصرار إني أنجح وأسبقه.

انفجر البركان فجأة فتمخض عن شلال من الدموع، نهض وجلس على الكرسي المجاور لها وضمها إلى صدره وأخذ يربت على ظهرها قائلا:

ـ كل اللي قلتيه ده خلاني أحبك أكتر. مش هاتخلى عنك ولا هاسيبك يا زينة. إحنا اتخلقنا لبعض وأوعدك هاعيش معاكي لحد ما أموت.

رفعت رأسها وأزاحت خصلة من أمام عينيها اللتين تحولتا إلى كأسين من الدم رغم أن سحرهما ما زال بكامل بهائه، قالت له بصوتٍ متهدج:

ـ بعد الشر عنك يا خالد، أنا بس مش هاقبل على نفسي إنك تتجوزني شفقة بحالي. أكتر حاجة مؤلمة هي نظرات الشفقة. عشان كده عاوزاك تاخد وقتك قبل ما تاخد القرار. وفي كل الحالات أنا جنبك وهاساعدك لحد ما تتغلب على كل مشاكل حياتك.

ـ والله ما هاسيبك ولا هاتنازل إني أكون معاكي للأبد يا زينة. ومشاكلنا كلها هتتحل وهييجي يوم نفتكرها ونضحك عليها.

مسحت دموعها بكفها قبل أن تنظر إلى ساعتها فذعرت حينما وجدتها السادسة، التقطت حقيبة يدها ووضعت فيها مفاتيحها وهاتفها وأخبرته أنها ستذهب الآن لتغطية اجتماع السفراء بأحد فنادق الزمالك، صافحته ورحلت، تاركة بعضا من عبق عطرها على يده. دفع الحساب للنادل

وخرجا، أمسكت يده قائلة:

ـ اوعدني إنك ماتزعلش داليا، وموضوعها إن شاء الله هيتحل بالتراضي. ومصطفى هاتابع حالته معاك. (رفعت حاجبيها ونظرت لأعلى وقالت لها بعد أن زفرت) وغادة ماتحاولش تحتك بيها الأيام دي.

ـ ماتقلقيش. وإنتي كمان ظبطي لي ميعاد مع أهلك عشان أطلب إيدك منهم.

قَبَّل يدها قبل أن تستقل تاكسي إلى الزمالك، استوقف تاكسي هو الآخر قاصدًا البيت. غير أنه وردته مكالمة من رقمٍ غريب.



دخلت داليا ومعها سارة، سألتها غادة عنها فأخبرتها أنها صديقتها وستمكث معها عدة أيام، وقد استأذنت والدها فوافق. شعرت سارة بالإحراج من طريقة الحديث بينهما، لكنها لم تأبه للأمر كثيرًا، فشعورها هنا بالإحراج أهون ألف مرة من شعورها عند هيثم بالمهانة. بمجرد أن دلفت إلى حجرة داليا ارتمت على السرير فتذكّرت المصيبة الغارقة فيها حتى أذنيها، والتي حلَّت عليها من حيث لا تدري. فأجهشت بالبكاء. واستها داليا وأخبرتها أن كل شيء سيكون على ما يرام، وأن والدها حتمًا سيُلَقِّن هيثم درسًا قاسيًا لن ينساه أبدًا. أجهشت سارة أكثر في البكاء:

ـ وإيه الفايدة من تأديبه يا داليا؟ مشكلتي دلوقت هي اللي في بطني ده.

ضمَّتها داليا إلى صدرها وأخذت تهدئها، شردت قليلا فأضاءت

في عقلها فكرة حينما تذكرت شادية التي زارتهم اليوم، والتقطت من بين كلامهم أنها تعمل لدى طبيبة نساء وتوليد تعمل بدون رخصة مزاولة مهنة.

«ـ وإنتي يا شادية. لسه بتشتغلي عند الدكتورة اللي ورا حارة السرجة اللي بتشتغل من غير ترخيص؟

ـ آه هو فيه غيرها وقلت لأ يا سي جرجس. آآآقصدي ياخالد بيه؟ مرتبي من مستشفى القصر العيني مش بيكفي. آدي أمر الله.

استفاقت داليا من شرودها وسألتها:

باقول لك إيه يا سارة. مش إنتي عاوزة تتخلصي من اللي في بطنك؟ أنا عندي الحل. اعتبريه اختفى خالص. ماتقلقيش يا حبيبتـ...

وردتها مكالمة، بمجرد أن رأت اسمه على شاشة الهاتف أصدر قلبها دقات سريعة قوية متتالية حتى كاد يشق صدرها، أجابت بكلمة واحدة مرتجفة «ألو، أيوه يا هيثم»

ـ إيه يا داليا؟! مش أنا قلت لك إمبارح نتقابل عشان الفلوس اللي طلبتها منك؟؟؟! ولا بتختبريني ومش مصدقة إني ممكن أفضحك؟

ـ لا والله يا هيثم بس أنا كنت تعبانة شوية.

ـ مش موضوعي ومش مشكلتي يا حبيبتي. الفلوس بكرة تكون عندي الساعة خمسة. كلامي واضح؟

ـ ....

ـ ردي عليا كلامي واضح ولا لأ؟ قالها بصوت عالٍ وبعنف فأجابته مختلجة:

ـ آه آه واضح. واضح بس والنبي خليها بعد بكرة. لإني بكرة

هاكون مع أخويا في المستشفى عشان في العناية المركزة.

ـ بلا عناية مركزة بلا مخففة. أنا قلت بكرة يعني بكرة.

ـ عشان خاطري يا هيثم أبوس إيدك. ماتمسحش في ثانية اللحظات الحلوة اللي كانت بيننا. ثم إني هيكون معايا ست آلاف مش تلاتة. هاجيبهم لك وهاقضي معاك طول اليوم نعمل كل حاجة.

لمعت عيناه فوافق على الانتظار مجبرًا، فثلاثة آلاف جنيه زيادة تستحق الانتظار.

ـ ماشي. هاستناكي بعد بكرة تجيني بالفلوس. باي.

أنهى المكالمة فشعرت أنه أغلق عليها باب قبر وحبسها بداخله. أحسَّت بمرارةٍ في حلقها كمرارة الحنظل، سألتها سارة هل ستعطيه فعلا ستة آلاف جنيه. فأجابتها بشرود ألا تفكر في أمر هذا الحيوان الآن، وعليها أن تنام وتهدئ أعصابها كي تتهيأ لإجراء العملية. أشرق وجه سارة فرحًا وسألتها كيف سيتم ذلك. فربتت داليا على كتفها وأخبرتها أنها تعرف من يجري لها العملية وستتولى تكاليفها بالكامل. أمسكت سارة يدها وجذبتها نحوها لتقبلها فسحبتها بسرعة واحتضنتها. إلى أن نامت، ونامت داليا بعدها بدقائق بعد أن أخذت تفكر في المستقبل مجهول الملامح.



بمجرد أن رآه بدا وجهه مألوفًا بالنسبة إليه، شعر أنه بالفعل يعرفه، وتأكَّد له ذلك حينما سمع صوته وهو يصافحه بترحابٍ مبالغ فيه:

ـ خالد بيه الكحكي. يا نهار أسود يا جدعان. حمد الله على سلامتك يا كبير. عليا الحرام من ديني أنا أكتر واحد زعل عليك.

ـ ماعلش بقى بهدوء كده. فكرني بيك بالراحة وأنا هافتكرك.

ـ معقولة يا خالد بيه؟ إنت بجد ناسيني؟ طب وربنا أنا افتكرتك كل ده عامل تمثالية لحد ما موضوع الهيروين والفلوس ينام.

ـ يانهار أسود. هيروين إيه وفلوس إيه ياله؟؟؟ إنت مين يابن المرة ما تخلص؟!

ـ أنا فاروق أبو جريشة يا كبير. فاروق. أبو جريشة حبيبك.

ظل خالد ينظر إليه بعينين ضيّقتين محاولا تذكره لكن بلا جدوى، نظر فاروق حوله في تعجب، قال له وهو يغالب دهشته.

ـ يا كبير أنا دراعك اليمين. أنا خدام سعادتك ياما اشتغلنا مع بعض. ومن بعدك يا باشا الحالة بقت ضنك. مش فاكر كماين الصحراوي. طب مأمورية مصنع النجف بتاع الطالبية. الحريقة يا باشا. المعلم طنطاوي بتاع القماش. طب باب زويلة والجيار. طب معرض العربيات بتاع عبد الملك سبور.

تهلّل وجه خالد وأشار له بيده قائلا: أيوه يا فاروق استنى ثواني. باب زويلة ده كان فيه إيه بقى. واحدة واحدة فكّرني.

ـ طب سياتك افتكرتني أنا الأول؟!

ـ يا عم مش لازم أفتكر أمك دلوقت المهم كلمني كده عن موضوع باب زويلة ده. (ضيق عينيه مرة أخرى محاولا تذكر شيء ما.) وله. هي أمك كانت مسجونة في مخدرات؟

ـ آه سعاتك. إنت كنت موصي عليها في السجن. وبدّرت خروجها.

هي لسه خارجة من قريب ومن ساعتها وهي بتدعي لك وربنا.

شرد خالد قليلا. تذكر الفتات لكنه كان كافيًا بالنسبة له حاليًا. سأله مرة أخرى عن باب زويلة قبل أن يجلسا على أحد المقاهي، ظلا يتحدثان قرابة الساعتين، تذكر فيهم خالد بعض الأشياء التي كان قد استعان فيها بفاروق، الذي أخبره أنه على أتم استعداد لخدمته في أي شيءٍ آخر إن طلب. فأخبره خالد أنه قد يحتاجه في الفترة المقبلة. ثم تركه بعد أن أخرج من جيبه ورقة فئة مئتي جنيه وأعطاها له، ظل أبو جريشة يدعي له إلى أن غادر قاصدًا منزله. فقابلته غادة بتذمر:

ـ إنت إزاي توافق إن بنتك تجيب البنت دي تبات معاها؟ إحنا عارفين دي وراها مصيبة إيه هي كمان؟

ـ استني استني يا روح أمك. قولي لي الأول إنتي كنتي فين النهارده؟ إنتي قلتي لي إنك هتروحي لمصطفى. وعرفت إنك مارحتيلوش. هه. كنتي فين؟؟!

غمغمت وشعرت أن الحروف تعلَّقت بحلقها ولم تستطع التحدث، اقترب منها وقبض بيده على ساعدها فتأوهت ألمًا، غير أنه تذكر ما قالته زينة له بألا يحتك بها، فترك يدها وسألها بتراخٍ أين كانت، فقالت له إنها بالفعل لم تذهب لمصطفى لأن إحدى صديقاتها أصيبت في حادث وهي الآن بين الحياة والموت، فتظاهر بأنه صدقها. كررت عليه السؤال:

ـ إزاي توافق إن البنت دي تبات عندنا؟

ـ يومين تلاتة بس وهارجعها لأهلها. أنا داخل أتكلم معاهم.

طرق الباب فاستيقظتا منتفضتين مذعورتين، نادى خالد «داليا. أدخل؟» فأذنت له بالدخول. أقبل عليهم بوجهٍ لا يحمل أي تعبير،

سأل ابنته وهو يشير إلى سارة: دي صاحبتك بقى؟
قالت له بصوتٍ منخفض وهي تزدرد ريقها: آآآآ. أيوه يا بابا هيَّ.
جلس بجوارهم على حافة السرير وسألهم بصوتٍ هادئ:
ـ الواد ده ضحك عليكوا إزاي بقى؟ كان بيشربكوا حاجة يعني ولا إيه بالظبط؟
أخذت داليا تحكي له على استحياء بعضا من الحقيقة، شعرت سارة ببعض الطمأنينة من حديثه السلس اللين، رغم خشيتها في البداية من هيئته الفارعة المهيبة فخلعت عباءة الرهبة وأخذت تضيف على كلام داليا بعض الأشياء وتُعقّب. حتى انتهتا فقال لهم خالد بلسان الحيرة:
ـأنا دلوقت مش عارف أعمل للواد ده إيه. بافكر أبلغ عنه وأجيبه. بس خايف يكون سايب الفيديوهات بتاعتكم مع حد ويخليه ينزلها. (نظر إلى مرآة التسريحة وأردف) لازم الأول أتأكد إن الفيديوهات معانا وإن مافيش نسخة تانية مع حد. (صمت لثوانٍ كأنه يتأمل الأمر ثم استكمل) الواد ده لازم يتم التعامل معاه بطريقة خاصة. (نفض رأسه من التفكير قائلا) ناموا إنتوا دلوقت وهابقى أشوف موضوعه بعدين. (قالها وهو يفكر في فاروق أبو جريشة).
خرج خالد دون أن تخبره ابنته أنها ستقابل هيثم بعد يومين لتعطيه ما طلبه منها. لعلها تستطيع أخذ الفيديوهات منه وتضمن أنه لن ينشرها، وتنهي الموضوع دون أن يتضخم أويتدخل فيه والدها، وتنتهي هذه القصة.



بمجرد أن مددت جسدها على السرير ظلّت تفكر وشردت بتفكيرها في عشرات بل مئات الأشياء المتداخلة إلى أن رنَّ هاتفها فأجابت:

ـ أيوه يا كيلاني أخبارك إيه؟

ـ كويس يا برنسيسة الصحافة المصرية. ماشفتكيش النهارده في الجرنان ليه؟

ـ كان ورايا كذا مشوار وماعرفتش آجي.

ـ طب على العموم إنتي ليكي عندي مفاجأة جامدة جدًا.

ـ خير؟ هتتجوز أخيرًا. قول لي إنك هتتجوز بقى.

ـ هاهاها. لأ. حاجة أجمد. هاشوفك بكرة الصبح. باي يا برنسيسة.

أغلقت الهاتف، وتذكرت أنها جوعى ولم يمسّ حلقها أي شيء منذ الصباح، نهضت لتفتح الثلاجة وتلتقط ما تجده لتسد به رمقها قبل أن تتصل بخالد لتطمئن عليه وتتحدث معه قليلاً، فأخبرها أنه في البيت وأن كل شيء على ما يرام. أغلقت الهاتف وعادت إلى غرفتها وارتمت على سريرها وغابت بعدها في نومٍ عميق لتتحرش بأحلامها التي أخذت تتحرش بها هي الأخرى.



بعدما تناول الدواء جلس في الصالة يتصفح بعض الجرائد القديمة ويقرأ بعض آيات القرآن، حانت منه التفاتة خاطفة إلى المنضدة أمامه فرمق هاتف غادة، دلف بهدوء إلى غرفة النوم فوجدها تغطّ في النوم. عاد مرة أخرى إلى الهاتف، ووقف أمامه مُعلّقًا نظره عليه، التقطه وضغط

على الزر الجانبي ليفتحه ويبحث فيه عن أي شيء يدينها لكنه وجده محميا بكلمة سر «نقش». مسك الهاتف من حوافه ورفعه لمستوى عينيه، ظل يميله وينظر له بعدة زوايا أفقية من الجنب لتعكس الأضواء أي نقش مرسوم من آثار أصابعها عليه، وجد نفسه أمام عدة احتمالات، جربهم جميعًا ولم يفلح في النهاية. وضعه مكانه واستلقى بجوارها بعد أن شعر بمفعول الدواء يسري في جسده، فاستسلم لتأثيره، وللتعب الذي بذله طوال اليوم وغاب. ليرى في أحلامه دوامات أخرى ومشاهد كثيرة توضع فوق بعضها البعض لتبني ذاكرته وتشيد حائطها من جديد، أو على الأقل ترممه!



في التاسعة صباحًا.

استيقظت داليا وأيقظت سارة وطلبت منها ارتداء ملابسها كي يذهبا إلى مشوارٍ مهم، بعد نصف ساعة نزلتا وذهبتا إلى مستشفى قصر العيني تسأل عن شادية التي قابلتها بترحابٍ بالغ، فقالت لها داليا ببعض من التوجُّس:

ـ طنط شادية. أنا عاوزة منك خدمة ومافيش غيرك يقدر يعملها لي. والموضوع ده يا ريت بابا مايعرفوش.

ـ طنط! مممم. وماله، اؤمري يا غالية يا بنت الغالي.

ـ صاحبتي حامل وعاوزة أعمل لها عمليه إجهاض.

تلفتت شادية حولها في خوف، خشية أن يسمعهم أحد.

ـ وطي صوتك يا حبيبتي إنتي هتفضحيني كده. تعالوا معايا نتكلم على رواقة.

أخذتهم إلى الكافيتريا وانزوت بهم إلى أحد الأركان قبل أن تسأل سارة:

ـ إنتي في الشهر الكام يا حبة عيني؟

أجابتها بانكسارٍ وهوان: في الأول لسه.

أمالت رأسها لداليا وقالت لها بصوت خفيض: مين اللي هيحاسبني يا حبيبتي؟

ـ أنا اللي هاحاسبك. واللي حضرتك تؤمري بيه.

ـ الأمر لله وحده. في الحالات العادية بناخد تلات تلاف. وعشان خاطر الغالي هاخد منك ألفين بس. ولو عاوزة غشاء ممكن أعمل لكوا ديسكاون.

ـ لالالا مش مشكلة دلوقت موضوع الغشاء المهم نتخلص من الحمل ده.

ـ على خيرة الله. تعالي لي بكرة الساعـ...

قاطعتها: لأ عاوزين النهارده يا ريت ماعلش. أرجوكي.

فكرت قليلا: وماله يا حبيبتي خير البر عاجله. خليكوا هنا. هاروح أجيب لها برشامتين «ميزوتاك». تبلع واحدة والتانية لا مؤاخذة تحطها من تحت جوا...

قاطعتها داليا: ماشي ماشي وربنا عرفنا جوا إيه. كملي!

ـ على بال ما نوصل العيادة يكون الدم نزل عليها وننضف على طول. كحت وتنضيف مش هياخد ربع ساعة.

بالكاد ازدردت سارة ريقها، وشعرت بالخوف يتملَّك من كامل جسدها. استطردت شادية: على بال ما أجيب لكوا البرشامتين حضّروا فوطة صحية بالأجنحة عشان الدم لو نزل عليها وإحنا في السكة مايبهدلهاش.



في نفس الوقت.

استيقظ خالد على هاتف من والده يطمئن عليه وعلى أسرته فأخبره أن كلهم بأحسن صحة وأتم حال، بعدما انتهت المكالمة سرح مُحاوِلا تذكر ما شاهده في أحلامه، استجمع تركيزه في استحضار أي مشهد رآه لكنه لم يتذكر سوى القليل كالعادة. نهض كالمجنون وظل يروح ويجيء في الصالة محاولا لكن كل محاولاته كانت تبوء بالفشل، تذكر أن الطبيب طلب منه ألا يتحايل على استجلاب ذاكرته، نكص عن الأمر ودلف إلى الحمام ليضع رأسه تحت الصنبور قليلا وخرج ليتصل بزينة، فوجدها اتصلت به ثلاث مرات، فابتسم واتصل بها:

ـ صباح الخير على أجمل بنت في الكون.

ـ صباح الخير على رجلي وحبيبي اللي مافيش أرجل منه في الدنيا.

ـ إيه ده يابنتي؟! إنتي ازاي بتقدري تخدّريني بكلامك الجميل ده؟

ـ كلامي جميل عشان ليك يا حبيبي. اسمع أنا عندي ليك مفاجأة من العيار التقيل.

ـ هاااااا قولي.

ـ أنا كلمت بابا وماما عليك. وتقدر تقابلهم في أي وقت.

تهلّل وجهه: بجد يا زينة؟؟؟ يعني ينفع أقابلهم النهارده.

- ينفع. بس مش هي دي المفاجأة. وماتسألنيش إيه هي. لما تيجي هاقول لك. اكتب العنوان.

التقط ورقة وقلما وكتب العنوان ثم أغلق الهاتف، لاحظ عدم وجود داليا أو صديقتها في الغرفة. اتصل بها فأخبرته أنها ذهبت مع سارة لتوصلها إلى أهلها وتحاول إصلاح الشِّقاق الذي حدث بينهم. فطلب منها ألا تتأخر كثيرا وتعود بسرعة. دلف إلى غرفة النوم وارتدى ملابسه متعجلاً ورحل، تاركًا غادة غارقة في نومها، أو هكذا خيل إليه.

لم يكد يغلق الباب حتى نهضت لتتصل بأمجد لتخبره أنها بمفردها بالمنزل وطلبت منه أن يأتي، لتمارس معه الجنس على نفس الفراش الذي كان ينام عليه زوجها منذ قليل، ولم تبرح رائحته منه إلى الآن.



وصل خالد في موعده تمامًا، فتأخرت عنه خمس دقائق شعر أنهم خمسة أعوام. فعاتبها بعين المحبة، فاعتذرت له بعين الصبابة والوله. فصفح عنها، وصافحها بيدٍ بكت، حين تركت يدها.

- بابا وماما لما قالولي مين خالد ده، ماكنتش عارفة أقول لهم إيه ولا إيه ولا إيه! إنت يا خالد دلوقت بقيت أغلى حاجة عندي، وعلاقتي بيك أقوى وأكبر من إنها تتحط تحت أي مسمى.

- إنتي حبيبتي يا زينة. ومعاكي باحس إني مراهق أو واحد رجع عشرين سنة لورا، وبانسى كل مشاكلي.

ـ لا أبوس إيدك كفاية نسيان بقى. ههاهاهاها.

ضحكا وهما صاعدان على السلم، حاول أن يُقَبّلها فأشاحت وجهها عنه في غنجٍ ولكمته في وجهه برقة قبل أن تخرج مفاتيحها وتفتح الباب. وتدخل وتناديه أن يدخل. دخل. فوجد رجلا وامرأة جالسين في الصالة، ابتسما له فتسلَّلت الطمأنينة إلى دواخله فصافحهم وقبل يديهما:

ـ دول بقى يا سيدي بابا وماما. واللي من غيرهم ماكنتش هاقدر أعيش ثانية واحدة بعد التجربة السودا اللي حكيت لك عنها.

قاطعتها والدتها: منه لله. ربنا مش هيكسبه إن شاء الله، وهيعوضك خير بواحد سيد سيده يا حبيبتي.

قال لها خالد متلهفًا: أنا أهو يا أمي. مش هالاقي أحسن من بنتكم. وأوعدكم هاحافظ عليها وأعاملها بما يرضي الله.

قال له والدها مبتسمًا: أنا يابني أول ما شفتك استريحت، إحنا مش هنفضل عايشين لها على طول. عاوزين نفرح بيها قبل ما نموت.

ذرفت عيناه فانحنت زينة له وقبَّلت يده ورأسه قائلة: ربنا يديك الصحة يا بابا. فقاطعتها والدتها: ربنا يحميكي يا بنتي ويكرمكم مع بعض. ويا رب تسيبي شغل الصحافة والجري والقرف ده بقى. وجهت حديثها لخالد: يا ريت يابني تعقلها شوية وتخليها تهمد بقى إحنا بنفضل قلقانين عليها كل يوم لحد ما ترجع.

انحنت زينة لتُقَبّل يدها: أنا ماقدرش أقعد يوم كامل في البيت من غير شغل يا ماما. وبعدين لولا الشغل ده ماكنتش هاشوف خالد.

قاطعها خالد: بس يا حبيبتي ده مايمنعش إني أنا كمان بابقى قلقان عليكي زيهم بالظبط. بصراحة أنا متفق معاهم.

نهضت واقفة وقالت بتحفز: إيه ده بقى إنتوا كلكم هتتفقوا عليا بقى!

فضحكوا جميعًا حتى شدته من يده وأدخلته غرفتها: دي بقى يا سيدي أوضتي المتواضعة. اقعد بص عليها لحد ما أعمل لك قهوة وبعدين نقف في البلكونة نتكلم في موضوع مهم.

لم يتفوّه بكلمة، ابتسم ونظر لها فقط بنظرة تنم عن حبٍ دفين يتزايد بداخله كل ثانية، ذهبت لتحضر القهوة، وظل يطوف بعينيه كل أرجاء غرفتها، وأخذ يقلب في عشرات الكتب والمجلدات عن الإعلام والصحافة. والحائط المعلق عليه عدة صور لها في الجريدة، ومع زملائها، رفع وسادتها ليشم رائحتها المعلقة عليها إلى أن عادت زينة بالقهوة:

ـ حبيبي يلا نقعد في البلكونة. وهما في طريقهما للشرفة دعا والداها لهما أن يهدئ الله سرهما ويتمم لهما على خير.

بمجرد أن دخل الشرفة وضعت الصينية على السور وأغلقت الباب عليهما، أجلسته على الكرسي وجلست على مقربة منه قائلة بصوتٍ منخفض:

ـ عرفت لك مين اللي خطفك، وضربك، ورسم صليب على إيدك. وحاول يقتلك. جيبت لك الدليل القاطع لكل ده.

جحظت عيناه وتحولتا للون أحمر قانٍ وهو يسألها بغلٍ وانتقام: مين؟

أخرجت موبايلها من جيبها وأخذت تعبث به وهي تقول له: مش قلت لك إمبارح إني بارتب لحاجة؟ فيه صحفي زميلي أخوه شغال في شركة المحمول اللي خط غادة منه. وبقاله يومين بيراقب مكالماتها. خد اسمع المكالمة القاتلة. المكالمة دي كانت وقت ما كنا مع بعض إمبارح في مول العرب.

ـ أيوه يا غادة. خالد جنبك؟
ـ لأ يا أمجد غار في داهية من الصبح. خير؟
ـ إيه اللي بيحصل لنا ده؟ هنفضل لحد إمتى هنشوف بعض بالقطارة؟!
ـ مش عارفة يا أمجد. نعمل إيه طيب؟ عندك حل؟
ـ بافكر نخطفه تاني. بس المرة دي نتأكد بنفسنا إن السر الإلهي طلع. مش هنعتمد على شوية عيال.
ـ مممممممم وبعدين؟
ـ ولا قبلين. ننفذ إحنا بإيدينا. نسممه نضربه بالنار نشنقه المهم نتخلص من أمه.
ـ ماشي بس نستنى شوية. لازم نرتب الموضوع ونفكر مليون مرة قبل ما نعمل أي حاجة. وبالمناسبة الواد بتاع الوشم بيتصل بيا كتير. بيكلمني على فلوس تانية. شوفه عاوز إيه بروح أمه وخليه يحل عن دماغي.
ـ آه ماهو كلمني أنا كمان. عاوز يقابلني وأنا كل مرة باتحجج بإني مش فاضي. هابقى أفوت عليه في أي وقت أديله قرشين. المهم دلوقت أنا هافكر في كذا خطة وهابقى أقول لك استقريت على إيه.
ـ ماشي. وأنا يومين كده هافضى ونتقابل. كل حاجة فيك وحشتني. مش قادرة أنسى لما بنكون مع بعض في البانيو و...
ـ طب بس بقى عشان أنا كده هاتعب أكتر، تؤ، باقول لك إيه ينفع نتقابل؟
ـ سيبني أظبط الدنيا ولما الوقت يكون مناسب هاقول لك. دلوقت إحنا مسحولين في موضوع مصطفى وموضوع داليا ده كمان اللي مش

عارفة هينتهي على إيه. باي دلوقت وهابقى أكلمك.

ـ باي.

بعد انتهاء المكالمة، شرد خالد في كل كلمة سمعها فيها، قُبِضَ وجهه حين صفرت ريح الحقد والغل بداخل صدره، واستيقظت قوى الشرّ الراقدة في أعماقه، ودارت بداخله تروسها التي قد صدأت ولم تعد تعمل. بدا وجهه مشدودًا كوترٍ على وشك إطلاق سهم الانتقام، والنِيَّة في الثأر بدت مرسومةً على كل ملامحه، غلى الدم في عروقه حتى انتفضت في جبهته وساعِدِه حينما استجمع قبضته وهوى بها على ركبته، رمقت زينة زوايا عينيه فوجدت رغبة شديدة منه في الانتقام، ظلّت تتحدث إليه لكنه لم يكن يسمعها وكأنه أحيط بهالة من التفكير فيما سيفعل تجاه هذه المرأة التي كانت السبب في كل الذي عاناه ويعانيه وسيعانيه، تلك المرأة التي رمت به في الجحيم السعير.

أطرق رأسه وأدار دفة تفكيره مما حدث إلى ماذا سيحدث. ماذا سيفعل. أو كيف سيفعل. ومتى!

وضعت يدها على كتفه فانتزعته من تفكيره، وسألته بعينين شفوقين:

ـ خالد. مش حابّة أشوفك كده ماتخلينيش أندم إني سمَّعتك المكالمة دي.

نظر لها بعينين حمراوين ذرفتا دمعة واحدة لم تسقط، ظلّ شاخِصًا ببصره كأنه يقرأ صحيفة دون أن ينبس بكلمة. انحشرت كتلة من الهلع بحلقها فأردفت بأسى:

ـ اترددت كتير والله. وكان كل خوفي إني أشوف نظرة الانتقام دي في عينيك. كده باخاف منك.

أطرق وأشار بكفه أن تصمت، نهض واستأذنها لينصرف فأمسكت يده. أبعد يده عنها وأمسك رسغها وأحكم قبضته عليه حتى تألمت بصوتٍ منخفض. ظل ينظر لها دون أن يأبه لتألمها وكأنه شخص آخر غير الذي كانه منذ قليل. إلى أن تركها فجأة وهمَّ بالرحيل دون أن يرد على والديها اللذين صاحا في نفس الوقت: رايح فين يابني إنت لحقت تقعد؟

ركضت وراءه لتلحقه عند السلم، وقفت أمامه وشرعت ذراعيها بغنجٍ لتمنعه من المرور.

ـ أبوس إيدك يا خالد بلاش تخليني أشوفك في الحالة دي. يا ريتني ما كنت سمعتها لك.

ـ هاقتلها. أقسم بالله لاقتلها بنت الـ..

قاطعته: يا خالد اللي بتقوله ده جنان رسمي. ماينفعش تقتلها إنت اتجننت؟ طلقها وخلاص ومنها لربنا يوم القيامة.

لم يرد عليها. ظل واقفًا كتمثال. بوجهٍ يحمل غلا وثأرا وحقدا دفينا. أخذت تتحدث إليه دون أن ينظر لها، حاول المرور لكنها منعته. حضن وجهها بكفيه، قبَّل جبهتها ثم نحاها جانبًا برفق فلم تستطع مقاومته. حاولت إمساك يده لكنه التفت قائلا: ماتجيش ورايا يا زينة. سيبيني وأنا لما أهدا هاكلمك. اطلعي يلا لباباكي ومامتك.



في عيادة، أو بالأحرى شقة مُتآكِلة الحوائط، قالت سارة لداليا بعد

أن ارتدت مريلة زرقاء باهِتة، ونامت على سرير متهالك.

ـ بصي يا داليا. ركزي قوي في الكلام اللي هاقولهولك ده. وماتقاطعينيش (صمتت قليلا أمام نظرات داليا الشفوق ثم أكملت) الورقة دي فيها عنوان أهلي، لو ربنا ماكتبليش الخروج حية من الأوضة. (همَّت داليا لتتحدث، لكن سارة وضعت يدها على فمها لتسكتها ثم أكملت) أول ما أدخل الأوضة اتصلي بالرقم ده (أخذت هاتفها وسجّلت فيه الرقم وهي تبكي ثم أردفت.) ده رقم أهلي. قولي لهم مكاني، وعرفيهم كل حاجة وامشي وماتظهريش تاني. لو مُت. هابقى عند ربنا وهو يحاسبني بمعرفته. لو عشت هابقى مع أهلي وهما يحاسبوني بمعرفتهم. في كلتا الحالتين ضميري هيكون مرتاح، على الأقل. (انهارت في البكاء أكثر فانهارت داليا في البكاء هي الأخرى.) على الأقل يا داليا هارتاح من الهروب ده اللي أنا عايشة فيه بقالي فترة. أصعب حاجة في حياة البنت هي الهروب يا داليا.

قاطعتهم شادية:

ـ يلا يا جماعة مَاحَبَكْش الكلام دلوقت. اتفضلي يا حبيبتشي. الدكتورة مستنياكي تدخلي.

حضنتها داليا بقوة واضطرام، شعرت حينها بارتجافة جسدها والذعر الكامن فيه، بينما جذبتها شادية لتدخلها غرفة العمليات، جعلتها تمدّد جسدها على السرير. لتدثرها بملاءة زرقاء مهترئة بعد أن كَسَتْ رأسها ببونيه أزرق. شعرت سارة بالذعر، الذعر الذي جعلها تغلق عينيها مستسلمة لحقنة المخدر التي حُقِنَتْ بها، فشعرت بمفعوله يسري في جسدها رويدًا رويدًا. إلى أن أشرفت على أن تغيب عن الوعي،

فنظرت إلى السقف الذي بدأت صورته تتماهى أمام عينيها، فقالت بشفتين مُرتجفتين قبل أن تغيب بشكل كامل:

ـ سامحني يا رب. سامحيني يا ماما. سامحني يا بابا. أشهد أن لا إله إلا الله، وأن... محمد... رسـ...ـــو...

وغابت.



بعدما غادر منزل زينة، ذهب واجِمًا إلى المستشفى ليتابع حالة ابنه، فأخبروه الأطباء أنه ما زال في غرفة العناية المركزة وأبقوه تحت الملاحظة طوال اليوم، يجرون له تحاليل كثيرة، وأكدوا أنهم يبذلون كل ما في وسعهم كي يعود لهم من جديد قريبًا جدًا. طلب منهم رؤيته فرفضوا أن يدخل له لكنه يستطيع أن يراه مثل أمس من خلال الزجاج المطل على غرفة العناية المركزة. شعر بالألم يعتصره اعتصارا وهو يرى فلذة كبده مسجى جسده هكذا، وتخترق يده وجسده الأنابيب التي تضخ المحاليل بجسده الذي أصبح واهنًا مُمتقعًا. ظل ينظر له بينما أخذت ذاكرته تعرض عليه مشاهد موازية، مشاهد قد رآها في أحلامه ليلة أمس والليالي التي سبقتها. بكى في أعماقه كما لم يبكِ من قبل، وهو ينظر لابنه، ولحائط ذكرياته التي تُبنى أمامه من جديد وكل مشهد يتذكره ليس إلا قالبا يضاف لكل القوالب التي تستكمل بناء هذا الجدار المسمّى بالذاكرة. غادر المستشفى وعقله يكاد ينفجر من التفكير في كل ما يدور حوله، وكل ما حدث، وما سيحدث.

اتجه بعدها مباشرةً إلى ٤٣ شارع محيي الدين أبو العز، معرض الشيف

لخدمات الفنادق والمطاعم؛ المكان الذي ابتاع منه يومًا ما أغراضا للمطعم الذي عمل فيه يومين فقط. اشترى كيس «شفّاطات» مثل الذي يستخدمونها هناك، وباكيتات سكر عادي ودايت. ثم توجه بعدها إلى صيدلية اشترى منها بودرة سم فئران قوي المفعول وسريع النتيجة وذهب بعدها للمنزل. دخل غرفة النوم فوجد غادة جالسة تقلم أظافرها، نظر لها مبتسمًا فاندهشت لذلك! خرج من الغرفة ودلف إلى غرفة نوم ابنه ليخفي فيها ما اشتراه.



ـ أنا هامشي يا شادية. وإنتي كمان لّمي كل حاجة وامشي بعدي. واختفي اليومين الجايين دول لحد ما نشوف هنعمل إيه في المصيبة دي.

ـ طب واللي واقفين برا دول يا دكتورة هنعمل فيهم إيه؟ دول مُصرّين يدخلوا يشوفوا بنتهم.

ـ مش إنتي قلتي لهم إن العملية اتعملت وبقت بخير وهتفوق من البنج بعد شوية؟

ـ آه.

ـ طب اقفلي باب الأوضة اللي فيها البنت. اقفليها بالترباس. وأنا هاطلع لهم أتكلم معاهم وأهدّيهم. هاخرج بعدها. وإنتي تخرجي بعدي بدقيقة. واختفي شوية لحد ما نشوف هنعمل إيه في المصيبة دي.

بعدما دخلت سارة غرفة العمليات، فعلت داليا ما طلب منها بالضبط. اتصلت بوالديها وأخبرتهم عن مكان ابنتهما بالتفصيل، فحضرا على الفور بعد مرور نصف ساعة.

خرجت الطبيبة بعدما شغلتهم قليلا وطمأنتهم أنها بخير وستفيق من التخدير بعد قليل، وخرجت شادية بعدها، تاركين والديها بمفردهم في الشقة البائسة، يتذرعون شوقًا لإفاقة ابنتهم ورؤيتها مرة أخرى. مرَّ عشر دقائق ولاحظوا عدم وجود أي شخص غيرهم في الشقة، طرقوا جميع الأبواب قبل فتحها فلم يجدوا أحدا، حاولوا فتح الغرفة التي بها ابنتهم لكنها استعصت عليهم فدفعها والدها بكتفه ثلاث مرات متتالية ثم بقدمه بقوة فانكسر القفل، ودخلوا ليجدوا ابنتهم على السرير، حاولوا إفاقتها لكن دون جدوى، أمسكت والدتها يديها فوجدتها باردة وباقي جسدها أيضًا، والدم منثور تحت السرير، فعرفا أنهما فقدا ابنتهما، ولن يريا عينيها مفتوحتين مرة أخرى، ولن تطلب منهم مائة جنيه لتشتري كتابًا تريده، ولن تملأ البيت بفرحتها بانتهاء رواية أعجبتها، ولن يحتضناها، ولن تُقبّلهما، ولن يسمعا صوتها مرة أخرى.

شعر والدها بالدنيا تلف به فحاول الاستناد إلى «الكارافان» المجاور للسرير فمال به وسقط فسقط فوقه، أخذت والدتها تهزها من كتفيها علّها تعود للحياة ثانيةً! صرخت فهزَّت أرجاء الشقة فتجمع السكان ووقفوا عند باب الغرفة يشاهدون الموقف بأسى وحزن، من بينهم داليا، التي شاهدت الفتاة التي لم تعرفها منذ وقت كبير، لكنها أحبتها ودخلت قلبها، وشاركتها أكبر مِحنة مرَّت بها في حياتها. والآن ستواجهها وحدها. انصرفت تاركة جثمان سارة. الملتف حوله والداها وسكان العمارة الذين اتصلوا بالشرطة للتوّ.

ظلت تسير على غير هدى، إلى أن أخذتها قدماها لكورنيش النيل، وقفت مُولِّية وجهها له واستندت بيديها إلى السور، أخذت تبكي صديقتها

التي فارقتها وتركتها وحدها تواجه حمم عذاباتها، ورحلت إلى غير أوبة! تمنَّت في قرارة نفسها أن تفارق هي الأخرى هذه الدنيا، فليس لها فيها ما يستحق العيش من أجله، دار حوار مُحتدم بين نفسها، ونفسها.

تُرى. أين سارة الآن؟ وماذا تفعل خلف هذا الخط الحائِل بينهما المسمَّى *بالموت*؟! هل استراحتْ أم أن هذه بداية جديدة لعذاب جديد؟ هل سيصفح عنها الله تعويضًا عمّا لاقته في الفترة الأخيرة؟ لأنَّه قال في كتابه بإحدى آياته (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ). أم سيعاقبها لأنه قال في الآية التي تليها (وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ). وستُلقى في (الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّار). هل سيأخذ الله في اعتباره أنها فعلت ما فعلت بسبب حُبّها لهيثم وتصديقها لما وعدها به مكتفيًا بما لاقته في الدنيا من عذاب ويغفر لها في يوم الوقفة الكُبرى؟ أم سيزيدها على عذاب الدنيا عذابًا آخر فوق عذابها في هذا اليوم؟ ماذا عن القبر الذاهبة إليه وستستقر فيه بعد ساعات؟ هل ستحاسب بداخله ويضيق عليها أم سيكتفي الله بمحاسبته لها فقط؟ هل سيحاسبها ملكان في قبرِها قبل أن يحاسبها الله؟ وإذا كانت الإجابة نعم. فلماذا إذن سيحاسبها الله مرة أخرى؟ هل الله (غفور رحيم) أم (منتقمٌ جبار).

نفضت رأسها وانتزعت نفسها مما تفكر فيه واستغفرت حينما اتصل بها هيثم فأجابت بعد أن تنحنحت وزفرت شهيقًا كان مكتومًا بصدرها كي لا يظهر صوتها أنها كانت تبكي: أيوه يا هيثم.

ـ أنا. أنا كنت باتصل بيكي عشان أفكرك ماتنسيش ميعادنا بكرة. مفهوم؟

ـ مفهوم يا هيثم. الساعة ٩ الصبح بالظبط هاكون عندك.

ـ وماتنسيش. التلات تلاف جنيه. قصدي الست تلاف.

ـ حاضر. باي.

نظرت إلى السماء فوجدتها بلا شمس، يبدو أنها استحت من رحيل سارة فرحلت معها (قالت في قرارة نفسها). أغلقت الهاتف واستقلت سيارة أجرة لتعود إلى البيت الذي خرجت منه صباح اليوم مع سارة، وستعود إليه الآن، بدونها.



بعدما أخفى خالد الأشياء التي اشتراها في غرفة ابنه، لاحظ عدم وجود داليا بغرفتها، فاتصل بها ليطمئن عليها فأخبرته أنها عائدة الآن من منزل سارة بعد أن أعادتها إلى أهلها، وستكون في المنزل في غضون ربع ساعة.

دلف بعدها إلى غرفة النوم، تناول الدواء قبل أن يمدد جسده على السرير بجوار غادة التي وضعت المبرد بجوارها على الكومود، نظرت له نظرة خالية من أي تعبير قبل أن تنام على جنبها الأيمن مولية ظهرها له. أخذ ينظر لجسدها المثير ويتأمله ببطء من رأسها حتى أخمص قدميها. مشى بأطراف أصابعه على ظهرها الشمعيّ فاجتاحتها قشعريرة سرت بداخلها فأثارت دواخلها، واندهشت مما فعله، فمنذ عودته لم يلمسها هكذا قط، ولا قبل الحادثة.

على الرغم من ذلك لم يصدر منها أي رد فعل ظاهر له، ظلّت كما هي مولية ظهرها له ترقبًا لما سيفعله بعد ذلك. دنا منها أكثر؛ لثم رقبتها وتأرج شذا شعرها الفائح فأطلق زفيرًا ينم عن ولهٍ وتوق، اقترب أكثر

ليلصق صدره بظهرها تمامًا، واضِعًا يده على بطنها ومررها على خصرها ففخذها الذي جذبه إليه ليلفّ ساقه عليها فأصبح جسداهما ملتصقين تمامًا، عدَّلت من وضعيتها فنامت على ظهرها وحانت منها التفاتة لعينيه فهالها ما رأته في زواياها من رغبة جعلتها تراه شخصًا آخر غيره، لم تمرّ ثوان إلا وهي تمسّد شعره بأناملها وجذبته من رقبته بقوة وقبّلته قبلة حارّة فتحت بها بوابة شبقها ليدلف إليها بسلام آمنين. أخذ يطأ حدائق جسدها ذهابًا وإيابًا، فإيابًا وذهابًا طوال الليل عدة مرات، لم يفصل بين المرة والأخرى سوى قُبلاتٍ تعلوها رائحة الرغبة، كسحابةٍ أمطرت في صحراء ما بينهم من إحجامٍ وفجوة، اشتياقًا فاشتهاءً فشهوة.

لا شيء أكثر جحيمًا من مضاجعةِ رجل ـ مُرغمًا ـ لامرأة لا يحبها، أو يرغب فيها ويشتهيها. ونفس الشيء بالنسبة للمرأة أيضًا.

فكيف الوضع إذا كان الاثنان هكذا؟!

مارس معها كل شيء يتمنى أن يمارسه مع زينة، في الوقت الذي تتأوه فيه تحته، مُغمِضة عينيها لترسم في ظلمة جفونها أمجد، كلٍ منهما كان يتحاشى فتح عينيه ولو لجزء من الثانية كي لا ينفصل عن الواقع الكائن!

إلى أن نهض خالد بعدما أفرغ كل ما اعتقله بداخله من شهوة، دلف إلى الحمام بينما نامت غادة على بطنها ضامة صدرها بذراعيها بعد أن غطت مؤخرتها بقميصها الشفاف. لم يمر ربع ساعة حتى عاد استلقى بجوارها من جديد وهمس في أذنيها:

ـ مش المفروض بقى ربنا يهدينا ونرجَّع المية تاني لمجاريها؟؟؟

اندهشت من طريقة كلامه وهمسه، استدارت له وجلست مستندة

إلى ظهر السرير قائلة: عاوز تقول لي إن كل كل اللي عملته من شوية ده، كان من قلبك؟!

ـ هو أنا لمستك من ساعة ما رجعت؟ بصيت لك بصة معناها إني عاوز منك كده؟

ـ لأ، بس اللي إنت عملته ده أول شيء يثبت لي إنك فعلا فاقد الذاكرة.

ـ بصي يا غادة. أنا مانكرش إني ماكنتش طايقك. وعارف إنك كنتي بنت ستين كلب، وأنا كمان كنت باضربك. بس وبعدين؟ لازم نصلّح اللي بيننا، كفاية أوي لحد كده، ولادنا بيضيعوا مننا، لازم نلحق بيتنا يا غادة.

زمّت شفتيها ولم تجد ما تقوله له فاكتفت بالصمت فأردف:

ـ أنا مش عاوزك تقولي حاجة يا حبيبتي. فكري في كلامي براحتك. وأنا متأكد إنه هيعجبك. اعملي حسابك بكرة نقضي اليوم كله مع بعض. (قبلها من جبينها وافتر من ثغره ابتسامة موظف خدمة عملاء قبل أن يستطرد). أنا هانام بقى يا حبيبة قلبي. تصبحي على خير.

ثم ضمّها إليه وظل يرمقها بطرف عينيه بتقزز ونظرات مليئة بالحقد والغل والكره، هي أيضًا كانت تنظر له نظرات لا تقل عنه كرها وحقدا وغلا.



لم تستطع النوم طوال الليل من كثرة الكوابيس التي كانت تعيث في مخيلتها، وفي كل مرة تستيقظ صارخة لتطمئن على سارة فتدرك أنها ليست بجوارها كما كانت ترى في أحلامها، نظرت أخيرًا إلى ساعة

هاتفها فوجدتها السادسة والنصف صباحًا. ارتدت ملابسها ومضت قاصدة أقرب ماكينة صراف آلي لتسحب منها المبلغ، ذهبت بعد ذلك إلى هيثم الذي استقبلها بجفاءٍ، وكان أول حرف يخرج من فيه: جيبتي الفلوس معاكي؟

نظرت له نظرة عتاب وقالت له وهي تعانقه: إنت إيه اللي غيّرك كده يا هيثم؟ هو إنت لو طلبت مني روحي تفتكر هاقول لك لأ؟ أنا حبيتك يا هيثم ومش هاقدر أعيش ثانية واحدة من غيرك.

ألقت بحقيبتها على السرير وارتمت في حضنه وضمّته إلى صدرها بقوة، وضع يده على خصرها، علّقت نظرها على السرير وقلبها يخفق بقوة حتى كاد ينفجر بداخلها، فتحت حقيبتها وأخرجت المبلغ وأعطتهم له قبل أن تخلع ملابسها وتلقيها على السرير، جلس يحصي المبلغ فجلست على فخذيه ويدها على كتفه. ظلت تُقَبّله حتى انتهى وألقى النقود على المنضدة أمامه، حملها ووضعها على الكرسي وأمسكها من كاحليها ليباعد بين قدميها، هربت منه في دلال ونامت على السرير، نظر لها بعينين جائعتين واعتلاها، أخذ يقبلها ويشد شعرها وينهل من جسدها بنهم فبدلت وضعيتها مع وضعيته فأصبحت فوقه. التقطت بيمينها قميصها الذي كانت ترتديه وألقته فوق وجهه، في نفس اللحظة التي دسَّت يدها الأخرى في حقيبتها المُلقاة جوارها فأخرجت عبوة تشبه زجاجة العطر بداخلها مادة حارقة للعين تستخدم للدفاع عن النفس، نزع القميص من على وجهه لتفاجئه برشّ المادة في عينيه مباشرة، فانتفض وظلَّ يتأوه ويسعل، حاول الوقوف على قدميه مبتعدًا عنها لكنه تعثّر في كرسي وسقط على الأرض، حاول فتح عينيه فلم يستطع. في نفس

الوقت أخرجت داليا من حقيبتها شفرة حلاقة كانت قد أحضرتها مُسبقًا. وقفت بجواره وركلت رأسه عدة مرات وهي تبصق في وجهه بهستيريا وتسبّه بألفاظٍ غير واضحة ثم تعود وتركل بطنه ورأسه من جديد حتى توقفت حركته، انحنت بجذعها عليه وأحدثت بترًا كبيرًا في عضوه وهي تبتسم رغم عينيها الغارقتين بالدموع، ابتسامة يشوبها غل وحقد دفين، وانتقام.

ألقت الشفرة قبل أن تنهض بسرعة وارتدت ملابسها، سحبت كرسيًا ووقفت عليه لتنتزع الكاميرا المثبتة في النجفة. مسحت الغرفة بعينيها فوجدت كاميرا أخرى مزروعة خلف أحد التابلوهات، انتزعتها هي الأخرى، أخذت المبلغ الذي أحضرته له وحاسوبه المحمول بحقيبته، وأخذت أيضًا أربعة آلاف جنيه كانوا في سرواله، ألقت إليه نظرة فانهارت أكثر في البكاء قبل أن تركل وجهه مرة أخرى، وترحل.



في الوقت نفسه.

استيقظ خالد وتسلَّل إلى غرفة ابنه بهدوء ومعه زجاجة مياه وأغلق على نفسه من الداخل، أخرج شفاطة وأولجها في الزجاجة ليسحب من خلالها قليلا من الماء ليبتل جدارها الداخلي، فتح كيس السُّم وسكب قليلا منه داخل الشفاطة فالتصق السم بجداره الداخلي. أخرج باكيت سكر عادي و«دايت»، فتح كلا منهما فتحة صغيرة تسمح بتزويدهما بقليلٍ من السم، لم يستغرق سوى أربع دقائق أخفى بعدها ما تبقى

من السم والسكر والشفاطات بين ثنايا ملابس ابنه، أما كيسا السكر والشفاطة وضعهم تحت الوسادة.

كل ما فعله كان من وحي إحدى القضايا التي قابلته من قبل، وقد تذكرها حينما أطلعه مؤمن عليها في غرفة أرشيف القسم. بعدما انتهى أمسك هاتفه ليتصل بزينة قائلا لها بصوتٍ رخيمٍ هادئ:

ـ صباح الخير يا حبيبتي.

ـ كنت لسه هاتصل بيك. هاموت من القلق عليك من إمبارح.

ـ أنا كويس الحمد لله يا زينة. وراكي إيه النهارده؟

ـ أنا في الجرنال عندي اجتماع مع رئيسة تحرير القسم وهاخلص كمان ساعتين.

ـ خلاص هاعدي عليكي عشان نروح مشوار مهم ونتكلم شوية.

أغلق المكالمة ودلف إلى غرفة النوم ليجد غادة لا تزال نائمة، أيقظها بقبلة على رقبتها، خيَّرها ما بين أن يحضر لها الفطار أو يذهبا إلى أحد المطاعم، ففضَّلت الاختيار الأول. دلف إلى المطبخ وجهز كل شيء في غضون نصف ساعة، تناولا بعدها الفطور بينما ما زالت تحت تأثير الصدمة تجاه ما يفعله لها منذ ليلة أمس. قرأ ما تضمره في عقلها وتظنه في زوايا عينيها، فقبَّلها وطمأنها مؤكدًا لها أنه قد تغيَّر تمامًا وينتوي تصليح كل ما تم إفساده في الفترة الأخيرة. وطلب منها أن تذهب إلى المستشفى لتطمئن على ابنهما، بينما هو سيذهب لقضاء مشوار مهم ثم يتقابلان الساعة السادسة في منطقة المهندسين ليتناولا الغداء سويًا. أومأت رأسها بالإيجاب، نهض وارتدى ملابسه ثم مضى بعد أن طبع قبلة حانية على جبينها. دلف إلى غرفة ابنه ليضع الشفاطة وكيسي السكر في جيب بذلته من الداخل.

ظل طوال الطريق يفكر فيما رآه في أحلامه ليلة أمس والليالي التي تسبقها، قارنها بما حكاه له فاروق أبو جريشة، وربطه بما تذكره حينما مرَّ من باب زويلة مع شادية!

................الدهليز!

حينما اقترب من جريدة روزاليوسف اتصل بها فأخبرته أنها بمكتبها وستنزل بعد خمس دقائق، جلسا بعدها في أحد الكافيهات بالمنطقة. انسال الصمت بينهما لدقائق قبل أن يبتدر بالكلام:

ـ من يومين تلاتة كنت مع مؤمن حربي، وكلمني عن مأمورية قمت بيها في باب زويلة زمان. هو من غير ما يقصد خلاني أفتكر حاجات كتير حصلت في اليوم ده. أنا طبعًا عارف هو بيسأل ليه، عشان كده قلت له إني مش فاكر. ولما قابلت فاروق أبو جريشة ساعدني إني أفتكر أكتر.

ـ مش فاهمة. باب زويلة إيه؟! وفاروق أبو جريشة مين؟؟!

ضغط بيديه على رأسه درءًا للصداع الذي كاد يخترق جمجمته ويهشمها قائلاً: الصداع هيفرتك دماغي، بصي يا زينة، الكلام ده ماقدرش أقوله لأي مخلوق في الدنيا غيرك.

ـ حبيبي طب استنى هاجيب لك قرص للصداع.

ـ لالالا ممنوع أخد أي حاجة من دي. المهم، أنا كل ساعة بتمرّ عليا بافتكر حاجات عملتها زمان، حاجات سودة، من ضمن الحاجات دي هو يوم باب زويلة، نقطة من النقط السودة في حياتي قبل الحادثة. بعد ما أحبطت الصفقة ووقعت العصابتين في بعض، أخدت نص كمية الهيروين ونص الفلوس، وقدمت الباقي حرز عشان أقفل بيهم القضية.

ـ وبعدين؟

ـ أنا تقريبًا افتكرت شيلتهم فين. كمان شوية هاتأكد. قالها وهو يضغط بيديه بقوة على جانبي رأسه والعرق بتصبب على جبينه، قالت له زينة بلهفة:

ـ يا حبيبي إنت كده بتضغط على أعصابك.

اقترب بوجهه منها هامسًا: غير موضوع باب زويلة فيه حاجة تانية عاوز أقول لك عليها. أنا هاقتل غادة النهارده.

قالها بتريث، مُبتسِمًا ابتسامة غريبة جعلت زينة تتجمد كالصنم لثوان قبل أن تتوسل إليه: أبوس إيدك أبوووس إيدك بلاش دم يا خالـــ...

قاطعها بوجهٍ مُتجهّم مستطردًا:

ـ أنا رتبت كل حاجة. مهما قلت لك يا زينة مش هاقدر أوصف لك النار اللي جوايا، والعذاب اللي شفته، واللي بسببه أنا لحد دلوقت مش قادر ألاقي نفسي ولا عارف حاجة! آه لو تعرفي حجم الغلّ اللي جوايا.

ـ مش بالدم يا خالد.

ـ مين قال لك إن فيه نقطة دم واحدة في الموضوع؟ ماتقلقيش كل حاجة مترتب لها.

ـ يا خالد أنا ما صدقت لقيت واحد أحبه بجد وقلبي يتفتح له. لو فقدتك أنا ممكن أموت فيها.

ـ وقت الكلام انتهى، أنا مش باستأذنك، أنا باقول لك قررت إيه. ممكن نقفل الموضوع ده بقى ويلا بينا؟

ـ على فين؟!



بعدما غادرت داليا منزل هيثم وتركته فاقدًا الوعي وينزف بشدة، استفاق بعد عشر دقائق وظل يصرخ بقوة إلى أن سمع صراخه أحد جيرانه الذي أطرق الباب فلم يجد من يستجيب له وما زال الصراخ يعلو ويعلو من الداخل، مما اضطره إلى كسر الباب ليجده مُلقى على ظهره واضعًا يده فوق عضوه والدم ما زال يثعب منه، حاول الاتصال بالإسعاف أكثر من مرة لكن بلا مجيب، فاضطر لحمله وأخذه بسيارته إلى مستشفى الشيخ زايد، استقبله أحد أطباء الطوارئ، والذي نقله سريعًا لقسم الجراحات وأجروا له عملية لكيٍّ مكان الجرح. في نفس الوقت الذي بلغت فيه إدارة المستشفى الشرطة لتجري التحقيق في الواقعة.



حين وصلا باب زويلة بدأ يرى من الخارج كل المشاهد كأنها حدثت للتو، بعدما تطابقت الصورة على الحقيقة مع ما رآه مؤخرًا في أحلامه وما حكاه أبو جريشة، أخذ ينظر ويمسح المكان بعينيه جيدًا من الخارج قبل أن يلكز زينة ليدخلا عبر الباب الضيق والذي يفضي إلى الداخل عن طريق سلم خشبي عبارة عن سبع درجات للأعلى. دفع ثمن تذكرتين ولم يأخذ باقي العشرين جنيهًا فابتلع الرجل كلمة «قدامكوا نص ساعة وتخرجوا».

بمجرد أن دخلا وانتحيا يسارًا حيث السلم المؤدي إلى أعلى، حاولت زينة التحدث لكنه أشار لها بيده مغمضًا عينيه ففهمت وآثرت الصمت. وقف بجوار السلم فوجد فاترينة العرض التي تحتوي على شقافات فخار لأوانٍ وبقايا أكواب وفناجين بورسلين، بالإضافة إلى بضع شقفات ملقاة على الأرض؛ والتي ما زالت بلا مراقب!

أمام الفاترينة لمعت عيناه حينها نظر إلى الأرض ليجد الغطاء الخشبي الثقيل، تذكّر حينها كل شيء بوضوح أكثر، همَّ ليرفع الغطاء فتفاجأ بشابٍ وصديقته يهبطان من السلم ووقفا يشاهدان الشقافات ويلتقطان صورًا لها، انتظر خالد متأففًا أن ينتهيا مما يفعلانه حتى مرت عشر دقائق كأنها عشر سنين حتى انتهيا ورحلا. رفع بعدها الغطاء برفقٍ دون أن يصدرٌ أي صوت، همس لها أن تنزل بينما سيراقب الحارس ويطمئن أنه جالس لا يتحرك كأن على رأسه الطير، خافت في البداية وترددت لكنه أمرها أن تنزل الدهليز فنزلت! نزل وراءها قبل أن يغلق عليهما الغطاء الخشبي مرة أخرى. كان المكان مظلمًا تمامًا ومخيفًا جدًا على الأقل بالنسبة لزينة التي تصببت عرقًا لكنها بالكاد تحمَّلت بعد أن تخلصت من جزء من خوفها عن طريق الإمساك بتلابيب خالد الذي أخرج هاتفه واستخدم الضوء المنبعث من شاشته عندما أضاءها. توغّلا إلى أن وصلا إلى الحجر الذي وضعه أمام الكيس، فتحه فوجده كما هو يحتوي على النقود والهيروين، فالتمعت عيناه.

اطمأن عليه ووضعه مكانه مرة أخرى، ثم أعاد الحجر مكانه وتمّم عليه ثم عادا من نفس المكان قبل أن تغيب زينة عن الوعي من قلة الأكسجين بالأسفل، نظر خالد من خصاص الغطاء الخشبي فلم يجد أحدًا واقفًا بالقرب منه، أحدَّ سمعه فلم يسمع أيّ صوت أو حتى نأمة، رفع الغطاء بسرعة وخرج أولا ثم مدَّ يده لزينة فرفعها بسهولة ويسر قبل أن يعيد الغطاء إلى مكانه مرة أخرى. نظر حوله وفي السلم فاطمأن لعدم وجود أي شخص. نظر إلى زينة مبتسمًا مشيرًا لها أن يغادرا. لم تكد تبتعد عن باب زويلة بضعة أمتار حتى استندت إلى إحدى

السيارات لتتنفس الصُّعداء وتسأله بعدها:

ـ إيييييه ده؟؟! أنا حاسة إنك خطفتني لزمن تاني!

قال لها مبتسمًا: دي الفلوس اللي هنبدأ بيها حياتنا بعد ما أقتل غادة، ومصطفى يخف، وأحل مشكلة داليا. هناخد الأولاد ونسافر نبدأ حياة جديدة نضيفة. يلا نمشي دلوقت ونخفى من هنا. ونروح أي مكان نقعد فيه وهاحكي لك على حاجات كتير.

ظل يحكي لها عن كل ما تذكره، وما يحاول أن يتذكره أيضًا. بدا ـ من حركة يديه ـ انفعاله كلما حكى شيئًا جديدًا يَذْكُره عن أسرته وعلاقته بها، أو في عمله أو مع أسرته ولا سيّما والدته، دخل في حالة شبه تشنج كالمجنون حينما تحدث عنها فأوقفته ومسحت جبينه الذي كان يقطر عرقًا، ومسكت يديه كي توقف الرعشة التي انتابته، ثم قبلتها وهي تنظر له بعينيها اللتين أمدتاه بطمأنينة سرت في جسده وحلَّت محلّ الخوف الذي يعتريه جرّاء ما حدث.

... وما سيحدث بعد قليل.



بعد قليل.

بعدما انتهت غادة من زيارة مصطفى والاطمئنان عليه، اتصلت بخالد تسأله أين ستقابله بالتحديد فأخبرها أنه سينتظرها أمام مطعم سوليتير بالمهندسين بعد نصف ساعة. اتصلت بعدها بأمجد لتطلب منه ألا يتصل بها اليوم نهائيًا لأنها ستكون مع خالد.

أوقفت تاكسي لتذهب إلى المطعم، ساورها بعض الشكوك في نيته لكن شيئًا بداخلها أخبرها أنه ـ ربما ـ يكون قد انتوى بالفعل أن يتغير، سألت نفسها ماذا ستفعل تجاه هذا التغيير فلم تجد إجابة كافية وافية. فكرت بعد ذلك في أمجد، اللحظات الهنيئة الهانئة التي بينهم، فكرت في مرض ابنها، علاقتها بداليا، هل من الحكمة تركها هكذا دون أن تسأل عنها وتسألها عن آخر التطورات في مشكلتها الشائكة.

أسكتت الحوار الدائر بداخلها حين وصل التاكسي، فوجدت خالد ينتظرها. نظرت له مشدوهة من هيئته ومظهره الذي بدا متأنقًا ومهندمًا، سألته في دهشة: إيه الشياكة دي كلها؟ إنت مانزلتش الصبح بالبدلة دي.

ـ لقيت إنه ماينفعش أخرج مع مراتي حبيبتي ببدلة قديمة، فدخلت المحل ده واشتريت البدلة دي، وطلعت للحلاق اللي فوقيه ظبطت شعري.

ـ طب كنت تقول لي إنك هتبقى شيك قوي كده كنت عملت حسابي أنا كمان. كده هيقولوا إيه الرجل الأمور ده. إزاي متجوز المعفنة دي؟!

أمسك يدها وقبّلها مبتسمًا: إنتي بالنسبة لي أجمل ست في الدنيا. وأم ولادي. وحبيبتي.

قالها بنبرة هادئة مُتحَكِمًا في الأدرينالين الذي يجري في عروقه. مد يده لها فتأبطتها ودخلا المطعم.

بدا بهذه الهيئة مُختلفًا تمامًا عن التي كان عليها حين كان «جرجس». لدرجة أن مارك رحب به دون أن يشك لحظة أنه قد رآه من قبل. سأله أين يحب أن يجلسا فأشار خالد مبتسمًا إلى منضدة في الزاوية.

بعدما قدّم لهما النادل قائمة الطعام واختارا ما سيتناولانه، دار بينهما حديث رومانسي مُفعم بالحب حتى عاد النادل بالطعام، تناولاه وما زالا يتحدثان عن أبنائهما، بعد أن انتهيا سألها عما تريد أن تحتسيه، فطلبت عصير تفاح بالقرفة، وطلب لنفسه قهوة اسبريسو ميكاتو وقطعة «تشيز كيك». بعد أن جاء النادل بما طلباه، قطع قطعة من الكيك بالشوكة ومدَّ ذراعه نحوها، نظر لها مبتسمًا وهو يصدم قطعة الكيك ـ عمدًا ـ بشفتيها لتسقط على فستانها، نهضت مسرعة للحمّام لتنظف فستانها.

نظر حوله بطرف عينيه حتى جاءت اللحظة المناسبة التي أخرج فيها الشفاطة من جيب بذلته الداخلي ووضعها داخل الكوب في نفس اللحظة التي سحب فيها الشفاطة النظيفة وأخفض يديه ليطويها عدة مرات ويضعها في جيبه.

خرجت غادة من الحمام واعتذرت له في الوقت الذي بادرها فيه بالاعتذار، تبادلا الابتسام قبل أن تمسك الكأس لترشف منه العصير بواسطة الشفاطة المُسمّمة، في الوقت نفسه كان يتحدث إليها ليُلهيها عن إصدار أي رد فعل قد يستلزم إظهاره. لكنها شربت نصف الكأس بسلام.

أشار بعدها إلى النادل أن يحضر ماكينة «الفيزا»، ففعل، فأعطاه الفيزا ليسحب منها المبلغ المطلوب، ورحل مبتسمًا قرير العين.

يعلم جيدًا أن السم سيبدأ في العمل خلال نصف ساعة فاستوقف تاكسي ليعود إلى البيت فورًا، وفي الطريق تحدث معها عن داليا وكيفية التعامل مع مشكلتها في الفترة المقبلة، أخرج بعدها هاتفه ليتصل بها فأجابته بصوتٍ كسول: أيوه يا بابا.

ـ البسي عشان هنروح مشوار أنا وانتي يا حبيبتي. قدامك ربع ساعة آجي ألاقيكي لابسة. باي.

وصلا البيت فوجد داليا مرتدية ملابسها مثلما طلب منها، طبع قبلة حنون على جبينها وطلب من غادة أن تدخل لتستريح من مجهود اليوم وسيذهب مع داليا ليجلس معها في أحد الكافيهات وسيعود بعد ساعتين، فأومأت رأسها وقد بدأ السم يعتمل في معدتها في الوقت الذي يغلق فيه خالد الباب ويخرج مع ابنته، بمجرد أن نزلا الشارع تظاهر أنه نسي محفظته بالأعلى وطلب من داليا الانتظار ليحضرها.

دخل الشقة فوجد غادة تتثاءب وهي تجسّ بيدها على بطنها وبدا أنها تشعر ببعض الألم، التقط شاكوشا وقطعتي خشب وأربعة مسامير من المطبخ وهرع إلى غرفة النوم، سألته غادة عما في يده وماذا سيفعل فلم يجبها.

وضع القطعة الخشبية في المنتصف ودقَّ مسمارين عند طرفي الخشبة، والقطعة الأخرى ثبتها من أعلى.

أعادت عليه السؤال بتوجُّس وارتياب وهي تبتعد بظهرها تجاه باب الشقة، فأمسكها بقوة من ذراعها وسحبها لغرفة النوم بعد أن اطمأن أنها خالية من أي وسيلة اتصال، والمنفذ الوحيد «الشباك» قد أغلقه تمامًا. وهاتفها داخل حقيبة يدها في الصالة. حاولت التخلص من قبضته لكنها لم تستطع، أدخلها الغرفة وركلها في ظهرها فانكفأت بوجهها على الأرض قبل أن يغلق عليها باب الغرفة من الخارج قائلا:

مع السلامة يا بنت الكلب.

نزل بسرعة إلى ابنته واصطحبها إلى أحد الكافيهات القريبة من

المنزل، جلسا وظلا يتحدثان قرابة نصف ساعة تخللتها مكالمة لمدة عشر دقائق مع زينة التي اتصلت به فابتعد عن ابنته ليرد عليها ويخبرها أنه قد نفذ ما كان ينوي فعله مع غادة، وأنه يجلس الآن مع داليا ابنته في كافيه بالقرب من المنزل، وأن غادة الآن من المفترض أن تكون قد فارقت الحياة، صرخت زينة حينما سمعت منه هذا الكلام لكن نبرته وهو يتحدث إليها كانت هادئة بما يكفي ليبدو أنه ليس نادمًا على ما فعله:

ـ ممكن تهدي وتبطلي عياط عشان نعرف نتكلم؟ عياطك ده مش هيرجع اللي حصل. ولعلمك أنا كده كده كنت هاعرف، منك أو من غيرك، ولعلمك لو رجعت لقيتها لسه ماماتتش، هاموتها بإيدي تاني وتالت وعاشر بنت الـ...

ـ ربنا يستر يا خالد، ربنا يستر ويعدي الموضوع ده على خير.

ـ ماتقلقيش. كل حاجة مترتب لها يا زينة. ممكن تهدي بقى عشان ماتوترينيش؟

ـ طب وبعدين، ناوي تعمل إيه؟

ـ هاطلع كمان شوية. لو ماتت هابلغ عن الواقعة، والتشريح هيثبت إن السم كان من المطعم إياه. وأبقى ضربت عصفورين بحجر.

ـ يالهوي يا لهوي. ربنا يستر ويعديها على خير.

ـ ماتقلقيش قلت لك. ياريت تهدي بقى عشان ارتباكك ده ممكن فعلا بجد يودينا كلللللنا في ستين داهية! حاولي تفكري في شكل فستان الفرح اللي هتلبسيه في فرحنا. فكري في ولادنا هنسميهم إيه. فكري هتعرفي تتصاحبي على ولادي إزاي وتكسبيهم. إحنا بيننا وبين حلمنا خطوة يا زينة. خطوة.

ـ ربنا يكملها على خير يا حبيبي. حاضر حاهدا. وانت إوعدني تخلي بالك من نفسك.

أغلق خالد الهاتف وعاد ليجلس مع ابنته ويكمل حديثه معها، سألها عن هيثم فأخبرته أنها استطاعت أن تأخذ منه الفيديوهات التي سجلها لها، وتأكدت أنه لا يملك نسخة أخرى. فتنفّس الصُّعَداء لكنه سرعان ما سألها:

ـ طب وبالنسبة للي عمله فيكي؟ هيتصلح إزاي؟ أنا فكرت أحبس أمه لكن لقيت إنه مش حل. لازم يتجوزك ويطلقك بعدها.

قالت له بارتباك وهي تلف خصلة من شعرها خلف أذنها: آه آه ماهو أكيد هيعمل كده. بس كمان شوية بعد ما نتطمن على مصطفى أخويا.

ـ ماشي. يلا نروح علشان مانتأخرش على مامتك.

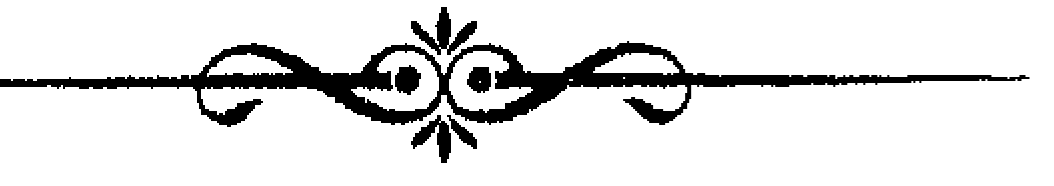
في الوقت نفسه.

كانت غادة في المنزل تتضرع ألمًا وبدأ السم يعتمل في جسدها ويمزق أمعاءها تمزيقًا. ظلَّت تطرق باب الغرفة بلا مُجيب، بحثت في كل الأرجاء عن أي هاتف أو وسيلة اتصال لكن حقيبتها كانت بالخارج، ولا يوجد منفذ سوى الشباك مُحكَم الغلق، حاولت ـ عبثًا ـ فتحه، غير أن الألم الذي أخذ يتغوَّل بداخلها حال دون ذلك، ارتمت على الأرض وبدأ العرق يتصبب على جبينها وكامل جسدها، إلى أن دخلت في حالة تشنُّج واستسلمت تمامًا، أزبد فمها خيطا رغويا أبيض اللون ممزوجا بدمها، خارت بعدها وخرجت روحها تدريجيًا من جسدها حتى فارقتها، وانطفأت كانطفاء شعلة متأججة تم غمرها في الماء.

وصل خالد مع ابنته تحت المنزل بعد عشر دقائق وطلب منها أن تذهب لتشتري له علبة دواء من الصيدلية الكائنة بناصية الشارع، فذهبت وصعد هو ليفتح الشقة، ثم الغرفة، ليجدها مسجاة على ظهرها جاحِظة العين، وضع أذنه على صدرها فاطمأن أنه لم تصله أيّ نداءات للقلب، أحضر الشاكوش لينزع القطعتين الخشبيتين وأخفاهما قبل أن يحملها ويضعها على السرير ويمسح الزبد السائل من فمها ويغلق عينيها. في نفس الوقت الذي دخلت فيه داليا فتظاهر بالانهيار لما رآه وصاح في وجهها: أمك مش عارف مالها، دخلت باصحيها لقيتها ميتة!

سقط من داليا كيس الدواء الذي كانت تحمله ووضعت يدها على فمها وظلت تصرخ بانهيار، كان ذلك حين أمسك الهاتف ليتصل بالإسعاف الذي وصل بعد ربع ساعة، غابت فيهما داليا عن الوعي وعادت مرة أخرى. كشف الإسعاف عليها ليؤكدوا ـ مبدئيًا ـ موتها مسمومة، فاتصلوا بالشرطة ليبلغوهم بالواقعة، فحضرت في غضون نصف ساعة مع حضور النيابة التي بدأت التحقيق. وتم بعدها نقل الجثة إلى المشرحة.

بات خالد هذه الليلة ما بين المشرحة والنيابة، بعد أن أرسل داليا إلى والده بالزمالك. والذي انهار هو الآخر حينما حكت له داليا ما تعلمه، فكان يتصل بخالد بين الحين والآخر ليطمئن عليه ويعلم ما آلت إليه الأمور.



في صباح اليوم التالي.

صدر أمر ضبط وإحضار للمدعوّة داليا خالد سليمان. بعدما أخذت النيابة أقوال هيثم وإبلاغهم في تحقيقها عن الواقعة أنها من فعلت به ذلك. ذهبت قوة من المباحث لعنوانها لكنهم لم يجدوها وعلموا من الجيران بواقعة تسمم والدتها. وبعد تحرياتٍ بسيطة رجحوا أن تكون عند جدها، فذهبوا إليه ليجدوها بالفعل وتم القبض عليها بهدوء دون أن أي مقاومة منها أو استنكار.

في الوقت نفسه.

ظهرت نتيجة المعمل الجنائي والمشرحة أن المدعوّة غادة ماتت مسمومة نتيجة لشرب عصير يحتوي على مادة سامّة قويّة المفعول، وأثبتت أقوال خالد والتحريات أن العصير كان من مطعم سوليتير، بعدما قدَّم خالد للنيابة إيصال الفيزا والذي يثبت الوقت المدون فيه أنه كان هناك قبلها تفارق الحياة بأربعين دقيقة تقريبًا. ذهبت قوة إلى المطعم وبعد تفتيشه وجدوا أن اللحوم المُستخدمة فاسدة ومنتهية الصلاحية، ليست اللحوم فقط بل وجدوا خضروات وفاكهة فاسدة وأن المطبخ مليء بالحشرات وغير صالح لصنع أطعمة آدمية. تم إغلاق المطعم وتشميعه بعد إلقاء القبض على مديره ملاك متياس، وكل العاملين بالمطعم، بما فيهم العاملين والطهاة، ورئيسهم.

تلقى خالد الجالس في النيابة مكالمة من والده الذي أخبره وهو منهار أن داليا تم إلقاء القبض عليها، وأنه الآن معها في قسم ٦ أكتوبر. أغلق المكالمة وهرع إليه ليجد في وجهه مؤمن حربي الذي سأله لائمًا

لماذا لم يخبره بالواقعة، فحدجه خالد بنظرةٍ صارمة ووجه كارهٍ كريهٍ مُكفهر. ونهره قائلا:

ـ مش وقت لوم خالص دلوقت دي مش حفلة طهور. ويا ريت تختفي من وشي الله يسترك! بنتي اتقبض عليها ماعرفش ليه!

دفعه خالد جانبًا بذراعه ليمرّ بجانبه فأمسك مؤمن بمرفقه قابضًا عليه بقوة ليستوقفه، فأصبح وجهاهما متقابلين تمامًا قبل أن يخبره مؤمن:

ـ بس أنا عارف اتقبض عليها ليه.

علّق خالد عينيه المُختلِجة على عيني مؤمن الشاخِصة ولم ينزلهما، ازدرد ريقًا عَلِقَ بحلقه وأبى أن يُزدرَد بسهولة. سأله والعرق يقطر على جبينه وقلبه يدقّ بقوة: عارف إيه؟

لم ينبس مؤمن ببنت شفة لثوانٍ ظل فيهما يسبر أغوار عينيه محاولاً قراءة ما يدور بعقله، نفس الشيء كان يفعله خالد، ساد الصمت بينهما وأخذت عيناهما تتحدثان بكلام كثيرٍ وأسئلة شتى دون أن يتفوها، إلى أن كسر مؤمن ذلك الصمت مُلقّيا عليه سؤالاً كالحجر:

ـ مين قتل غادة مراتك يا خالد؟

اضطرب جفنا خالد وأجابه مباشرة بسؤال: داليا مقبوض عليها ليه؟

ترك مؤمن ذراعه القابض عليها وقال له بصرامة وحسم:

ـ عاوز تعرف ليه؟ حاضر، تعالى معايا.

ركب معه سيارته، ظل مؤمن طوال الطريق صامتًا كجبل، الصمت الذي أرعب خالد وجعله يفكر في آلاف الاحتمالات، ماذا كان يعني سؤاله عمّن قتل غادة؟ هل اكتشف شيئًا؟ أعاد في مخيلته آلاف المرات ما فعله بالأمس، هل ترك دليلا ضده؟ هل النيابة اكتشفت شيئًا

لم يكن في حسبانه؟ كل قاتل يجب أن يترك ولو دليلا واحدًا. تُرى، ما هو الدليل الذي تركه وراءه؟!

انتبه من هيجان أفكاره حين رنَّ هاتف مؤمن وأجاب: أيوه يابني. عندك وربنا؟ يااااه زي ما توقعت والله. لالالالا زي ما إنت استمر لحد ما نشوف إيه الآخر. قول لي، البغل صاحي ولا محمود؟ طب ناديله على المرضة وماتخليش العسكري عينيه تغيب ثانية عن الأوضة. وبرضو من غير ما حد يحس إن أوضته عليها حراسة. وأنا في الطريق ليك أهو.

كان ذلك حينما أدرك خالد لوهلة أن هناك خطبًا ما. حاول أن يستنبط شيئًا من مكالمته لكن بلا جدوى، وكأن مؤمن قاصد ألا يفهم من كلامه أي شيء. أخذت الأسئلة تعيث في عقله فأرهقته، حتى وصلا أخيرًا مستشفى الشيخ زايد. وصعدا الدور الرابع حيث يرقد هيثم بدون عضوه الذي تم بتره. مغمض العينين واضعًا ساعده على جبينه، مُتألمًا من «الكانيولا» التي تثبتها الممرضة لتوصلها بعبوة محلول مُعلَّق بجواره. خرجت الممرضة فوجدت خالد، ومؤمن الذي سألها عن حالته فأخبرته أنها استقرت إلى حدٍ كبير.

رحلت الممرضة، فانفجر فضول خالد الذي سأل مؤمن: هو فيه إيه بالظبط؟ إيه اللي جابنا هنا؟ ومين ده اللي بتسأل عنه الممرضة؟ وإيه علاقته بموضوع بنتي؟ فيه إيه يا مؤمن؟!

أجابه بهدوء واضعًا يديه في جيبه: اللي جوا ده الواد اللي ضحك على بنتك. (أطرق رأسه لثوانٍ ثم سأله) إنت تعرف الواد ده أو شفته قبل كده؟

ـ لأ ماشوف...

قاطعه بصوت أعلى قليلا: آه آه مانا عارف إنك ماشوفتوش أكيد. خد صورة المحضر دي وتعالى ندخل. عشان تشوفه. (أخذ خالد منه صورة المحضر ولم ينزل عينيه من عليه فاستطرد مؤمن بصوتٍ رخيم مشيرًا بيديه نحو الغرفة). يلا!

ما زال هيثم بالداخل واضعًا ساعده على جبينه ويده الأخرى يضعها برفق على عضوه وهو يتألم في حسرة وينتحب بحرقة، حين سمع صوت مزلاج الباب صرخ بأعلى صوته وما زال ناظرًا للسقف:

ـ مش عاوز ممرضات تااااااني، ماحدش يحط لي محاليل تاااااني، سيبوني أموت يا ولاد الكلللللب مش عاوز أعيش.

رد عليه مؤمن بعد أن أغلق الباب: ومين قال لك إننا عاوزينك تعيش يا معـ..؟!

التفت هيثم له فتجمَّد الدم في عروقه، ليس لرؤية مؤمن، لكن لرؤية خالد. الذي وقع نظره على هيثم بعينين نصف مغمضتين. أحدَّ النظر أكثر وأكثر كأنه يقرأ دفترًا مكتوبًا فيه ماضيه بالكامل. نزل الصداع بسيفه المُسلَّط على رأسه فشجه لنصفين، شعر بالألم يجتاحه فجأة وكأن عشرة رجال ينهالون على رأسه بمطارق، أحدَّ النظر أكثر قبل أن ينظر إلى صورة المحضر.

«...هيثم مجدي طلحة. والشهير بهيثم ديكابريو ويعمل في مجال الإعلانات والتمثيل، وقد أدلى في أقواله أن..»

رفع خالد رأسه ناظرًا إلى أعلى وأغمض عينيه حينها التقط صورة لهيثم، احتفظ بها في جفونه ليطابق هذه الصورة بموقف قديم.



تعالى يا هيثم. تعااااااالى ياض متخافش. أنا استدعيتك هنا في مكتبي عشان تقول للكلب جوز اختك إنه قدامه يومين بالظبط. قول له كده وهو هيفهم. ماشي؟

ـ حاضر يا باشا. حا.. حاضر.. هاقول له حاضر.



قبل نصف ساعة. عند خزينة مستشفى الشيخ زايد

ـ لو سمحتوا عاوزة أحط ٥ آلاف جنيه مصاريف تحت الحساب للمريض اللي في الدور الرابع اللي اسمه هيثم طلحة. هيثم مجدي طلحة.

ـ حضرتك تقربي له؟

ـ آه، أنا أخته. د. زينة مجدي طلحة.

بعدما دفعت المبلغ صعدت إلى أخيها فوجدته شبه نائم، أيقظته فنظر لها بعينين كسولين ولم يستطع التحدث، قالت له بعصبية وانفعال:

ـ عارف يا هيثم إيه اللي وصلّك للي إنت فيه ده دلوقت؟

لم يستطع الرد عليها، أغمض عينيه وظل يئنّ بحرقة، اقتربت بوجهها منه مردفة حديثها بصوتٍ خافت:

ـ عارف ليه حصل لك كده؟ عشان إنت طماع وابن ستين كلب. قلت لك تفتحها وتنزل الفيديو على النت بس. افتحها ونزل الفيديو على النت. بس! ماتاخدش منها فلوس. ماتقابلهاش تاني. نبّهت على أمك مليون مرة. نام معاها. خد عذريتها. صورها فيديو ونزله. وأي فلوس (قبضت على شعره بقوة وأكملت بانفعال أكثر وهي تجزّ بشدة على أسنانها.) وأي فلوس عاوزها خدها مني أنا، مش هابخل عليك يا طماع يابن الطماعة.

أجابها وهو يتألم من قبضتها على شعره الذي كاد يقتلع في يدها.

ـ والله يا أختي ما كنت أقصد إن الأمور توصل لكده. بس وربنا ما هاسيبها. والله يا زينة ما...

قاطعته: هششششش اسكت.. اسكت خالص ماتتكلّمش. كان بيني وبين قتله هو كمان خطوة واحدة! بوّظت عليا باقي الخطة منك لله يا بعيد.

تركت شعره ونظرت لأعلى وضربت كفًا بكف قائلة:

ـ يا نهار أسود على دماغ أمك الغبية. ده أنا اتحايلت عليه إنه مايبلّغش عنك، واتصلت بيك يومها نبهتك تنزل الفيديو وتختفي، ماتطلبش منها فلوس ولا تشوف وشها تاني. يا طماع يابن الغبية.

نظرت إلى ساعتها ثم استطردت بارتباك: أنا.. أنـ.. أنا المفروض أختفي دلوقت. اسمع يله، أنا سديت الفلوس اللي عليك للخزنة وحطيت ٥ تلاف جنيه. بعد ما تخرج اختفي.

ـ حاضر، (بالكاد ازدرد ريقه وهو يقول لها خائفًا) حاضر يا أختي هاختفي.

ـ أختك؟؟! (قالتها متقززة) ربنا ياخدك يا هيثم. وياخدك ليه؟ ماتستعجلش. ممكن جدًا خالد يكون جاي دلوقت ومش بعيد يجيبك نصين. مش بعيد. سلام.

كان ذلك حينما علم بقدومها أمين شرطة يعمل مع المقدم مؤمن حربي، فاتصل به على الفور، فأخبره أن يتريَّث وألا يقبض عليها الآن.



بعدما غادرت المستشفى ذهبت إلى المنزل الكائن في ناصية شارع محيي الدين أبو العز. الدور الخامس. وقفت لدقيقتين مُطرِقة أمام باب الشقة، وبالكاد تلتقط أنفاسها التقاطًا. زمّت شفتيها، وحافظت على عينيها مفتوحتين كي تغالب سقوط دمعة. لكن خانتها وسالت سخينة على وجنتها حينما تذكرت. *اليوم الذي انتظراه طويلا.*

صعد «هشام سعد الدين» الصحفيّ بجريدة روزاليوسف مُرتديًا بذلة سوداء، مُشرِق الوجه، جذلاً، حامِلاً عروسه د. زينة مجدي طلحة؛ طبيبة الطوارئ بمستشفى الدمرداش، لم يكن مُصدّقًا ما يحدث ويعيشه الآن، وهي أيضًا لم تكن تصدق أن حبهما الذي استمر ستة أعوام، أخيرًا، كلّلوه بالزواج. وقف عند باب الشقة ولا يزال يحملها. قالت له بدلال وهي تحيط رقبته بذراعيها: نزلني بقى يا حبيبي عشان ماتتعبش.

ـ لا مش هانزلك. هافضل شايلك كده طول عمري. قالها مبتسمًا.

ـ ههههههه طب هتفتح باب الشقة إزاي؟

ـ حطي إيدك في جيب البدلة من جوا هتلاقي المفتاح. هاتيه.

دسّت يدها في جيبه فقبّلها، أبعدت وجهها عنه بغنج وهي تخرج المفتاح من جيبه، فطلب منها أن تفتح باب الشقة قبل أن يطبع قبلة أخرى على خدها الأسيل.

فتحت باب الشقة بعد أن طفرت دمعتان حارّتان من عينيها اللتين استحالتا للون الأحمر القاني، سقط بعدها سيل من الدموع، دموع لو نطقت سوف تشي بجبالٍ من الهم والغم والحزن حطت على كتفيها بما لا يطيق أي بشر احتماله، دموع لو تكلّمت لقالت عمّا عانته د. زينة وعاينته من أهوالٍ جسيمة، وعذابٍ عظيم.

دلفت إلى الشقة، أغلقت الباب. طافت بنظرها في كل أرجاء البيت المُحترِق مُعظمه. البيت الذي كان يومًا ما «مَنزِلاً». ربّه صحفيّ شاب، كل ما يرجوه في حياته أن يُسعِد زوجته الطبيبة التي وهبت له عمرها وكانت له ملكوته الذي طالما سعى للعيش فيه هانئًا. كان بالنسبة إليها كل شيء في حياتها، تعلَّمت على يديه الحب المُفعَم، والعِشق المُعَتَّق. تعلَّمت على يديه المبادئ، أغدق عليها من حنانه أضعاف ما يغدقه كل رجال العالم على نسائهم من حنانٍ وتحنان.

علَّقت عينيها الغارقة بالدموع على ستائر الصالة مُحترِقة الحواف. واقفة بملابسها الداخلية مُمسِكة بسلم واقفًا عليه هشام المُتَعِض من تعليقه الستائر: حرام عليكي يا نينو أقسم بالله. اغسلي ستايرك دي كل شهرين أو تلات شهور. مش لازم يعني كل شهر أعمل الموال الأسود ده.

ـ هههههه ماعلش يا حبيبي استحمل مراتك الرخمة، مش باحب أشوف فيهم ذرة تراب والله. وبعدين مين غير جوزي حبيبي هيعلقهم ليا؟

نزل بسرعة من السلم فتفاجأت وركضت ناحية المطبخ لكنه لحق بها قبل أن تدخله، أحاطها بذراعيه، قبّلها وهو يفك حمالة صدرها ويلقيها بعيدًا ليحملها فتبرز عضلات ذراعيه وظهره، فاستسلمت له وبادلته قبلة ساخنة وهي تحتضن رأسه بكفيها وتمسد شعره. سَرَت ثوان عليهما بهذا الوضع فهمست في أذنه بدلال: هشام. أقول لك على سر وأحلف ماتقولوش لحد.

قال لها وهو يطبع قبلة على رقبتها: قولي طبعًا يا نور عيني.

ـ إنت لسه ماكمّلتش تركيب الستارة.

أنزلها على الأرض مُنفعِلا، ونظر إلى الستارة فأردفت بحذر: آخر أربع حلقات نسيت تركبهم يا حبيبي.

أطرق رأسه مُمتعضًا قبل أن يهم بالصعود على السلم مرة أخرى فشدّته وتعلقت به لتقبله قبلة ساخنة، صعد بعدها السلم ليكمل تركيب الستارة. المُحترِقة حوافها الآن. مدَّت يدها المُرتعِشة وهي تئن في صمت لتمسك ما لم يحترق من الستارة. نظرت بعدها إلى السلم المتفحم الملقى على الأرض. بجوار الثلاجة.

نفس المكان الذي تعثرت فيه يومًا ما وصرخت بأعلى صوتها فهرع إليها زوجها مُتلهفًا وشهق حينما رأى الدماء تسيل في شُعبِ بين قدميها، رفعها من تحت إبطيها وأجلسها على أقرب كرسيّ وهو يلتقط هاتفه ليتصل بالإسعاف التي نقلتها إلى أقرب مستشفى لتنجب له (سما). والتي كانت قدم الخير عليهما، زاد مرتبه ومرتبها أيضًا، استطاعا أن يشتريا سيارة صغيرة بالتقسيط من فائض مرتبهما معًا. وفتحا الغرفة المغلقة في منزلهما وجعلوها غرفة أطفال لابنتهم.

ـ زينة إيه رأيك، نحط السرير ده هنا، ولا هنا؟

ـ مممممم تفتكر إيه أفضل يا أجمل زوج في الدنيا؟

ـ تحت الشباك أفضل. ونلزق صور باربي في الحيطة اللي قدام السرير.

ـ تمام. فعلا ده أنسب مكان للسرير.

قالتها مبتسمة وهي تنظر له بعينين مليئتين بولهٍ يتزايد يومًا بعد يوم. اقترب منها وأحاطها بذراعيه ليقبلّها وهو يعطيها الملصقات:

ـ خدي الزقي الحاجات دي على الحيطة وأنا هانقل السرير.

وضعت الملصقات جانبًا وحملت معه السرير رغبةً في مشاركته كل شيء يفعله في منزلهما الصغير. مهما بدا سهلاً.

انحنت لتلمس السرير المُتفحِّم معظم أجزائه، جثت على ركبتيها، لثمته وهي تشم رائحة ابنتها التي نامت عليه يومًا ما. ازداد نحيبها وسال مخاط من فمها وأنفها وهي تلثم قائم السرير المحترق المُلقى على الأرض. نفس المكان الذي طالما سهرت فيه *الليل بجوار ابنتها تحكي لها قصصًا لتُخلَّد بعدها إلى النوم، فتسمع صوتًا خافتًا «باحبك». فتلتفت لتجد هشام مستندًا إلى باب الغرفة ويردف «كنت عاوزك في موضوع يا دكتورة». فتصلب سبابتها بحدة على فمها لتشير له أن يصمت، وتلوح بيدها أن ينتظرها في غرفة النوم. فيهمس لها «بسرعة. قدامك تسع ثواني». فتحاول كتم ابتسامتها متظاهرة بالضيق من صوته الذي ربما يزعج صغيرتهما. فيسير على أطراف قدميه فتنهض بهدوء، فتلحق به بعد ثوانٍ إلى غرفة النوم.*

عند باب غرفة النوم ارتفع نحيبها أكثر وأكثر وبالكاد تأخذ أنفاسها، شهيق يدخل صدرها رافضًا الخروج، وزفير تخرج معه روحها تاركة بداخلها عبق حضن زوجها، وذكرياتهما التي تسكنها لم تغادرها لحظة. وقفت وهي تنظر إلى جدران الغرفة المكسوّة باللون الأسود والسقف أيضًا. وبقايا السرير الذي قضيا عليه أسعد لحظات حياتهما، وعليه *ظلا يتناقشان كيف سيسددان قسط السيارة. ويبحثان عن اسم لابنتهما القادمة:*

ـ الأهم من موضوع الاسم يا حبيبي لازم نبيع العربية. أنا هاولد بعد شهر ومافيش فلوس للعملية.

ـ ماتقلقيش يا زينة. إن شاء الله ربنا هيعدلها. هاحاول آخد سلفة من الجرنال.

ـ وأنا هاخد سلفة من المستشفى برضو.

اصطكت أسنانها، ارتجف جسدها وانتحبت أكثر حينما انحنت لتلتقط بروازًا محترقًا كان معلقًا يومًا ما على الجدار المواجه للسرير وبداخله صورة زفافهما، قبل أن تقف على أطلالِ سريرهما وتنحني لتلتقط قطعة خشب مُتفحِّمة، كانت حلية لظهر السرير يومًا ما، أحكمت عليها قبضة يدها بعنف وهي تبكي ويهتز بدنها بقوة، وقد اكتسى وجهها باحتقانٍ وانتقام حتى انفرطت الحلية داخل قبضتها فنثرتها على الأرض. فانحنت مرة أُخرى وعلا نشيجها وهي تلتقط بقايا بشكير زوجها فتقبض كفيها عليه وتصرخ، فتنحني وتلتقط زجاجة عطره الساكن بين ثنايا جسدها دومًا.

ـ زيبيبينة. فين إزازة البرفيوم بتاعتي.

قالها وهو يرتدي ملابسه الداخلية أمام مرآة الدولاب فقالت له بدلال وهي جالسة مستندة على ظهر السرير.

ـ تعالى يا حبيبي الإزازة في إيدي أهي. هاحط لك أنا البرفيوم.

خطا نحوها وحضنها وهو يقبل رقبتها قبلة باردة لم تعتد عليها ولم ترق لها، حاولت الابتعاد بجسدها عنه برفق لترى ملامح وجهه وتسأله عمّا به فوجدته متيبسًا متصلبًا، ابتعدت بوجهها فلمحت حزنا دفينا يسكن وجهه. بدا شاردًا. سألته مشدوهة: هشام. حبيبي. هشاااام مالك؟

مدد جسده بجوارها وهو يسألها: سما ودنيا ناموا؟

ـ آه يا حبيبي ناموا من نص ساعة. مالك يا هشام. حاسك مش في المود.

شرد أكثر ولم يرد عليها، فانزعجت ولوحت بكفها أمام عينيه فانتبه لها:

ـ أيوه يا حبيبة قلبي بتقولي إيه؟

ـ لا !!!! ده إنت مش معايا نهائي. كنت باسألك مالك. إيه اللي شاغل بالك؟

أجابها بوجه شاحب متوجسٍ، وعينين زائغتين:

ـ أول إمبارح. أول إمبارح كنت باغطي أحداث شارع الشيخ ريحان. كنت واقف ورا عربية وصوّرت ظابط وهو بيضرب رصاص حي، فيديو، صوّرته فيديو وهو بيصيب واحد من المتظاهرين، لالالا مش واحد ده كان كذا حد. آه آه (ازدرد ريقه بصعوبة.) كان بيقتل قدامي وصورت كذا واحد وهو بيقع. (تصبّب فجأة العرق على كامل وجهه.) بص وراه لقاني باصوّر راح زعق بعلو حسه للعساكر إنهم يجيبوني. جريت، جريت يا زينة وماعرفوش يجيبوني.

ـ طب الحمد لله إنهم ماعرفوش يمسكوك. قالتها وهي تضمه إلى صدرها وتمسح بكفها العرق المتفصد على جبينه. فابتعد فجأة وارتجف بدنه وراح يتصبب عرقًا أكثر، قال لها وهو معلق نظره على غرفة أطفاله:

ـ بس عرف إني في روزاليوسف. عرف وإمبارح بعت لي واد من طرفه، واد بلطجي اسمه فاروق أبو جريشة. طلب مني كارت الميموري اللي فيه الفيديو. رفضت وطردته.

شعرتْ برهبة اجتاحتها وتقلُّصٍ في أحشائها، قاطعته بصوتٍ مرتعش:

ـ ليييييييه؟؟ ليه يا هشام كنت اديهوله وخلصنا.

التفت بوجهه لها كالمجنون وهمس بانفعال: ماينفعش. ماينفعش يا زينة. لازم أنشره وأفضحه. باقول لك كان بيقتل متظاهرين!

ـ طب اهدا، اهدا يا حبيبي. وبعدين طيب كان رد فعل فاروق ده إيه؟

ـ لما لقاني رافض. راح قال لي ماتلومش غير نفسك. وماتزعلش من اللي هيحصل لك. ومشي.

النهارده الصبح لقيت هيثم أخوكي جايلي وقال لي إن خالد الكحكي استدعاه في القسم وبعت معاه رسالة ليا. إني قدامي أربعة وعشرين ساعة وأديله الكاميرا بالفيديو. وإني لو نشرت الفيديو أو حد شافه هيكون آخر يوم في عمري. وهو بنفسه اللي هيتدخل.

ـ هو اسمه خالد؟

ـ آه. خالد. خالد سليمان الكحكي. قالها وهو يرتجف أكثر وشعر أنه غارق في عرقه حتى أذنيه.

ـ خلاص بكرة نبلغ عنه ونقول إنه هددك. وناخد عليه تعهد بعدم التعرض ليك. وأكيد...

قاطعها: نبلغ مين عن مين؟؟؟ أنا معايا فيديو يعلّقه في حبل المشنقة أو على الأقل يسجنه. تفتكري حد هينصفني؟

ـ طب وبعدين؟

ـ مش عارف. مش عارف.

قالها قبل أن يدفن رأسه تحت الوسادة ونام. فنامت وراءه واحتضنته لتهدئ من روع جسده الساخن المرتعش.

نهضت فجأة وأخذت تصرخ بضحكاتٍ هيستيرية كالمجنونة صرخات ممزوجة ببكاءٍ مرير. علا انتحابها وراح جسدها يعلو ويهبط في نشيجٍ متواصل. «خدت حقك يا هشام يا حبيبي. خدت حقك.» وغادرت الشقة قاصدة باب زويلة.



لم يدرِ خالد بنفسه إلا وهو قابض بكلتا يديه على رقبة هيثم الذي نزع خرطوم المحلول من يديه، وحاول الهروب ناسيًا جرحه، لم يستطع التخلُّص من قبضة خالد القوية وهو يسبُّه بأقذع الألفاظ، بالكاد حاول مؤمن أن يُخلِّص هيثم من قبضة خالد، هرب ناحية الشباك محاولاً الانتحار لكن مؤمن التقطه ودفعه بقوة إلى السرير فارتطمت رأسه بالقائم وقد بدا على وجهه الذعر بعد أن هرب الدم من كامل جسده.

وقف خالد لهنيهة ولم يكد يحاول التقاط أنفاسه بصعوبة حتى حاول الهجوم على هيثم مرة أخرى لكن حال مؤمن دون ذلك. وشدَّه خارج الغرفة في الوقت الذي وصل فيه أمين الشرطة والعسكري. طلب منهم مؤمن التواجد مع هيثم بالداخل ومنعه من التحرُّك خوفًا من محاولته الانتحار أو إيذاء نفسه.

جلس خالد بأنفاسٍ لاهثة على أحد الكراسي بآخر الممر، أطرق رأسه وأخذ يفكر وهو يحكّ ذقنه بيده، واضعًا يده الأخرى على قدمه التي يهزها بانفعال. جلس مؤمن على الكرسيّ المقابل مقوسًا ظهره وعاقدًا يديه، أخذ يتفرس وجهه قليلاً قبل أن ينظر باحتداد يمينًا تجاه غرفة هيثم، ظل صامتًا لدقيقتين. منتظرًا أي كلمة يتفوه بها خالد فلم يفعل. بل أمسك بهاتفه ليجري اتصالا:

ـ طبعًا. طبعًا هالاقيه مغلق أمال هتكوني فاتحاه يا بنت الوسخة!

التفت مؤمن له قائلا في هدوء: بتتصل بزينة. مش كده؟

لم يجبه خالد. زمَّ شفتيه فشعر برجفة تسري في بدنه، وألم رهيب يجتاح رأسه، ضغط بسبابته وإبهامه على رأسه بقوة وأخذ يدلِّكه محُاوِلاً السيطرة على الألم، لكن بلا جدوى. كلما يفكر أكثر يُدرك كم كان دمية

تلعب بها زينة وتلهو. ظنَّ أنها الترياق الذي سيعالجه مما هو فيه، لكنها في الحقيقة كانت أشرَّ من حَيّةٍ تحمل له شَرّ السّوامّ، تلدغه فلا يكاد يبرأ لدغتها حتى تلدغه لدغات أخرى متتالية! لم يكن إلا جزءا من خطة رسمتها بدقة مخرج سينمائيّ مُتمَرّس ماهِر. وإتقان كاتب روائي مُحَنَّك حاذق، نسج حبكةً لا يشوبها ثغرة! استرجع في مُخيّلته كل كلمة دارت بينهما، كل مكالمة، سأل نفسه آلاف الأسئلة التي انتهت كلها بإجاباتٍ لم ترُق له! انتزعه مؤمن من جولان أفكاره حين سأله:

ـ ليه ماقلتليش إنك بتكلم زينة يا خالد؟

أجابه بذهنٍ مستغرقٍ في التفكير وعينين شاردتين:

ـ ماكنتش أعرف إنها مراته. ماشفتهاش قبل كده، أنا لما بعتّ لهشام تهديد، بعته مع أخو مراته، الكلب اللي جوا ده، لكن هيَّ ماشفتهاش قبل كده. وهي استغلت ده صح. (صمت قليلا وشرد ليستدعي مرة أخرى مواقف دارت بينهما ثم أردف بعد قليل بنبرة هادئة يكسوها ابتسامة ساخرة يشوبها الندم.) استغلت ده صح، استغلت.. ده.. صح!

نهض مؤمن ووضع يديه في جيبه، قائلا له بنبرة أهدأ:

ـ إنت ماشفتهاش، لكن هي شافتك، ودرستك، وذاكرت حياتك، تفتكر كل ده ليه؟ تفصَّد جبين خالد عرقًا، وأخذ جسده يرتجف، هزَّ رأسه واجمًا وهو يجيبه دون تفكير.

ـ عشان تنتقم، عشان تنتقم من اللي أنا عملته في جوزها.



جلس في مكتبه بقسم الشرطة ترقبًا لوصول فاروق أبو جريشة، وعلى يقين تام أنه سيستطيع إرهاب هشام سعد الدين وسيعود بكارت الذاكرة الذي يحتوي على الفيديو الذي صوره له في شارع الشيخ ريحان. لكن أبو جريشة عاد بخفيّ حنين. سأله خالد بانفعال حينما وجده منكسًا رأسه:

ـ اوعى تقول لي إنك ماجبتش كارت الميموري.

ـ بالظبط كده يا خالد بيه. عاند معايا ورفض يديهوني.

ـ حلو قوي. هو اللي جابه لنفسه.

بعد ثلاثة أيام. عند مقهى بشارع المعز، جلس ينتظر أبو جريشة حتى تى:

ـ هاااااا عملت إيه؟

أعطاه ورقة قائلا له بأنفاس متسارعة:

ـ اتفضل يا خالد بيه. الورقة دي فيها العنوان بالظبط. هو دخل شقته من نص ساعة، ومراته النهارده عندها نوباتشية بالليل في المستشفى، والواد جودزيلا معسكر قدام العمارة عشان لو خرج من العمارة يعرّفني.

ـ تمام. قالها شاردًا وقد بدا على وجهه الاستعداد للانتقام. سأله أبو جريشة مستفسرًا:

ـ هو سعاتك ليه مش عاوزنا إحنا اللي ننفذ؟ أنا شايف إن جنابك ماتتعبش نفسك.

ـ جنابي لازم يطلع (...) أم جنابه، المهلة انتهت ولازم أعلّمه الأدب بنفسي. ولازم أتأكد بنفسي إن الفيديو مابقاش له وجود. ماينفعش آمن لحد غيري في الموضوع ده، مافيش مخلوق يعرف حجم خطر الفيديو ده عليا.

ـ طب اؤمرني يا باشا. تحب أعمل إيه تاني؟

ـ لا ماتعملش حاجة خلاص كده مهمتك خلصت يا جريشة. لا بس استنى. روح إنت اقف مكان جودزيلا راقب العمارة. ده واد جسمع الفاضي وغبي.

ـ حاضر يا خالد باشا. أنا هاروح أهو.

ـ أنا هانفّذ الساعة واحدة بعد نص الليل. (نظر في ساعته ثم أكمل) يعني بعد تلات ساعات ونص من دلوقت.

في تمام الواحدة بعد منتصف الليل. لم يتصل به أبو جريشة، دلالة على أن هشام ما زال في الشقة. ذهب خالد إلى العنوان المدوّن على الورقة، وجد أبو جريشة واقفًا تحت شجرة مشيرًا له بإبهامه أن كل شيء على ما يرام، وحارس العقار دخل منذ قليل في حجرته بجوار السلم.

صعد خالد الدور الخامس ورنّ الجرس، ما إن فتح هشام الباب حتى ركله خالد بقدمه في بطنه فطرحه أرضًا. دخل بهدوء وأغلق الباب من الداخل بيديه المغطاة بقفازين. انحنى ليلتقط هشام من الأرض مرة أخرى قائلا وهو ممسكًا بتلابيبه:

ـ الفيديو فين يابن المرة؟ الفيديو والكاميرا فيييين؟

لم يلق أي رد فعل من هشام الذي ينزف من أنفه، صفعه خالد على وجهه صفعة أردته أرضًا مرة أخرى بعد أن حاول أن يمسك بالستارة وهو يسقط، فسقطت على رأسه الستارة بالماسورة المعلقة بها فأحدثت صوتًا جعل ابنته سما تخرج من الغرفة فذعرت حينما رأت المشهد، صرخت، هرع إليها خالد ليمسكها ويكتم فمها، نهض هشام كالمجنون حينما رآه كاتمًا أنفاس ابنته، ملتقطًا ماسورة الستارة وأخذ

ينهال بها كالمجنون على ظهر خالد فألقى الطفلة متفاديًا ضربات هشام، أصابه في ضربتين فتفادى خالد الثالثة وأمسك بمعصم يده بيمينه، وشد الماسورة منه بيساره، وأخذ يهوي بها على رأسه حتى انكسرت الماسورة وسقط هشام على الأرض فشدَّ سلك الثلاجة ولفه بقبضته وشدها بقوة من الناحية المثبتة في الثلاجة لتنقطع، انحنى خالد ليلتقطه من الأرض فوجه هشام إلى وجهه طرف السلك العاري ليصعقه فأبعد خالد وجهه عنه بسرعة ليتفادى الكهرباء، قبض على السلك من الناحية المُغطَّاة في الوقت الذي ركله بقوة بقدمه فاصطدم هشام بالحائط وسقط على الأرض، كان ذلك حين تلامس طرفا السلك العاريان بعضهما ببعض فأحدث قفلة في دائرة الكهرباء وانقطعت عن الشقة وساد الظلام. تحسَّس خالد على الأرض حتى لامس جسد هشام المسجى، أمسك بتلابيبه سائلا: فين الكاميرا يابن الوسخة؟ فيييييييين الزفت.

- لم يلق من هشام الغائب عن الوعي أيّ رد فعل. دسَّ يده في جيبه وأخرج ولاعته ليشعلها كي يراه فتفاجأ بالبنت تبكي، هرع إليها وصفعها على وجهها بقوة فسقطت مغشيًا عليها في نفس الوقت الذي رأى فيه شمعة موضوعة على المنضدة، ورمق أيضًا باب الشقة. ساد الصمت لثوانٍ وقف فيها حائرًا ما بين هروبه أو البحث عن الكاميرا وكارت الذاكرة. فاختار الخيار الثاني. ذلك أن التراجع الآن سيضره أكثر مما يفيده. ولا يملك رفاهية اختياره.

دلف غرفة النوم بعد أن أشعل الشمعة و أمسكها بيمينه، وظل يبحث عن الكاميرا بيساره في الدولاب ودرج الكومود الأيمن والأيسر. التفت ناحية التسريحة ليفتح أدراجها فوجد الكاميرا موضوعة بأحد

الأدراج قبل أن يتفاجأ بوجود طفلة أخرى خلفه تصرخ بهستيريا! أمسك شعرها بقوة فتفاجأ بهشام ينبت من الظلام ويقبض بكلتا قبضتيه على رقبته بقوة فألقى الشمعة وتخلص من قبضة هشام الغارقة رأسه بالدماء. أحكم قبضه على رقبته ودفعه ناحية الدولاب، ظل قابضًا على رقبته حتى اختنق وسقط، ليتفاجأ بلهب الشمعة وقد التقطت أطراف الملاءة. هرب بسرعة بالكاميرا تاركًا نارًا نائرةً مُضرمة في غرفة النوم.



ـ ماكنتش أعرف إن النار هتمسك فيهم وتحرقهم، ماكنتش أعرف إنهم هيموتوا!

قالها وهو منكس رأسه، يرتعش بدنه وقطرات العرق تتساقط من أنفه وكامل وجهه. وقد دخل في نوبة تشنّج. خطا مؤمن نحوه واضعًا يده على رأسه لتهدئته قائلا بنبرة رخيمة:

ـ يوم ما زينة أدلت بأقوالها في التحقيق واتهمتك. إنت قلت في أقوالك بكل هدوء إن ده اتهام كيدي، وطبعًا ماكانش فيه أي دليل ضدك.

هزَّ خالد رأسه وأكمل كأنه يقرأ ما يقوله من جريدة: واتقفلت القضية ضد مجهول.

أشار مؤمن بإصبعيه السبابة والوسطى لأعلى: بس بالنسبة لي ماكانتش اتقفلت.

رفع خالد رأسه إلى أعلى لتتقاطر حبات العرق من ذقنه فتدخل

صدره متخللة شعر صدره الكث: ولا بالنسبة لزينة!

نهض واقفًا: أنا لازم أروح أدور عليها بنت الـ...

وضع مؤمن يده على كتفه فأجلسه على الكرسيّ مرة أخرى: تروح فين يا خالد؟! إنت مقبوض عليك.

نظر له بجفنٍ مرتعش قائلا بنبرةٍ تحمل بعضا من عتابٍ يائسٍ: هتبلغ عني يا مؤمن؟! أنا؟! (نهض وأردف منفعلاً بصوت خافت) بص لي كده، أنا خالد صاحبك، موضوع جوزها عدى عليه كتير. والقضية اتحفظت رسميًا.

ـ سيبك دلوقت من قضية جوز زينة رغم إنها ماتقفلتش زي ما قلت لك، إنت مقبوض عليك عشان حاجة تانية خالص يا خالد.

ـ إيه هيَّ؟

ـ إنت مُتَّهم بقتل مراتك. المباحث راجعت كاميرات المطعم وشافوك وانت بتبدل الشفَّاطات، غير إنهم وجدوا آثار مسامير على الشباك، وسيلة الهروب الوحيدة في غرفة نوم، غرفة نوم جواها واحدة بتتألم من تسمُّم حاد في معدتها، ووجدوا في أوضة ابنك شفاطات وأكياس سكر، وسم فيران. من نفس النوع اللي لقوه في معدتها بعد التشريح. (أطرق رأسه وهو يطلق ضحكة قصيرة ثم أردف) يابن الإيييييه. دماغ بنت حرام. نفس القضية اللي كنت ماسكها قبل كده. فاكرها؟ بس إنت طلعت أغبى من القاتل ساعتها. هو ساب دليل واحد وراه، إنت سيبت كذا دليل، الظاهر إن فقدان الذاكرة أثر عليك وعلى مستوى ذكاءك.

ـ فقدان الذاكرة! آآآآه فقدان الذاكرة، قلت لي بقى! طب ومين سبب فقدان الذاكرة ده يا مؤمن؟ غادة هي اللي عملت كل ده فِيًّا.

كان لازم أقتلها وأنتقم منها. هي اللي اتفقت مع عشيقها على قتلي. وكل اللي حصل لي ده كان لها يد فيه. أنا معايا دليل قوي على كلامي.

- إيه بقى الدليل القوي ده؟ ومين اللي مَدَّك بيه بقى إن شاء الله؟

شرد لثوانٍ قبل أن يجيبه بعينين مُتَّسِعَتين: زينة. (التفت له كالمجنون مُستَطْرِدًا.) زينة هي اللي سمَّعتني مكالمة. (شرد مرة أخرى واستغرق في التفكير لثوان قبل أن يضرب جبهته براحة يده بقوة قائلا) يا نهار أسووووووود. يعني إيه؟! مش فاهم! هيَّ ممكن تكون اشتغلتني في دي كمان؟!



حينما قرأت زينة خبر نجاته وعودته الذي نشرته وزارة الداخلية. أخذ الأدرينالين يضخ في عروقها، قالت في قرارة نفسها أن الله أعاده مرة أخرى ونجَّاه، كي يلقيه في طريقها فتتلقفه بكلتا يديها بعد أن تنسج له خطة مُحكَمَة، وتحيكها على مقاسه تمامًا. فتنتقم بها لما فعله بثالوثها. أسرتها، التي كانت بالنسبة لها المرادف الأقوى لكلمة حياة. لتنتقم منه لحياتها التي سلبها منها في طرفة عين. ودمَّرها تدميرًا.

لم تَنَمْ في هذه الليلة قط، وأخذت ترسم وترسم وتحيك كل الخطط، وكيلاني، أخو زوجها، يجلس على مقربةٍ منها، مُتعطشًا. مُنتظرًا أي شيء تطلبه منه كي يساعدها فيما تفكر فيه، وينتقم هو الآخر لأخيه.

وحينما طلبت منه المكالمة، لم يغب عنها أكثر من ثمان وأربعين ساعة، هاتفها بعدها ليخبرها أن لديه مفاجأة لها. كانت هذه المكالمة، مُفبركة

بمهارة شديدة، استخدم فيها نبرة صوت غادة، والتي حصل عليها عن طريق مكالمة أجراها معها على أنها خاطئة.

استخدم نبرتها في تركيبه على مكالمة مُعدَّة مُسبقًا، وبعد عشرات المحاولات استطاع أن ينتج صوتًا مطابقًا تمامًا لصوت غادة. ووضع في هذه المكالمة كل شيء يؤكد لخالد أن غادة هي من فعلت ذلك.

صاحت زينة بعدما سمعتها:

ـ يابن الإيه يا كيلاني، مهندس صوت محترف مش هاوي، إنت المفروض تفتح استديو مش تشتغل في موقع جريدة. فعلاً مفاجأة. أحلى مفاجأة في الدنيا. أنا متأكدة إن الكلب اللي اسمه خالد أول ما هيسمعها هيقوم زي المجنون عشان يروح يقتلها.

ـ حلو قوي يا زينة الله ينور عليكي.

ـ بس أنا هاعمل نفسي بامنعه واتحايل عليه مايعملش كده عشان مايشكش. وفي نفس الوقت أكرهه فيها. لحد ما أعرف إنه قتلها.

ـ وهتبلغي عنه بعد كده؟

ـ لالالا طبعًا. قدره هيروح له لحد عنده. بس بعد ما أخلي قلبه يتحسّر على ولاده. ماينفعش أحرمه من اللحظة دي يا كيلاني. الدوا اللي جيبته لابنه يوم ما كنت معاه. بَدِّلت حُقَن الحديد اللي طلبوها، فتحت العلبة وحطيت جواها نوع حقن تاني أنا عارفة تأثيره كويس. مادة تجيب له تشنُّج في خلال ٢٤ ساعة، وتوقف أعضاؤه تدريجيًا، ومالهاش علاج.

ـ طب فيه سؤال عندي ولا زلت مش لاقي له إجابة. مين أصلا اللي حاول يقتله ورسمله صليب على إيده؟ وعمل كده ليه؟!

ـ بص يا كيلاني. ده مش موضوعي ومش مشكلتي. هو ابن حرام واللي عاوزين ينتقموا منه كتير. مالناش دعوة مين. ويمكن فعلاً تكون مراته هي السبب. ماهو ربنا عادل وبيسلط أبدان على أبدان.

ـ ماشي يا حضرة هههه الصحفية، آه صحيح الواد اللي زوّر لِك كارنيه النقابة والجريدة والبطاقة، أنا اديتله ألف جنيه، كان عاوز ألفين ردحت له وقلت له هما ألف جنيه كفاية.

ـ جدع يا كيلاني، أنا والله ما استخدمتهم في حاجة غير يوم ما أخوه الأمور طلبهم مني. ده غير إني اديت ٥٠٠ جنيه للواد اللي فك سلك الفرامل من عربيته يومها. ماعرفش الناس بقت جشعة ليه كده!

ـ طب لو في مرة اتصل بيكي وقالك أنا جاي لك الجرنال، وانتي أساسًا مش شغالة فيه. هتعملي إيه؟

ـ كل اللي في الجرنال يعرفوني عن طريق هشام الله يرحمه. وبالفعل خدته معايا في مرة فوق، وقعدت أسلم على الناس قدامه واتعاملت كإني صحفية هناك بالفعل، عشان مايشكش في أي حاجة ولو للحظة. يومها تعمدت أنسى شنطتي في درج مكتب واحدة صاحبتي زميلة هشام الله يرحمه، وطلعت معاه خدت الشنطة من الدرج.

ـ عارفة يا زينة. أخويا الله يرحمه لما كان بيكلّمنا عنك. كان بيقول لنا إنك أذكى بنت عرفها في حياته. الله يرحمك يا هشام يا أخويا يا حبيبي.

شردت فيه بتفكيرها فانسكبت من عينيها دمعتان وهي تزمّ شفتيها، فحاول كيلاني أن يحيد عما يتحدث فيه.

ـ قولي لي. إيه أخبار هيثم أخوكي مع داليا بنته؟

مسحت دموعها بباطن كفها: لحد دلوقت تمام. خلاها تحبه وراحت

له الشقة. أنا عارفة إنه هيقدر يوقعها وكنت متأكدة من ده. البنت واقعة لوحدها أساسًا. فكرتني صحيح. لازم أتصل بيه عشان أأكد عليه مايطلبش منها فلوس. وينزل الفيديو بتاعها على النت بسرعة ويختفي. سلام دلوقت.

ـ مش هتاخدي الصور اللي قلتي لي أركب صورتك عليها وكتب الصحافة والإعلام بتاعة هشام الله يرحمه اللي طلبتيها؟

ـ آه صحيح. كنت هانساها. ادعي بابا وماما مايقعوش بالكلام قدام زفت الطين ده.

ـ مش هما عارفين إنه جاي النهارده عندكم؟ وأكدتي عليهم يقولوا إيه كذا مرة؟

ـ آه، ده أنا بقالي يومين باسمَّع لهم يقولوا إيه. ربنا يستر. سلام.



نهض خالد فجأة وأخذ يدور حائرًا حول نفسه وهو يردد كالمجنون: يعني إيه. مش فاهم! أمال المكالمة دي كانت إيه. دي غادة كانت بتتفق مع أمجد على كل حاجة.

هزَّ مؤمن رأسه وهو يبتسم ابتسامة ساخرة: مش مراتك هي اللي عملت فيك كده يا خالد. إحنا قبضنا على الجاني الحقيقي.

سقط على الكرسي قبل أن تتسع عيناه ذهولا وهو يسأله: مش مراتي؟ طب مين بقى الجاني ده؟!

كان ذلك حينما حضر ضابط مع أمين شرطة، أومأ لهم مؤمن

فأمسكوه من ذراعيه ليصطحبوه إلى قسم الشرطة، كان جالسًا على الكرسي كخرقة متهدلة، لم يستطع النهوض فرفعوه، فأدرك حينها أنه يقترب من النهاية، فاستسلم لها، ولهم.

...... استسلم تمامًا.



حينما وصل إلى القسم برفقة مؤمن والضابط الآخر وأمين الشرطة، دخل في هدوء وسار في الممر المؤدي إلى غرفة مؤمن حربي. وقعت عيناه على الغرفة التي كانت تحمل يومًا ما لافتة عليها اسمه. افترَّ من ثغره نصف ابتسامة منكسرة قبل أن يدلف ليجد شخصًا جالسًا القرفصاء على الأرض، تنور يداه بالأصفاد، التفت له فتلاقت عيناه بعينيّ خالد الذي ذُهِلَ حينما رآه فاتسعت عيناه.



نفس الطريقة التي دخل بها خالد وزينة باب زويلة والدهليز منذ يومين، دخلت بها زينة الآن وحدها بعدما خرجت من شقتها بشارع محيي الدين أبو العز. بالكاد لحقت آخر ميعاد لزيارة الأثر، اعترض الحارس في البداية فأخبرته أنها تريد التقاط عدة صور وأظهرت له كارنيه الصحافة وتحته ورقة بخمسين جنيها فأخذهما وطلب منها ألا تتأخر. فشكرته بحرارة قبل أن يجلس على مقعده وينام.

ما إن انتحت زينة يسارًا. نظرت حولها وتأكدت أن المناخ آمن، فتحت الغطاء ونزلت، أشعلت كشافًا كان معها مُسبقًا ودخلت إلى حيث يخبئ خالد الحقيبة. فأخذتها، عادت لترفع الغطاء فسمعت عامل النظافة ورجلا آخر يتحدثون بالأعلى، انتظرت قليلا حتى غادروا وخرجت في أمان. أعادت بعد ذلك الغطاء إلى مكانه مرة أخرى ورحلت باكية وهي تتذكر ما حدث لها في ليلة المُبتلى.

طوارئ مستشفى الدمرداش.

الساعة الثالثة والربع فجر إحدى الليالي الشتوية قارسة البرودة.

بالرغم من شعور زينة بالإرهاق في هذه الليلة الماطرة، بسبب كثرة الحالات التي تشخصها وتعالجها، والتردد عدة مرات بين الطوارئ ومباني المستشفى لمتابعة الحالات مع زملائها. لكنها كانت تواسي نفسها وتشجعها، ويشد من أزرها أنها ستعود بعد انتهاء نوبتها الليلية إلى حضن زوجها وطفلتيها. وبيتها الهادئ الدافئ، فتمدّد جسدها على سريرها وتكوِّر نفسها بداخل حضن هشام لتشعر بالأمان المُطلق. ما هي إلا أربع ساعات وستعود لهم. لكن القدر كان له رأي آخر. لم يُمْهِلها لانتظار أربع ساعات لتعود لهم، بل جاؤوا هم إليها!

ما إن وصلت سيارة الإسعاف إلى المستشفى لتخبر الاستقبال بوجود حالتين مُتفحّمتين؛ رجل وطفلة، والحالة الثالثة حريق من الدرجة الثالثة وعلى مشارف الموت. نادى أحد الأطباء على زينة لتستقبل الحالات.

في الوقت الذي انتهت فيه من تشخيص حالة، خرجت بعدها لسيارة الإسعاف وهم يخرجون الحالة التي تلفظ أنفاسها الأخيرة فوقعت عيناها عليها لتجدها ابنتها! وبجوارها الحالتان الأخريان متفحمتان.

هالتها الصدمة حينها وأحاطت بها فأصابتها بالذهول، تسمَّرت مكانها وهي تنظر للحشد المجتمع حولها بعينين مُتَّسِعَتين عن آخرهما،

وتشير لهم أن يبتعدوا عن أسرتها الذين جاؤوا ليطمئنوا عليها ويعودوا أدراجهم مرة أخرى!

ظلَّت مُتسمرة على باب سيارة الإسعاف، صرخت بعدها صرخة مدوية شقت جدران كل مباني المستشفى. أخذت تلثم قدم زوجها المتفحمة ويدي ابنتها وهي تبكي ومنهارة تمامًا أمام المسعف والسائق الذين أخذوا يبكون أيضًا. وأمام زملائها الأطباء وكامل فريق التمريض الذين خرجوا على صوت بكائها وهم ينقلون زوجها وابنتها إلى المشرحة. جثت على ركبتيها أمام طفلتها الأخرى التي ما زالت على قيد الحياة، أخذت تحرك يدها اليمنى وتمسد المتبقي من شعرها، لم تقل الطفلة إلا كلماتٍ مقتضبة. «مامـ.. ماما.. الرجل الوحِشْ الشرير أبو شنب.. أبو شنـ.. أبو شنب.. اسـ.. اسمـــ.. اسمه خالد.. ضرب بابا وضربني وكان عاوز الكاميرا.. ماماااااا.. مامـ..» لفظت بعدها أنفاسها الأخيرة. كان ذلك حينها رفعت رأسها إلى أعلى. فصرخت السماء وانتحبت مطرًا قبل أن تصرخ زينة صرخة غَطَّتْ على صوت الرعد الصادر من السماء، والبرق الذي تبعه هطول أمطار لم تكن بأي حال مطلقًا أكثر من الدموع التي ذرفتها الطبيبة في هذه الليلة، وكل الليالي التالية، فأضحت بعدها شاحبة مهمومة، متكوِّرة على نفسها، بعد أن حذفت كلمة الفرحة وكل مرادفاتها من حياتها، ليحلّ محلها الحزن الذي ألقى بردائه عليها، والحسرة واللوعة على عائلتها التي فقدتها في طرفة عين.

تم نشر الخبر في بعض الصحف في صباح اليوم التالي:

«استقبال طبيبة طوارئ لجثث زوجها وطفلتيها متفحمين»



ـ فاروق أبو جريشة؟!

صاح خالد منشدهًا حينما رآه مُقيّدًا وجالسًا القرفصاء على الأرض، ما إن رأى خالد أمامه حتى تقهقر للخلف وانكفأ على ظهره من شدة الخوف من رد فعله. التفت خالد لمؤمن غير قادر على الكلام، جلس مؤمن على مكتبه قائلا له بكلماتٍ واثقة وهو يشير إلى أبو جريشة:

ـ الفاعل الحقيقي. طبعًا تعرفه كويس.

لم ينبس خالد وظل معلقًا نظره على أبو جريشة. طلب مؤمن من فاروق أن يحكي كل ما فعلوه بالضبط. فتلعثم وغمغم ولم تخرج منه جملة مفيدة، فالتقط مؤمن زجاجة مياه بجواره وألقاها في وجهه قائلا:

ـ ما تنطق يا معـ.. يابن المرة. ولاااا تحب أدخلك الإنعاش؟

توسَّل إليه صارخًا: لاااااا، لا والنبي يا مؤمن بيه، هاقو... هاقول على كل حاجة ماهي كده كده خربانة.

أَحَدَّ خالد النظر حينما انساب الصمت لثوانٍ قبل أن يبدأ فاروق في الحكي:

ـ سعاتك يوم مأمورية باب زويلة. خالد بيه وَقَّع نبيل الجيَّار والمعلم جبريل في بعض وقبض عليهم. وكنت متفق معاه إني أنا ورجالتي ناخد منهم الأحراز اللي معاهم، أقسمها نصين، نص يعمل بيها القضية والنص التاني ياخده هوَّ، وخبيته في مكان هو الوحيد اللي يعرفه، ورجع له بعد كده وخدهم وخباهم ماعرفش فين. ده اللي خلاني أتجنن في مخي وأقابله من يومين، أستغل إن دماغه اتمسحت وأعرف منه أي حاجة عن مكانهم. ماكنتش أعرف إن سعادتك كنت بتراقبني.

صمت فاروق لثوانٍ وهو ينظر بعينين مرتعشتين لعينيَّ خالد المليئة بالتحفز، نهض مؤمن ووقف في مواجهة فاروق، ضم وجهه بكفيه

ليثبته، ثم انهال عليه تسع صفعات على خده الأيمن، ومثلهم على الأيسر، حتى صرخ فاروق وأردف:

ـ بعد ما تم القبض على الجيَّار وجبريل، اتحبسوا. لما المحامين بتوعهم شافوا المحاضر اكتشفوا سعاتك إن الأحراز ناقصة، مش هي نفس الكمية اللي كانت مع الجيَّار، ولا نفس المبلغ اللي كان مع جبريل. وبسبب علاقتي بصبيانهم عرفت إنهم مستعدين يدفعوا أي حاجة عشان ينتقموا من خالد بيه، وبالذات الجيار، عشان خالد باشا غدر بيه.

عملت لهم زيارة في السجن واتفقت معاهم إني هانفذ. مقابل ربع مليون جنيه. اتفقنا و الجيار رسم لي خطة.

ـ إيه هي الخطة دي؟

سأله خالد مُحدقًا فيه، مُحاوِلًا تذكر أي شيء. أي شيء حدث له في هذا اليوم البائس. فنظر له فاروق مُحاوِلًا ازدراد ريقه فلم يستطع، نهض خالد وهمَّ ليركله في جنبه لولا تدخل مؤمن الذي أجلسه بعد أن هدأ من روعه، ركز خالد سهام نظراته القاسية إلى فاروق الذي أكمل على الفور:

ـ عرفت يومها إن خالد بيه في الزمالك عند أهله. اتفقت مع رجالتي إننا نضربه على دماغه بشومة ونخطفه، وديناه مكان مهجور وكل يوم كنا بنتسلى عليه. الجيَّار طلب مني إني أقتله وأرميه في الصحرا. ولما سمع جوا السجن عن موضوع ماسبيرو بعت لي واحد من صبيانه عشان أعدّل الخطة وبعت لي مع رجالته رسالة إننا نرسم صليب على ايده عشان يبان إنه مسيحي واتقتل وسط المتظاهرين. قلت له ماهو إحنا ممكن نقتله وندفنه في أي مكان ولا من شاف ولا من دري. لكن ده كان طلبه، وكان مصمم عليه، وطلب إني أصوره بعدها عشان

يتأكد. فنفذت اللي قاله بالحرف. وعلى رأي المثل، اربط لا مؤاخذة الحمار مطرح ما صاحبه عايزه.

نهض خالد فجأة وصفعه على وجهه صفعة كادت أن تودي بعينه اليسرى، وانسفح على إثرها الدم من طرف حاجبه. كل حرف يخرج من حلق فاروق كان يتخيله، تذكر القليل منه، تذكَّره جيدًا، همَّ ليصفعه مرة أخرى لكن منعه مؤمن الذي جذبه وأجلسه على كرسيه مرة أخرى.

سأله خالد:

ـ كمل يابن الحرام. مين اللي رسم الوشم ده يله؟

ـ واد شغال في كنيسة في مسطرد بيدق صلبان ووشوم، طلبنا منه يخليه يبان إنه قديم، والواد فااااااجر عمل اللي كنا عاوزينه بالظبط. ويوم ماسبيرو حطيناك من غير مؤاخذة تحت رجلينا في العربية وافتكرنا إنك مُت. اتفاجئنا بعدها إنك فقت وضربت جودزيلا برجلك راح ضربك بمفتاح فرنساوي على دماغك وواحد تالت معانا شرحك بمطواة. وقفنا بالعربية عند موقف عبد المنعم رياض وشيلناك أنا وجودزيلا. كإننا متظاهرين شايلين زميلنا اللي دهسته مدرعة وبنجري بيه. وفي الزحمة رميناك عند عمارة دار المعارف بعد ما حطيت ودني عند قلبك وافتكرت إنك مُت!

شدّ الصداع وتر قوسه عن آخره، وأطلق سهام الألم في كامل جسده، فأصابه واجتاح كل خلية فيه، صداع كاد أن تنفلق على إثره جمجمته، ضغط بيديه على رأسه قبل أن تنعدم الرؤية أمام عينيه تدريجيًا ليسدل ستار الغياب، حتى غاب عن الوعي تمامًا، وسقط مكانه.

تمت؟؟؟!!

خاتمة

بعد القبض على زينة مجدي طلحة أثناء خروجها من باب زويلة مُتَلَبِّسة بالأحراز التي معها وبعد رقابة حثيثة طيلة يومين كاملين بأمر من مؤمن حربي، تمت إدانتها وحكمت المحكمة عليها ـ بعد اعترافها المُفَصَّل ـ بإحالة أوراقها إلى فضيلة المفتي وما زالت في انتظار النطق بالحكم.

تم نقل داليا خالد الكحكي إلى سجن النساء بالقناطر حيث حُكم عليها بالسجن لمدة عامين بسبب ما فعلته بهيثم، وستقرر اللجوء إلى الدعارة بعدما تقضي مدتها، وكان قرارها هذا بعد علمها بوفاة أخيها مصطفى وإعلان الأطباء عجزهم عن إنقاذه من مرضه.

بعد محاولتين فاشلتين لانتحار هيثم مجدي طلحة الشهير بـ«هيثم ديكابريو» تسببت آخرهما في تشويه معالم وجهه، تقرر نقله إلى مستشفى الأمراض النفسية تحت الحراسة المشددة، بعد أن أقرت اللجنة الطبية إصابته بالذهان الانتكاسي الحاد نتيجة لفقده قدرته الجنسية بشكل دائم.

على كرسيه، لفظ سليمان الكحكي أنفاسه الأخيرة بعدما فقد كل الأشخاص من حوله، وأمامه جريدة منشور بها خبر:

انتحار المقدم خالد الكحكي شنقًا في زنزانته الفردية، قبل أن ينفذ

فيه حكم الإعدام الذي صدر ضده. وتحت جثته جريدة قديمة منشور بها خبر:

«استقبال طبيبة طوارئ لجثث زوجها وطفلتيها متفحمين»



لا شيء مما سبق

تمت

إحدى البنايات المهجورة بمنطقة وادي النطرون

١٥ سبتمبر ٢٠١٥

٠٩:٤٩ م

امتناني العميق.

للكاتبة والصديقة الرائعة بسمة الخولي، التي لم تبخل عليّ قط، بمجهودٍ أو وقتٍ، لتساعدني في جمع كل المعلومات والكتب والمراجع عن أنواع المرض المذكور في الرواية وأعراضه وأسبابه وطرق علاجه.

والأديبين الرائعين اللذين تعلَّمت منهما ومن نصائحهما الكثير:

د. أيمن العتوم أ. أشرف العشماوي

كما أود أن أشكر كل الأصدقاء الذين صنعوا بوجودهم في حياتي الأدبية والشخصية فارقًا كبيرًا، ومنهم:

أحمد سلامة - زينة خليل - شريف عبد الهادي - محمد نجيب عبد الله - مي أشرف - وفاء العشي - أحمد عبد المجيد - أحمد القرملاوي - آن أدهم - سلمى أنور.

لا شيء
مما سبق

يوم واحد فقط غيّر حياة هذا الرجل، فقسّمها إلى نصفين، وشطره إلى شخصين متناقضين تمامًا،
هل هو طيبٌ أم شريرٌ، ماكرٌ أم ساذجٌ، مسلمٌ أم مسيحيٌّ، جانٍ أم مجني عليه؟!
هو نفسه لم يستطع الإجابة على هذه الأسئلة إلا بعد الخوض في رحلة تحبس الأنفاس مع كل حدث يقابله!
صليب، وشم، قرآن، كاميرا، طبنجة ميري، كارت ذاكرة، صراخ، ضياع..... وصمت.
جميع ما سبق ليس إلا أيقونات وتمائم تتشابك بها أحداث الرواية التي لا تهدأ، ويأخذنا فيها المؤلف عبر شخوصه الذين يمثلون نماذج تفنّنت في صنع الفساد والانحلال، من خلال أحداث مُربكة، مُرهقة للأعصاب يغلفها الإثارة والتشويق

أمير عاطف



كاتب مصري من مواليد القاهرة 1984 ، تخرّج في كلية الآداب، جامعة عين شمس، قسم حضارة أوروبية قديمة ثم تخصص في دراسة الأدب اللاتيني واليوناني.....
صدر له رواية "طارئ" في عام 2014 ، وجاري تحويلها لفيلم سينمائي

ISBN 978-977-6426-85-6



